كلمات

□ ١ □

« الأزمنة الرديئة تنتج ثقافة رديئة . » كتب ، في الآونة الأخيرة ، احد المثقفين العرب . لا دفاعاً عن تردّي الثقافة العربية كتب ، بل اعترافاً بائساً بهذا التردي .. اعترافاً ، ومحاولة تسويغ في آن : « الأزمنة المجيدة ، بالمقابل ، تنتج ثقافة مجيدة . » واضاف : « في هذا الزمن العربي الرديء لا تنتظروا ثقافة ذات قيمة . » .

لماذا ؟

لأن التخلف ، كما الحضارة ، لا يتجزأ . وفي وطن متخلف ، من العبث انتظار ثقافة متقدمة . هذا هو الدور الثاني لانحطاط العرب . عودوا الى ما اعطى الانحطاط الأول : ثقافة من فسيفساء ، من تبرّج مضحك تحته يسترخي جسد عجوز مترهل ، ولا دمَ فيه . لا يتجزأ التخلف . والعرب في انحطاطهم الثاني ، لن يبدعوا ثقافة ذات امتياز . حياتنا في بؤس ، وكذلك ثقافتنا .

□ ٢ □

نعترف بالبؤسين معاً : بؤس الحياة ، وبؤس الثقافة . ولا نردّ الثاني إلى الأول . نرده إلى بؤس الثقافة ذاتها . فقد يحدث أن يكون الزمن رديئاً ، وتكون الثقافة ذات مجد .

عربياً ، كان زمن المتنبي شديد الرداءة . ملءَ الأرض كان الانهيار . مـا كان ، على امتداد الوطن الكبير ، سوى سيف الدولة مَن على الأنقاض يقف ، وفي يده السيف ، وفي صدره ، كما خلف ظهره ، الروم ... هذا الزمن ، بالذات ، أنتج أعظم الشعر ، إلى جانبه أعظم الثقافة أيضاً . زمـن « رسالة الغفران » ما كان أفضل ، أما المعري فعظيم .

□ ٣ □

يحدث ، إذاً ، ان يكون الزمن رديئاً ، وتكون الثقافة عظيمة . كـان الزمن الروسي أردأ ما يكون ، وقت كـان دستوفسكي ، تولستوي ، وبوشكين ، يبنون ثقافة روسيا الشامخة . كانت ثقافتهم هدماً للزمن القيصري الأسود ، مثلما هي إرهاصٌ بزمن مـا بعد الأنقاض . أفضل شعر الشريف الرضي هو صرخته آن كانت بغداد تتهيأ للسقوط . أعظم شعر فرنسا كان وقت الاحتلال .

المِحنُ مشحذة الثقافة ، لا الاسترخاء . الإبداع ابنٌ شرعيٌ للأزمات ، ذلك انه ابن شرعي للتوتر . لا يكون إبداع ما لم يكن توتر على مستوى الأزمة ، ما لم تكن المحنةُ خالقةَ التوتر ، ما لم يتوضع المبدع في اختبار المصير . الثقافة عدوة الاسترخاء . حتى الاسترخاء الحضاري لا ينتج ثقافة مبدعة . للإبداع ، في الفن خاصة ، حالة القوس المشدود . إنما الذي لا ينقطع . وإنما الذي لا يسترخي .

□ ٤ □

لا حالة موت هو ، الزمن العربي الرديء هذا ، بل حالة مخاض صعب ، حالة محنة حقة . الولادة ، لا محالة ، آتية . أما الأم فقد تموت . ما يهم ؟ يعنينا من يولد . يعنينا مـن الثقافة ما يبشر بالولادة ، لا ما يحمل نعي الأم . يعنينا ، على رداءة حياتنا ، ان نتجه إلى هذا الآتي .

□ ٥ □

ثقافتنا ، للأسف ، لا تفعل هذا .

لذلك هي بائسة .

رئيس التحرير

دراســات فـي الإقتصـاد

محــور

نحو تكتـل اقتصادي سليم
في الدول النـامية بشكل عام
وفي الدول العربية بشكل خاص

د. أحمد فارس مصطفى

التعليم والتنمية الإقتصادية

د. تيسير رداوي

التصنيع في البلدان المتخلفة

د. محمد مروان السمان

أهميّة المعطيات الإحصائية
في التخطيط لمساهمة المرأة
في التنمية الإقتصادية

الدكتورة أمل كابوس

هجـرة الكفاءات العَرَبية

أسـباب ـ نتـائج
مقـترحات للحـل

علـي العيـد

نحو تكتل اقتصادي سليم في الدول النامية بشكل عام وفي الدول العربية بشكل خاص

د. أحمد فارس مصطفى

أولا : ضرورة التكتل الاقتصادي للدول النامية

ان دراسة تاريخ الوقائع الاقتصادية يعطي انطباعا عاما بان العلاقات الاقتصادية الدولية كانت شبه موجهة دائما بمبادىء الحماية التجارية باشكالها المتعددة . وقد احتل موضوع التكتلات الاقتصادية (مهما كان محتوى واهداف هذه التكتلات) ، اهمية كبيرة في سياسات الدول المختلفة ، وبخاصة بعد

الحرب العالمية الثانية . ذلك لان هذه التكتلات اصبحت تمثل ضرورة موضوعية تحتمها التطورات العالمية في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها . وقد تجسدت هذه التكتلات في صور ودرجات متفاوتة من التكامل الاقتصادي . ففي اوربة الراسمالية نجد الاتحاد الجمركي ومن بعده الاتحاد الاقتصادي بين بلدان البنلوكس (بلجيكا ـ هولندا ـ لوكسمبورج) ، وجماعة الفحم والصلب الاوربية ، والجماعة الاقتصادية الاوربية (المشهورة باسم السوق الاوربية المشتركة) ، ومنظمة التجارة الحرة . وفي اوربة الشرقية ظهر مجلس التعاون الاقتصادي المتبادل (المعروف باسم الكوميكون) ، الذي يضم معظم البلدان الاوربية الاشتراكية . اما الدول النامية ، فانها ظلت بعيدة عن التكتل الاقتصادي حتى بداية السبتينات ، ولاسباب سياسية واقتصادية عديدة .

في الواقع ، ان الدول المتقدمة صناعيا وتقنيا ، قد لجأت الى تطوير انواع متعددة الاشكال ومختلفة الصور من التكامل الاقتصادي الاقليمي (على مستوى عدة دول) ، وذلك اما لاسباب اقتصادية تنصب او تنحصر في اجراء ازالة اوتخفيف قيود الحماية التجارية التي تفرضها كثير من الدول على التجارة الخارجية ، أو لاسباب سياسية ، والتي يعتبر من اهمها وابرزها المنافسة بين النظامين الاجتماعيين العالميين ، النظام الاشتراكي والنظام الراسمالي ، وضرورة تدعيم مواقع النمو الاقتصادي والتطور العلمي ـ التقني في كل مكان من هذين النظامين المذكورين .

لقد كان للتطورات السياسية العالمية ، ولا سيما على اثر ظهور المعسكر الاشتراكي كقوة عالمية وتعاظم دوره وتأثيره في المجالات الاقتصادية والسياسية ، وتحقيق الاستقلال والتحرر الوطني لمعظم الاقطار التي كانت تابعة للنظام الراسمالي ، وتعاظم دور المعسكر المعادي للاستعمار ، دورا كبيرا في ربط القوة السياسية والعسكرية بالقوة الاقتصادية ، مما اسبغ على التكتلات الاقتصادية طابعا سياسيا .

مما سبق يمكن ان نستنتج انه لكل تكامل وتكتل بين عدة دول اسباب ودوافع سياسية واقتصادية واجتماعية .. الخ . لكن اذا تركنا جانبا كل الدوافع والاسباب الاخرى للتكتل ما عدا الاسباب الاقتصادية ، لوجدنا انه يمكننا ان نلخص الاسباب الاقتصادية للتكتل في الفقرات التالية :

١ ـ الاستفادة من اتساع حجم السوق الناجم عن ازالة الحواجز بأنواعها (جمركية ـ ادارية ـ . . . .) بين الدول الاعضاء ، مما يتيح انشاء وحدات انتاجية قادرة على تحقيق وفورات الانتاج على نطاق واسع .

٢ ـ تنشيط المنافسة بين المشروعات الانتاجية المتماثلة في البلدان الاعضاء في التكتل الاقتصادي ، مماينتج عنه تحسين الكفاءة الانتاجية لها، وتخفيف حركة احتكار السوق الداخلية من قبل اعداد قليلة من الشركات الانتاجية الكبيرة في كل من البلدان الاعضاء المتكتلة على حدة . وهذه الظاهرة لها اهميتها ، بخاصة ، في الدول النامية ، اذ ان السوق الداخلية لكل منها ضعيفة اذا اخذ كل منها على حدة .

٣ ـ هنالك دول عديدة يرتكز اقتصادها الوطني وهيكل تجارتها الخارجية على سلعة واحدة او عدد محدود من السلع ، كالنفط والقطن والكاكاو و ... الخ . فيشكل تنافس هذه الدول في استغلال مواردها وفي تصريف انتاجها عائقا يحول دون حصولها على اسعار مجزية لسلعها في السوق الدولية ، خصوصا اذا كانت الدول المستوردة تؤلف ، بشكل علني او ضمني ، جهة واحدة . وفي هذه الحال ، فان تكاتف وتكتل الدول المنتجة سيعود عليها حتما بشروط تجارية افضل في السوق الدولية .

٤ ـ ان التجارة الدولية للبلدان الحديثة العهد بالاستقلال السياسي تخضع لمخاطر عدم ثبات الاسعار في الاسواق الخارجية بسبب عدم تمتعها بالمعاملة التفضيلية ، وبسبب ميل معظم الدول الى حماية

اسواقها المحلية . ولذلك هذه الدول مجبرة على اتخاذ اجراءات تهدف الى توحيد اسواقها وتأمين اقنية جديدة لتبادل سلعها وتعميق هذه المبادلات بشكل يمكنها من مواجهة اجراءات الدول الاخرى التي تلجأ الى حماية اسواقها .

٥ ــ لعل الهدف الاساسي للتكتل الاقتصادي الدولي ، هو رغبة الدول ، وبخاصة النامية منها ، في توفير الظروف الملائمة لاستغلال خبراتها والاستفادة المتبادلة من مزاياها الانتاجية ، ودفع عجلة التصنيع فيها والارتقاء بها من الصناعات البسيطة الى الصناعات التصنيعية (الصناعات التحريضية) ، التي تجسد الثورة العلمية التقنية الهائلة التي يشهدها عصرنا الحالي .

٦ ــ ان التكتل الاقتصادي بين مجموعة من الدول يعطيها ثقلا على كافة الاصعدة والمجالات في علاقاتها الدولية ، ويؤمن لها قدرة اكبر على المساومة التجارية وفرض الشروط التي تراها ملائمة ومناسبة للمعطيات الاقتصادية المتوفرة فيها بشكل جماعي .

لقد تضافرت هذه العوامل والدوافع والاسباب ، واظهرت **الحاجة الى التكتلات الاقتصادية في مختلف مناطق العالم** المتطورة منها والمتخلفة ، الراسمالية منها والاشتراكية . الا ان هدف هذه التكتلات لم يكن واحدا . فالتكتلات الراسمالية تحاول محاصرة الاقتصاديات المتخلفة واقتسام الاسواق التقليدية على اسس جديدة . في حين ان التكتلات الاقتصادية للدول الاشتراكية تحاول تحقيق مزايا مشتركة لاعضائها ومجابهة خطر التكتلات الراسمالية ومحاولة مساعدة الدول النامية على الانطلاق نحو التقدم وكسر طرق التخلف الذي يحيط بها ويعرقل نموها ، ويحول دون رفع مستوى معيشة سكانها .

ازاء هذه المعطيات الجديدة في العلاقات الاقتصادية الدولية ، فان البلدان النامية ومن **بينها البلاد العربية** ، تجد نفسها في اشد الحاجة الى

التعاون والتكتل والمواجهة المشتركة لحل مشكلاتها الاساسية البالغة الصعوبة في ميدان التنمية الاقتصادية . وخاصة ان اغلب هذه الدول تعاني من ضعف مواردها المادية والمالية . كما تعاني من ضيق أسواقها الداخليـة ، مما يعيـق اقامـة الصناعات الاساسية (التصنيعية او التحريضية) واللازمة لدفع عجلة التنمية والتطور الى الامام . بالاضافة الى ان منتجات هذه البلدان النامية (ان وجدت) ، تتعرض للمنافسة الخارجية ولا تستطيع ان تصمدامام منتجات البلاد المتقدمة في الاسواق الخارجية .

ان الدول العربية (كبقية الدول النامية) ، تحاول ومنذ وقت طويل الاسراع في نموها الاقتصادي . ورفع مستوى المعيشة لسكانها ، لكن الحدود السياسية والاقتصادية (والتي ظهرت بعد الاستقلال وانتهاء الاستعمار) ، اعاقت ولا تزال تعيق الجهود المبذولة في مجال تنمية هذه الدول وتحقيق اهدافها الاجتماعية والاقتصادية على حد سواء .

ان ضيق الاسواق الوطنية للدول العربية (اذا اخذت على انفراد)، بالاضافة الى التوزيع غير العادل للمصادر الطبيعية (من ثروات طبيعية او طاقة سكانية) يشكلان اهم عائق امام خطط التنمية الاقتصاديةالعربية، كما انهما يعيقان اية جهود من اجل اقامة الصناعات اللازمة للتطـور والتقدم وتبديل هيكل الانتاج في هذه الدول .

وفي الوضع السياسي الحالي للدول العربية ، الذي لا يسمح بدعم العلاقات الاقتصادية عن طريق اقامة اتحادات سياسية ، يظهر التعاون والعمل الاقتصادي المشترك بين الدول العربية كحل بديل وضروري من اجل ان تحتل هذه البلاد المركز اللائق بها في موكب الحضارة الانسانية ، ولان تحقق خطط تنميتها الاقتصادية وبالتالي رفـع مستوى المعيشة للسـكان .

وكما نعرف ، يتالف وطننا العربي في وقتنا الحاضر من عدد ليس بالقليل من الدول المستقلة ، ذات السيادة ، حيث الحدود السياسية

تشكل حدودا اقتصادية ، مما يؤدي الى تشكل اسواق ضيقة تفوت فرصة الاستفادة من مزايا السوق الواسعة (المؤلفة من مجموع الاسواق العربية المنفصلة والمبعثرة) .

هذا ويظهر البنيان الاقتصادي لهذه الدول العربية تشابها واضحا ، رغم تنوع النشاطات الاقتصادية واختلافها نتيجة التنمية التي لحقت بقطاعات معينة دون اخرى وفي بعض البلدان العربية دون جاراتها .

لكن بشكل عام ، ان النشاط الاقتصادي في معظم الدول العربية يعتمد على قطاعي الزراعة والصناعة الاستخراجية (صناعة النفط بشكل خاص) ، اضف الى ذلك اعتماد هذه الدول على التجارة الخارجية في تكوين الدخل القومي ، مما يشير الى مدى تبعيتها الى الاقتصاد العالمي .

واخيرا فان ضيق الاسواق الداخلية لمختلف الدول العربية تكون المشكلة الرئيسية في وجه التصنيع والتنمية الاقتصادية لدى كل هذه الدول تقريبا .

لكل ما سبق ، لم يكن غريبا القول ان التكتل والتكامل الاقتصادي العربي هو ضرورة ملحة وحيوية للدول العربية .

ولا بد في هذا المجال من ان نشير الى مسألة هامة تمثل احد التناقضات الاساسية البارزة في التكتلات الاقتصادية لبلدان العالم الثالث (ومن ضمنها بلدان العالم العربي) ، فعلى الرغم مما تمثله التكتلات الاقتصادية للدول الراسمالية من مخاطر اقتصادية وسياسية جسيمة بالنسبة للدول النامية ، الا ان هذه الاخيرة قد اعتمدت ، بشكل صريح أو ضمني على الاسلوب الراسمالي في التكتلات الاقتصادية والمبني على اساس حرية التجارة . ولا شك ان هذا التناقض يمثل احد اهم الاسباب التي جعلت تكتلات الدول النامية عاجزة عن تحقيق طموحات شعوب البلدان النامية ، وهي تعكس من ناحية أخرى عجز الانظمة

السياسية والاجتماعية للبلدان المتحررة حديثا بشكل عام ، من تحقيق الاستقلال الاقتصادي الكامل وفك الارتباط بشكل نهائي عن النظام الراسمالي العالمي .

في الحقيقة ان عدم التمييز بين التكتل والتكامل الاقتصادي للبلاد المتقدمة ، والتكتل والتكامل الاقتصادي للبلاد المتخلفة ، انما ينشأ عن عدم اعطاء حالة التخلف الاقتصادي التي تعاني منها كل الدول النامية (ومنها الدول العربية) ، الاهمية اللازمة من اجل ايجاد الحل الناجع لهذه الظاهرة التي تعرقل كل نمو وكل محاولة لرفع مستوى المعيشة للسكان المعنيين بالامر .

ان التكتل الاقتصادي المطلوب في الدول النامية ، هو التكتل الذي يؤدي الى بناء الهياكل الانتاجية فيها ، والذي يؤدي الى تصنيعها ، وبالتالي هو التكتل القادر على القضاء على حالة التخلف التي تعاني منها الدول النامية . ولذلك فان اتباع الدول النامية لنفس الطريق الذي اتبعته الدول الراسمالية في تحقيق تكاملها وتكتلها الاقتصادي ، لن يؤدي الى تقدم ونمو اقتصاديات هذه الدول .

وبناء على الاسباب السابقة ، على الدول النامية ، ومنها الدول العربية ، أن تبني تكتلها الاقتصادي على اسس تؤدي الى تحقيق التنمية الاقتصادية المرغوبة ورفع مستوى المعيشة لسكانها . وعلى الدول النامية ان لاتنسى أيضا ان وضعها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي يختلف كل الاختلاف عن حال الدول الراسمالية . بالاضافة الى ان الغاية المرجوة من التكتل الاقتصادي في الدول النامية (القضاء على حالة التخلف) ، تختلف عنها في الدول المتقدمة (حرية التجارة) .

ان التكامل والتكتل الاقتصادي هو الطريق العلمي (والعملي) الحديث لخروج الدول المتخلفة ذات الهياكل الانتاجية الضعيفة من دائرة التخلف والتبعية الاقتصادية للدول المتقدمة ذات الهياكل الإنتاجية

المتطورة ، لكن يجب ان يقام هذا التكتل الاقتصادي المنشود على أسس تختلف عن تلك التي كانت اساسا للتكتل الاقتصادي بين الدول المتقدمة .

ان التكتل الاقتصادي المطلوب والملائم لحالة الدول المتخلفة هو ذاك التكتل القادر على تحقيق التنمية الاقتصادية الفعلية ، وهو ذلك التكتل الذي يعني ببناء الهياكل الانتاجية وتكامل هذه الهياكل في مختلف الدول المعنية بالامـر .

ان التكتل الاقتصـادي السليم هو التكامل بالتنمية ، وتنميـة بالتكامل . حيث أن التكامل سيسمح للتنمية بالقيام ، كما ان التنمية المحدثة ستسمح للتكامل الاقتصادي (وبالتالي للتكتل) ، بالتحقق . وعن طريق هـذا التكامل والتكتل بهذه المواصفات ستستطيع الدول المتخلفة كسر طوق التخلف ومن ثم تحقيق تنميتها الاقتصادية المطلوبة وتحقيق رفاه شعوبها ورفع مستوى معيشة مواطنيها .

ثانيا ـ نظرية التكامل الاقتصادي والدول النامية(١) :

لم يعد بالامكان النظر الى مفهوم التنميـة الاقتصادية بمعزل عن مفهوم التكامل الاقتصادي . ويظهر تلازم المفهومين من خلال التحديد لما يعنيه مفهوم التنمية في وقتنا الحاضر .

(١) ينطوي التكتل الاقتصادي على مبدا التكامـل الاقتصادي كضرورة ومنهـاج لأعلى مستويات التعاون ، حيث يهدف الى بلوغ افضل الفوائد التي تدفع الدول الاعضاء نحو ابعد درجات التكامل فيه ، ويعني هذا بلوغ الوحدة الكاملة . مما سبق يمكن ان نستنتج التلازم بين التكتل الاقتصادي والتكامل الاقتصادي في مظاهر التعاون القائم بين الدول . ولذلك من هذا الواقع ، يمكن القول ان دراسة التكامل الاقتصادي واسسه توضح الطريق الذي ترسمه دول منطقة ما من اجل تحقيق تكتلها الاقتصادي المطلوب .

مفهوم التنمية بجانبه الاقتصادي ليس سوى الرد التاريخي الصحيح على وضع اقتصادي معين في مجموعة معينة من البلدان في عالمنا الراهن هي ما اصطلح على تسميته ببلدان العالم الثالث أو البلدان النامية . وجميع هذه البلدان كانت اما مستعمرة او شبه مستعمرة . وبعد نضال طويل ضد الاستعمار حصلت هذه البلدان على استقلالها السياسي . لكن هذا الاستقلال لم يضعها تلقائيا في مستوى الدول التي كانت تعاني من سيطرتها . وانما اصبحت مستقلة وفي الوقت نفسه متخلفة بالقياس للدول الصناعية المتقدمة . وهذا الوضع عائد الى ماورثته الدول النامية من المرحلة السابقة للاستقلال من بنى اقتصادية تتسم بصفتين اساسيتين هما :

١ ــ **تبعية البنى الاقتصادية** للمراكز الاستعمارية السابقة . اي خضوع اقتصاديات بلدان العالم الثالث في نموها وتطورها لمقتضيات نمو اقتصاديات المراكز وتطورها . وتنحصر وظيفتها بلعب دور المنتج للمواد الاولية اللازمة للبلدان الراسمالية المتقدمة ، ودور السوق لتصريف السلع المنتجة في هذه البلدان ، ولتوظيف الرساميل الفائضة عندها .

٢ ــ **تفكك البنى الاقتصادية** للدول النامية . فوظيفة الاقتصاد المتخلف كمنتج للمواد الاولية اللازمة للمراكز الراسمالية المتقدمة ، وكسوق لتصريف بضائعها ، ولتوظيف رساميلها ، تجعل من القطاعات المرتبطة بهذه الوظيفة قطاعات منعزلة داخل البنية الاقتصادية العامة للبلد ، ولا روابط تذكر تشدها الى بقية القطاعات التي تستمد منهـا الاكثرية الساحقة من السكان معيشتها . فالزراعة والصناعات الحرفية تبقيان على تخلفهما ، بل تزداد اوضاعهما سوءا نتيجة لمزاحمة البضائع الاجنبية لها .

تلك هي اذن ركيزتا التخلف الاساسيتان : تبعية الاقتصاد وتفككه ، وما تبقى من ظواهر ، كانخفاض الدخل ، وتفشي الامية والامراض وغير ذلك مما يؤخذ من مؤشرات للتخلف ، ما هي في الواقع سوى نتائج لحالتي التبعية والتفكك .

وعليه فان معالجة حالة التخلف في الدول النامية لا يمكن ان تنجح الا على ارضيــة معالجة المشكلتين الاساسيتين المذكورتين (التبعيــة والتفكك) ، وايجاد الحلول الصحيحة لهما . وان السير في طريق التنمية الفعلية لا يعني في التحليل الاخير سوى ذلك . وركيزتا عملية التنميــة الاساسيتان لا يمكن بذلك أن تكونا سوى استقلال الاقتصاد في الدول النامية وتكامله وتكتله مع اقتصاديات دول المنطقة المحيطة به .

لكن الســؤال الذي يطرح في هذا المجال ، يتعلق بمعرفــة الطريق الصحيح الذي على الدول النامية ان تتبعه من اجل الوصول الى التكامل الاقتصادي المطلوب وبالتالي تحقيق التنمية والتقدم .

في الحقيقة ، لقد اخطأت كل الدول النامية في اختيار طريقة التكامل الاقتصادي على النمط الرأسمالي ، تلك الطريقة القائمة على حرية التجارة وازالة الحواجز الجمركية . ودليل خطأ هذا الاختيار ظاهر في الفشل الذريع الذي واجهته كل التكتلات الاقتصادية في الدول النامية ومنها الدول العربية .

هذا ، وان سبب اختيار الدول النامية لاقامــة تكاملها وتكتلهــا الاقتصادي نفس الخطوات التي اتبعتها الدول المتقدمة (وخاصة الدول الرأسمالية) ، يعود لعدم وجود نظرية تكامل وتكتل اقتصــادي خاصة بالدول النامية .

في الواقع ان معظم الدراسات التي تناولت التكامل الاقتصـــادي بالبحث والتحليل اعتمدت على تفسير التكامل الاقتصادي في البــلاد المتقدمة والمتطورة ، دون التعرض لتكامل الدول النامية . ولذلك يرى كثير من الاقتصاديين ان الوقت قد حان لكي تعطى الاهميــة اللازمة لتجارب الدول النامية في التكامل الاقتصادي من اجل وضع الاســس النظرية التي تساعد تلك الدول على ايجاد الطريق الصحيح لنجاح تكاملها الصحيح .

وبالفعل قام بعض الاقتصاديين ببحث التكامل الاقتصادي من واقع تجارب الدول النامية ، لكن اغلبهم اعتمد من جديد في تحليله على نظرية حرية التجارة والاتحاد الجمركي كأساس لاقامة التكامل الاقتصادي ، رغم انه ثبت من كل تجارب الدول النامية ، عدم صلاحية هذا الطريق لإقامة التكامل الاقتصادي الصحيح والسليم .

ان الاسس الهامة من اجل بناء السياسة الصحيحة لتكامل الدول النامية تكمن في الاخذ بعين الاعتبار الاشياء التالية :

١ ــ الحالة الخاصة لاوضاع الدول النامية :

وذلك من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ذلك لانه لا يزال امام هذه الدول طريق طويل قبل الوصول الى المستوى الصناعي والانتاجي للدول المتقدمة . ولذلك الدول النامية لا تستطيع ان تقلد الطرق التي اتبعتها تلك الدول المتقدمة لبناء تكاملها ، وانما عليها وضع طرق واساليب جديدة لتحقيق ذلك التكامل ، آخذة بعين الاعتبار الاوضاع الخاصة والسائدة فيها كدول نامية .

٢ ــ اهمية هدف التكامل الاقتصادي في الدول النامية :

ان الطابع الخاص لنظرية التكامل الاقتصادي للدول النامية ناشيء من الهدف الاساسي الذي تريد هذه الدول تحقيقه من وراء هذا التكامل. وهذا الهدف هو تحقيق التنمية الاقتصادية عن طريق التصنيع . ولذلك فكل طريق آخر لتحقيق تكامل هذه الدول لا يحقق لها هدفها الاساسي بالتصنيع وبناء الهياكل الانتاجية ، يعتبر طريقا غير مقبول وغير سليم .

٣ ــ اهمية دور الدولة وقطاعها العام في الحياة الاقتصادية :

يقع على عاتق الدولة وقطاعها العام في الدول النامية واجب اداء الدور الاساسي لتحقيق التكامل الاقتصادي المرغوب عن طريق التخطيط واتخاذ الاجراءات الكفيلة بايجاد حل ناجع للمشكلات التي تعاكس التنمية

الصناعية ، وفي هذا الحال ، ومن وجهة نظر اقتصادية ، قدمت مجموعة الدول الاشتراكية للبلاد النامية المثال الذي يجب اتباعه من أجل وضع وتنفيـذ الخطط التي تؤدي الى تحقيق التصنيع والخروج من حالة التخلف .

ـ من كل ما سبق يمكننا القول بأن التكامل الاقتصـادي للدول النامية يؤسس على مبادىء واهداف مختلفة عن تلك التي تتبع في تحقيق التكامل الاقتصادي في الدول المتقدمة ، وخاصة الراسمالية منها . وبناء على ذلك ، فان النظرية التي ستبحث في التكامل الاقتصادي للدول النامية ستكون نظرية حركية (ديناميكية) ، لانها تبنى بشكل اساسي على الفكرة القائلة بأن الدول النامية لن تستطيع تحقيق تكاملها الاقتصادي الفعلي (السليم) ، ما لم تجر تعديلا مسبقا لبنيانها الانتاجي ، وبتعبير آخر ان التكامل المطلوب في الدول النامية هو تكامل بالتنمية وهو تنمية بالتكامل .

ولذلك فان التكامل السليم والصحيح في الدول النامية هو الذي يؤدي الى تطوير الهياكل الانتاجية وتنميتها وبجعلها قادرة على تزويد قطاع التجارة الخارجية بالسلع والمنتجات التي تحتاجها الدول الاعضاء والتي تكون مادة للتبادل فيما بينها . وفي هذا المجال يأتي الانتاج المشترك (او التخصص والتعاون الانتاجي) ، ليفرض نفسه كاساس وحيد لانجاح التكامل الاقتصادي المنشود بين مجموعة من الدول النامية . ذلك لانه عن طريق الانتاج المشترك ستستطيع الدول النامية تحقيق تنميتها الاقتصادية واعادة بناء هياكلها الانتاجية لتصبح متطورة ومتقدمة ومنافسة بمنتجاتها لما تقدمه الدول المسيطرة والمحتكرة للتجارة الدولية .

اما بالنسبة لمفهوم الانتاج المشترك ، فان هذه الصيغة لبناء التكامل تتضمن أن تضع الدول النامية الراغبة في المساهمة بالتكامل الاقتصادي السليم ، كل امكانياتها المالية والبشرية والطبيعية من اجل انشاء مشاريع مشتركة في قطاعي الزراعة والصناعة ، ويعود أمر ادارتها اليها وحدها كما يعود اليها توزيع الانتاج والايرادات بين الدول الاعضاء وبحسب نسب الاشتراك .

ان الانتاج المشترك يعتبر نوعا من التكامل المحدود والذي يشكل في المستقبل اساسا للتكامل الاقتصادي الشامل والصحيح .

ويمكن تعريف الانتاج المشترك الدولي وبمعناه الواسع بانه « اشتراك مراكز القرارات الخاصة (الافراد) او العامة (الحكومات) ، والعائدة لعدة دول في العملية الانتاجية » . وهذا يعني اقامة المشاريع المشتركة، والاختيار المشترك ، وتامين الوسائل الكفيلة بتحقيق التصنيع والتسويق للمنتجات الصناعية . ومن هذا يمكن ان نستنتج ان التكامل الاقتصادي على اساس الانتاج المشترك يخطط لنتائج ابعد بكثير من تحقيق توازن السوق او حرية التجارة لانه يخطط لاتحاد حقيقي بين مراكز القرارات العائدة للدول الاعضاء . ومن هذه الزاوية يمكننا القول ، بأن صيغة الانتاج المشترك كوسيلة جديدة لاقامة التكامل الاقتصادي في الدول النامية ، تسمح بتحقيق اتحاد قائم على التضامن الفعلي والحقيقي والذي سيؤدي مستقبلا الى تحقيق الاتحاد الكامل . وفي هذه الصيغة الجديدة للتكامل الاقتصادي في الدول النامية ، لا تلعب آلية السوق (العرض والطلب) اي دور اساسي ، بل على العكس من ذلك ، فان السلطات العامة (الحكومات) ستتدخل من اجل انجاح التكامل الاقتصادي القائم على الانتاج المشترك ، ولاسيما بسبب ضعف الادخار الفردي في الدول النامية من جهة ، ولضرورة التخطيط الاقتصادي للتنمية ، حيث يلعب التمويل الحكومي دورا اساسيا من جهة ثانية .

والخلاصة التي يمكن ان نقولها حول تكامل الدول النامية (ومنها الدول العربية) ، ان الطريق الصحيح والسليم لهذا التكامل قد اتضحت الآن معالمه واسسه ووسائله ، ويتم ذلك عن طريق برامج الانتاج المشترك، وبخاصة ان الطرق الاخرى للتكامل ، والمبنية على حرية التجارة ، قد ثبت فشلها في كل تجارب التكامل الاقتصادي التي تمت في الدول النامية .

ولذلك اذا استمرت حكومات الدول النامية (ومنها الدول العربية) على اتباع الطريق التقليدي ، اي الطريق الراسمالي المبني على حرية التجارة ، في بناء تكاملها الاقتصادي ، فان هذا يعني شيئا واحدا ، هو ان الحكومات في تلك الدول النامية لا تريد لشعوبها الخروج من حلقة التخلف وحلقة التبعية والتجزئة والضعف .

ثالثا ـ التكامل الاقتصادي العربي ، بين النظرية والتطبيق :

بدا التعاون بين البلدان العربية باكرا وبشكل ثنائي . اما التعاون الاقتصادي المتعدد الاطراف ، فانه لم يتخذ شكلا واضحا الا منذ عام ١٩٥٢ ، عندما عقدت « اتفاقية تسهيل التبادل التجاري وتنظيم تجارة الترانزيت » بين الدول العربية الاعضاء في الجامعة العربية .

وفي حزيران / ١٩٦٢ / تم عقد اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، بعد خمس سنوات من المفاوضات والمباحثات المطولة ، ولم تنضم الى هذه المعاهدة في حينه سوى خمس دول عربية فقط (هي : سورية ـ الاردن ـ مصر ـ الكويت ـ المغرب) ، ثم انضمت الى المعاهدة ثلاثة دول عربية اخرى (العراق ـ اليمن الشمالي ـ السودان) . وجاء في الاتفاقية ان الحكومات العربية ستسعى لاقامة وحدة كاملة فيما بينها ، وتحقق لها افضل الشروط لازدهار اقتصادها وتنمية ثرواتها وتأمين مستوى معيشة افضل لشعوبها . وان يتم تحقيق هذه الوحدة الكاملة بصورة تدريجية وعلى مراحل .

هذا ، ومن استعراض اهداف ووسائل اتفاقية الوحدة الاقتصادية العربية ، نجد انها اعتمدت على مبدأ « الاتحاد الجمركي وحرية التجارة »

كاساس لإقامة الوحدة والتكامل الاقتصادي العربي . اي انها اختارت الاسلوب الرأسمالي القائم على حرية التجارة في اقامة التكتل والتكامل . وبالتالي وقعت في نفس الخطأ الذي ارتكبته الدول النامية الاخرى ، والذي أدى الى أن يكون مصير كل تكاملها وتكتلها الاقتصادي الفشل الذريــع .

وجاء انشاء **السوق العربيــة المشتركة** ، كخطوة اولى نحو تحقيق الوحدة الاقتصادية العربية ، بقرار من مجلس الوحدة الاقتصادية العربية في آب /١٩٦٤/ . وعند انشائها ، لم يصدق على القرار سوى اربعــة دول عربية هي : سورية ومصر والاردن والعراق ، وبقيت الدول العربية الاخرى خارج السوق العربية .

وفي الواقع العملي ، ومنذ دخول قرار انشاء السوق العربية المشتركة في بداية ١٩٦٥ ، نفذت الدول العربيــة الاعضاء في السوق القرارات الخاصة بتحرير التجارة فيما بينها من جميع الرسوم الجمركية والرسوم والضرائب الاخرى والقيود الكمية والادارية بغية ايجاد منطقة تجارة حرة تضم الدول الاعضاء .

ورغم تحرير التبادل التجاري بين الدول الاعضاء في السوق العربية المشتركة فان **ارقام التجارة بينها بقيت ضئيلة** ولا تشكل الا نسبة بسيطة من اجمالي تجارتها الخارجية (٥ر٦٪ من اجمالي الصادرات والواردات تقريبا) ، بينما تصل نسبة التجارة العربية مع الدول الصناعية الغربية الى ما يقرب من ٧٧٪ من التجارة الخارجية العربية .

وتعود نسبة التبادل التجاري الضعيفة بين الدول العربية بشكل عام وبين الدول الاعضاء في السوق العربية المشتركة بشكل خاص ، الى أن جميع الدول العربيــة تدخل في عداد الدول المصدرة للخامات والمواد الاولية ، والمستوردة للسلع والمنتجات الصناعية . وبالنتيجة ، فان درجة ارتباط الاسواق العربية (بوضعها الحالي) بالاسواق الخارجية هي

اقوى بكثير من درجة الارتباط الداخلي بين الاسواق العربية بعضها البعض ، وحتى وان كانت تضمها السوق المشتركة .

ان ظهور دلائل اندماج منخفضة في مجال التجارة بشكل عام (٦ر٥٪) بين دول السوق العربية المشتركة يعكس عدم الترابط بين القطاعات الاقتصادية وغياب تنسيق السياسات اللازم لتنويع الانتاج لتحقيق قدر اكبر من الترابط . كما يعكس اعتماد هذه الدول العربية في تأمين احتياجاتها على الدول خارج الاقليم وبنسبة كبيرة . وهذا الوضع يكرس تبعية هذه الدول للعالم الخارجي .

ان دراسة حالة السوق العربية المشتركة وفقا للمعطيات الاقتصادية لكل من بلدانها الاربعة ، تكشف عن مجموعة من الحقائق ، نوجزها فيما يلي : (وهي تنطبق ايضا على علاقة الدول العربية الاخرى ببعضها) :

١ ــ تخلف الهياكل الانتاجية لكل الدول الاعضاء ، وتخلف القطاعات المكونة لهذه القطاعات ، وضآلة حجم الصناعات الحديثة .

٢ ــ اعتماد الدول الاعضاء على التجارة من خارج الاقليم (صادرات وواردات) ، وهو ما يعكس ضعف الترابط الهيكلي بين اقتصاديات هذه الدول .

٣ ــ هناك امكانيات هائلة للاندماج الاقتصادي العربي لم تستغل حتى الآن . وان هناك العديد من المصالح المشتركة بين بلدان السوق لم يتم النظر اليها من خلال الجهود المشتركة .

٤ ــ تباين الاقتصاديات القطرية العربية من حيث هياكلها الانتاجية ومن حيث مراحل ومستويات النمو التي وصلتها ومن حيث الموارد والثروات الطبيعية والبشرية والمالية .

٥ ـ المصالح الضالعة داخل الاقطار العربية ، ففي كل قطر عربي هناك مصالح لبعض الفئات ، في القطاعات التجارية والصناعية والخدمات، تخشى على مواقفها وعلى اوضاعها من عمليات التكامل الاقتصادي العربي، وما يمكن ان يرتبط بها من سياسات . وفي كل الدول والمجتمعات على اختلاف انواعها ، تضغط هذه المصالح لتمنع حدوث التكامل الاقتصادي الذي يضر بمصالحها .

٦ ـ عدم توافر الارادة السياسية لاتمام التكامل الاقتصادي العربي . ذلك لان تلك الارادة لا تصدر عن فراغ ، وانما تتأثر فيما تتخذه من قرارات تتعلق بالتكامل الاقتصادي ، بما تتصوره محققا لمصلحة القطر الذي تنتمي اليه ، وبالمصالح الذاتية للفئات المختلفة ، وهي فئات تنجح ، غالبا ، في اقناع المسؤولين عن القرار السياسي بان المصلحة العامة للقطر هي التي تحركها وليس الخوف على اوضاعها ومواقعها . ومن هنا تتولد لدى اصحاب القرار السياسي القناعة بان التكامل الاقتصادي العربي ليس في مصلحة اقطارهم . وهذا هو المقصود مما يذكر دائما من ان ضعف الارادة السياسية هو العامل الاساسي في ازمة التكامل الاقتصادي العربي.

٧ ـ تقلب الاوضاع والعلاقات السياسية بين الدول العربية ، وتعرضها للأزمات والهزات من وقت لآخر ، وبما يصل احيانا الى حد قطع هذه العلاقات . وأيا كانت طبيعة الاسباب التي تكمن وراء ذلك ، فان الدول العربية لم تنجح حتى الآن : في جعل التعاون الاقتصادي بمنأى عن التأثر بالازمات والهزات السياسية التي تقوم بينها . فغالبا ما يترتب على نشوب الازمات السياسية بين دولة عربية واخرى ، توقف وتجميد مشروعات التكامل الاقتصادي . وهذا من شأنه ان يضعف عملية التكامل ويمنع التقدم في تطبيق الاتفاقات التي تكون قد ابرمت . ويستطيع المتتبع للاحصاءات التي تبين تطور العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية ، ان يتبين تعرضها لتقلبات قوية ومفاجئة بين الارتفاع والانخفاض . وهي تقلبات لا يمكن فهمها الا في ضوء الازمات السياسية المتكررة .

٨ ـ اخيرا ، يمكننا القول ان من اهم اسباب فشل السوق العربية المشتركة في تحقيق اهدافهـا ، هو اعتمادها على نفس المبـادىء التي اعتمدت عليها تجارب التكامل الاقتصادي في الدول الراسمالية المتقدمة القائمة على مبادىء حرية التجارة والتبادل . وشاهدنا في فقرات سابقة ان هذا الاسلوب لاقامة التكامل لا يمكن ان يكون مفيدا للدول النامية ، ومنها الدول العربيـة ، لانه لا يستطيع ان يؤدي الى التطوير التلقائي للجهاز الانتاجي بما ينشىء وينمي الفروع الانتاجية والمشروعات التي يمكن ان تكون ركيزة لتوسيع المبادلات العربيـة في المستقبل ولتحقيق خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية في تلك الدول ، ورفع مستوى المعيشة للسكان المعنيين .

مما سبق وقلناه عن التكامل الاقتصادي العربي : يمكننا ان نخلص الى نتيجة هامة ، وهي ان ذلك التكامـل يجب ان لا يكون استنساخا وتقليدا اعمى للتكتلات القائمة في الدول الراسمالية والمبنية على مبدا حرية التجارة والاتحادات الجمركية . لان تلك الصيغة ثبت فشلها في تحقيق آمال الدول النامية ، ومنها الدول العربية في تنفيذ خطط التنمية وبناء الهياكل الانتاجية فيها . لذلك على الدول العربية كبقية الدول النامية ، ان تسلك طريق « الانتاج المشترك » ، من اجل اقامة تكاملها الاقتصادي الذي سيحقق لها خطط تنميتها ، ويدعم ترابطها السياسي عن طريق زيادة ترابطها الاقتصادي الناتج عن اتباع هذا الطريق الجديد للتعاون والتكامل الاقتصادي .

ان الدول العربية تستطيع ان تضع مشاريعا كثيرة ضمن خطة الانتاج المشترك لكن نجاح هذه المشاريع يعتمد ، في رأينا ، على شريط وحيـد الا وهـو **مساهمة الدول العربيـة المصدرة للنفـط في تمويل هذه الخطة .**

في الحقيقة ان الدول العربية الاقل غنى ليست قادرة ــ في الوقت الحاضر على الاقـل ــ على تمويل حصتها في مشاريع الانتـاج المشترك

واللازمة من اجل تحقيق التكامل الاقتصادي العربي ، ذلك لان مساهمة الدول العربية المصدرة للنفط والمالكة لمليارات من الدولارات ، يؤمن رؤوس الاموال اللازمة من اجل تمويل مشاريع الانتاج المشترك ومشاريع التنمية الاقتصادية في البلاد العربية .

في الواقع توجد امكانيات حقيقية لمساهمة العائدات النفطية في تمويل المشاريع اللازمة لقطاعي الزراعة والصناعة بشكل خاص . ففي قطاع الزراعة تحتاج الدول العربية الى الاموال النفطية من اجل تنفيذ مشاريع الري ومشاريع مكننة الزراعة . حيث انه عن طريق هذه المشاريع ترتفع عائدية الارض وتستطيع بذلك الدول العربية ان تؤمن حاجاتها الغذائية دون أن تكون تحت رحمة الدول الكبرى المصدرة للمواد الغذائية . اما في مجال الصناعة ، فان العائدات النفطية بامكانها المساهمة في تنفيذ المشاريع الصناعية اللازمة كأساس للتصنيع والتنمية الاقتصادية لهذه الدول العربية . ففي هذا المجال يمكن اقامة الصناعات البتروكيميائية ، وما تتضمنه من صناعات الاسمدة والمضادات للآفات الزراعية والحشرات والصناعات الفولاذية وما تتضمنه من منتجات لازمة لعمليات البناء ونقل البترول ولاقامة الصناعات الثقيلة التي تعتبر الشرط الاول للتقدم الصناعي بشكل عام .

في المقابل ، من خلال مساهمتهم في خطط التكامل الاقتصادي عن طريق الانتاج المشترك ، فان الدول العربية المصدرة للنفط يمكنها ان تأمل تحقيق المشاريع اللازمة من اجل تغيير بنية اقتصادياتهم لمواجهة مشكلات فترة ما بعد نفاذ البترول .

وهكذا نرى ، إن العمل الاقتصادي العربي المشترك لا تزال امامه فرص كثيرة ليؤكد على ان الامة العربية قادرة على التطور والتقدم وتحقيق امنيات الشعب العربي واهدافه ، كما انها قادرة ، بالاعتماد على قدراتها وثرواتها الذاتية ان تأخذ مكانها الطبيعي بين القوى الرئيسية الفعالة في العالم .

التعليم والتنمية الإقتصادية

د. تيسير رداوي

عرف على مر التاريخ ان الانسان صانع الثروة وهدفها ، اي صانع عملية التنمية وهدفها . وهذا يعني أن صنع ذلك الانسان دفع لعملية التنمية ، ولذا كان التساؤل عن كيفية صنع ذلك الانسان وعن الادوات ـ او التكنولوجيا والاستثمارات المادية اذا اردنا ـ التي تساعده في انجاز تلك العملية في الواقع المتخلف العنيد وباقل التكاليف . ولذا كان التساؤل عن دور التعليم ودور التكنولوجيا ودور الاستثمارات المادية واولوية تلك الادوار .

- ١ -

منذ بداية وعي الانسان بدأ الاهتمام في معرفته وتعليمه ، راحت السلطات العامة تعتبره احدى مهامها الاساسية . حتى ان تدخل الدولة في مجال التعليم يمكن ملاحظته في اعماق التاريخ ودون انقطاع وفي كتابات وآراء سقراط وافلاطون شواهد حية . اسبارتاكيون تدخلوا في التعليم وخططوا له من اجل ملائمته مع اهدافهم العسكرية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت محددة بشكل دقيق وواضح . افلاطون نفسه اقترح خطة للتعليم ، الصين ايام امبراطورية « هان » القديمة وكذلك البيرو خططتا للتعليم .

امثلة اكثر حداثة تبين كيف ان الدولة تدخلت في مجال التعليم أثناء الانتفاضات الفكرية والاجتماعية ومن اجل خلق تحولات في المجتمع ومساعدته على تحقيق اهداف جديدة ، كما هو الحال في الخطة التي اقترحها « جون كنوكس » من اجل نظام تعليم وطني للمدارس والمعاهد في القرن السادس عشر .

اكثر من ذلك ان رياح الحرية التي هبت على اوربا في نهاية القرن الثامن عشر كانت قد بدأت مع خطة وضعت للجامعة الروسية وقدمت بواسطة الفيلسوف « ديدرو » او تلك التي وضعت للجامعات الاوربية الاخرى وقدمت بواسطة الفيلسوف « جان جاك روسو » .

عندنا : الحضارتان الاموية والعباسية شاهد حي على تدخل الدولة في التعليم قبل تدخلها في الحياة الاقتصادية ، وخير دليل على هذا التدخل وعلى الاهتمام الكبير ، هو خلقها ورعايتها لمجموعات التعليم « والبحث العلمي » .

هذا التدخل عبر كافة الحضارات وعلى مر التاريخ ، كان نتيجة منطقية لاعتبار التعليم منذ القدم ، تدليلا او تصريحا ، كسلع اجتماعية

عامــة ، اي اعتبار الانفاق على التعليم استثمارا واستهلاكا وطنيــا في نفس الوقت .

- ٢ -

أما عن اقتصاديات التعليم بالمفهوم الذي نعرفه اليوم ورغم انه كان اقل وضوحا ودقة ، فيمكن تلمسه عند آدم سميث . في كل الاحوال يجب الاشارة الى ان لقب « اقتصاديي التعليم » لم يوجد الا حديثا مع ظهور بعض الاقتصاديين المتخصصين في ذلك منذ نهاية الحرب العالمية الثانية واهمهم الامريكيان « دونيسون » الذي بحث كثيرا في اسباب التنمية الاقتصادية ودور التعليم فيها ، « وشولتز » الذي بحث في الاستثمارات الانسانية ودورها المحرض والحاسم ، تلك الابحاث جذبت في وقت وجيز عددا كبيرا من الاقتصاديين الذين سريعا ما تخصصوا في هذا المجال .

ونستطيع القول ان هذا الاختصاص في الاقتصاد ، اذا صح استعمال كلمة اختصاص ، اخذ ابعاده منذ عام ١٩٦٠ رغم ان تعبير « تخطيط التعليم » نجده في اول محاولة حديثة للتخطيط اي ضمن الخطة الخمسية السوفيتية الاولى (١٩٢٨ ـ ١٩٣٢) ، وكذلك ضمن خطط الديمقراطيات الشعبية وفي الخطة الخمسية الثانية الفرنسية (١٩٥٣ ـ ١٩٥٧) .

ولابد من التنويه الى ان تلك الخطط التي كتب لها النجاح ، كانت محددة الاهداف ، دقيقة الاداة ، واضحة الطريق . الاتحاد السوفيتي ، على سبيل المثال ، كان تخطيطه يهدف بشكل رئيسي بعد ثورة اكتوبر : اللحاق بالدول الغربية . بينما اصبح الهدف بعد الحرب العالمية الثانية وفي كلا النظامين الاشتراكي والراسمالي هو تحقيق اكبر نسبة مــن النمو . وعلى نفس المنوال من وضوح الهدف وتغيره مع الحاجة والظرف فان المشاكل المعاصرة في اقتصاديات الدول الراسمالية حملت تلك البلدان الى تحديد المهام الاساسية امام التعليم وامام تخطيطه في : معالجة البطالة وتلبية الطلب الاجتماعي على التعليم وتلبية حاجات الاقتصاد من اليد العاملة المؤهلة في نفس الوقت .

اي انه يمكن القول دون حرج ان اهداف التعليم تطورت والتصقت بالاهداف الوطنية وكانت تتبع من قريب المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وتحاول علاجها .

- ٣ -

اما في الدول المتخلفة ، فان حالة التعليم ومستوى التخطيط ومحتوى اهدافه لم تستطع ، لسوء الحظ ، ان ترد على حالة التخلف البنيوية التي ترزح تحت وطأتها تلك البلدان . لقد فرحت هذه البلدان الفقيرة والصغيرة في طرح شعارات كبيرة بقيت حبرا على ورق وتلخصت في المساواة امام التعليم ، تأمين احتياجات الاقتصاد من اليد العاملة ، النضال ضد البطالة ، النهضة العلمية ، الخ . . .

وهي في هذا ، لم تصوب باتجاه هدف محدد ودقيق وممكن المنال، يسمح لها بالخروج من حالة التخلف ورسم مسار هذا الخروج . بشكل آخر ، لم تحدد خطط التعليم في العالم الثالث ، عملية الاقلاع الاقتصادي والاجتماعي هدفا نهائيا لها ، ولم تحدد الاهداف المرحلية التي تتطلبها تلك الشعارات ولا الطرق المؤدية اليها .

لابد ان نؤكد منذ البدء وبشكل صريح صعوبة تلك العملية ، عملية الاقلاع لايمكن الوصول اليها الا عن طريق وسيلتين تكمل احداهماالاخرى الاستثمارات المادية والتكنولوجيا ، وهاتان الوسيلتان مستحيلتان الا في مجتمع يعتمد الانسان غاية والتعليم وسيلة ، ونظام القيم الاجتماعية اداة .

ومن اجل ذلك فانه من الطبيعي ان تكون اهداف التعليم مشتقة من اهداف التخطيط الاقتصادي ، او بشكل اخر ان تكون اهداف التعليم بما يوصل الى تحقيق الاهداف العامة .

- ٤ -

لكن السؤال الذي يطرح نفسه ونحن نبحث عن اهداف محددة للتعليم تسهل عملية التنمية في الدول المتخلفة هو : هل يتم اقلاع تلك البلدان عن طريق الاستثمارات المادية ام عن طريق التكنولوجيا ام عن طريق توفير الكوادر المؤهلة ام عن طريق التعليم بشكل عام ؟

ان عملية الخيار بين هذه الاهداف ، او اذا شئنا بين هذه الحلول ، لن تعطي ابدا الحل الصحيح . ذلك لاننا نعرف من النظرية الاقتصادية انه لايوجد استثمار او نشاط مولد ، او بصورة اخرى ، ليس هناك استثمار يولد آليا استثمارات اخرى وبالتالي يستحق الافضلية .

من الاستثمارات المادية :

لتحطيم الاسلوب الكولونيالي القديم المبني على تقسيم الاقتصاد الى قطاعات منعزلة : صناعة ــ زراعة ــ عمل ذهني ــ عمل يدوي ، معهد ــ مصنع ، الخ. . هذا الاسلوب القديم هو الذي حافظ على حالة التخلف في الدول المتخلفة وهو الذي انتج في افضل الحالات « اقتصاد ثنائي » .

ان تحطم الاسلوب القديم يجب ان يكون لصالح تطور اسلوب آخر متناغم حول القطاعات الثلاث الاساسية السابق ذكرها . ومع ذلك فان تطور اي من القطاعات الثلاث رهن بتطور القطاعين الآخرين :

اولا : الزراعة :

سكان البلدان المتخلفة في غالبيتهم فلاحون (اكثر من ٨٥٪) والمشكلة الرئيسية هي البطالة المقنعة وعدم استغلال الموارد المحلية والتوزيع السيء للثروة ولذا فان اي استثمار في الصناعة لايزيد من الانتاج الزراعي لن يستطيع تقديم اي فوائد الى الفلاحين . كما ان تطور الصناعة بحد ذاته بحاجة الى :

- يد عاملة محررة من الزراعة عن طريق تحديث هذه الاخيرة .
- مواد اولية تنتجها الزراعة .
- الزراعة عن طريق فائض انتاجها تحول التطور الصناعي .
- التطور الصناعي بدوره يعطي جزءا من انتاجه الى الزراعة .

لذا فانه من المؤكد ان الصناعة لاتستطيع النمو الا في وجود اسواق تصريف لها في القطاع الزراعي وذلك من اجل تبادل انتاجها معه وليس من اجل الاقتطاع منه والا فان الزراعة سوف تتأخر وسوف ينعكس حتما آثار هذا التأخر على الصناعة نفسها .

ثانيا : الصناعات الحرفية والصناعات الخفيفة :

الصناعات الحرفية والمحلية تتميز بكونها تعتمد على موارد محلية وتلبي حاجات محلية وانتاجها يذهب في ثلاث اتجاهات :

- في اتجاه الزراعة التي تحدد نوع الصناعة المطلوبة : معامل سماد صغيرة ، ورشات لتصليح الماكينات الزراعية ، مولدات كهربائية صغيرة ، مضخات ماء صغيرة الخ ....
- في اتجاه الصناعة الثقيلة التي تزودها الصناعة الخفيفة بالمدخلات اللازمة لها (قطع تبديل ، اطارات ، ادوات كهربائية سهلة الصنع) .

وتشكل تلك الصناعة الخفيفة في نفس الوقت منفذا لاستغلال فضلات الصناعة الثقيلة .

- في اتجاه الاستهلاك اليومي لجماهير الريف والمدينة مثل معامل النسيج البسيطة ، النسيج ، الادوات المنزلية الخ ....

ان البدء بالاستثمار في الانسان ، لايستطيع ، ولا يسهل ، ولا يشجع الاقتصاد على امتصاص اليد العاملة التي تم تأهيلها . لايستطيع هذا النوع من الاستثمار ، في قناعتنا ، ان يحقق وحده الاقلاع .

بشكل اكثر وضوحا ، يجب ان لاتترادف الاستثمارات المادية مع الاستثمارات الانسانية فقط بل وان تسبق الاستثمارات المادية الاستثمارات الانسانية قليلا . اي ان تبدأ الخطوة الاولى باتجاه المسير نحو الاقلاع في استثمارات مادية لتكون الثانية باتجاه تأهيل اليد العاملة اللازمة لتلك الاستثمارات المادية . ذلك لان « المادية » سوف تحرص وتتطلب او تطلب بنية اساسية Infrastructure مكونة اساسا من يد عاملة لازمة لتشغيل تلك الاستثمارات المادية .

ستكون الاستثمارات المادية ضمانة اكيدة على ان اليد العاملة التي سوف تؤهل ستستخدم في القطاع الانتاجي . وسوف يتحدد حجم تلك الاستثمارات الانسانية كما ونوعا بالطلب من العمل اي بحاجة الاستثمارات المادية من اليد العاملة وبنوعها . او ببساطة يتحدد حجم ونوع الاستثمارات الانسانية بنوع وحجم الاستثمارات المادية .

هذا يعني اننا وان كنا نرى تلازم الاستثمارات المادية والانسانية ، فاننا نعطي اسبقية بسيطة للاستثمارات المادية لان المنطق والضرورة تستدعي ذلك ، اذ ما فائدة استيراد التكنولوجيا ، وما فائدة تأهيل اليد العاملة ، وما فائدة التعليم في كافة مراحله اذا لم يجد استخداما في الاستثمارات المادية من اجل تطوير تلك الاستثمارات واستغلالها كما يجب . اي من اجل تطور القاعدة المادية لاقتصاديات الدول المتخلفة .

ان اقامة نسيج صناعي ، على سبيل المثال ، سوف يجبر الدول المتخلفة على احياء التكنولوجيا الذاتية الكامنة عندها وعلى استيراد التكنولوجيا المتقدمة وعلى تأهيل اليد العاملة اللازمة لتسيير هذه الصناعات ، وسوف تتطور تلك التكنولوجيا وتتكامل وتتقدم مع تطور وتقدم الاستثمارات المادية .

بمعنى آخر ، الاستثمارات المادية سوف تتدخل في اختيار التكنولوجيا وهذه بدورها سوف تطلب يدا عاملة مؤهلة وسوف تحدد نوعها وحجمها ، وهذه بدورها ايضا سوف تحدد طبيعيا اقسام التعليم وحجمه . ستكون اذا امام سلم من الاهداف تحدد بوضوح اهداف التعليم وتحدد مساره .

— ٥ —

كان السؤال المطروح هو : هل نمو التعليم يمكن ان يكون « موتور » التنمية الاقتصادية ام ان التنمية الاقتصادية هي التي ستكون « موتور » النمو في التعليم ؟

مقولة نمو التعليم (اي زيادة الانفاق الاجمالي او الانفاق لكل طفل) وعلى انه يساعد التنمية الاقتصادية ، كانت تنطلق من حقيقة ان العمل هو احد العناصر الاساسية في الانتاج ان لم يكن العنصر الاساسي ،وبالتالي احد العوامل المهمة في عملية التنمية الاقتصادية . لقد كان الاقتصاديون المؤيدون لهذه المقولة يعتقدون ان تحسين هذا العامل عن طريق التعليم سيجعله اكثر انتاجية وبالتالي يساهم في عملية التنمية الاقتصادية . ومن اجل الدفاع اكثر عن هذه المقولة دعموا آراءهم بالتحليل الاقتصادي وبالاحصائيات حيث بينت دراسة مقارنة جرت عام ١٩٦٠ للولايات المتحدة الامريكية منذ عام ١٩٢٩ وفي /٤٨/ ولاية فيها ان هناك علاقة بين الانفاق على التعليم لكل طفل وبين نسبة النمو الاقتصادي .

ولقد بينت هذه الدراسة ان معاملات الترابط بين نسبة النمو والانفاق ضعيفة جدا وحتى انها سالبة في بعض الحالات . لقد كانت النسبة سالبة حتى عام ١٩٧٥ ثم ازدادت حتى عام ١٩٥٠ (٧ر٠) قبل ان تهبط الى (٥ر٠) . وحاليا يؤكد اغلب الاقتصاديين على عدم وجود علاقة واضحة . وهذا عائد ، في الحقيقة ، الى ضعف الاساس الذي اعتمدت عليه المقولة التي تقول بأن نسبة النمو تزداد بازدياد الانفاق وتلك مقولة مشكوك فيها ، لانه لايوجد مايؤكد ان :

١ ــ التعليم هو المصدر الوحيد المستقل لزيادة انتاجية العمل .

٢ ــ الطاقة الانتاجية للانسان تكرس التطور الاقتصادي .

اما المقولة الثانية والقائلة بان النمو الاقتصادي يساعد على نمو التعليم وبطوره فتبدو اكثر صلابة . ذلك لان النمو الاقتصادي سوف يزيد الدخل القومي ويسمح بتحمل اعباء التكاليف الحالية بشكل اكثر سهولة . ويسمح بالتالي بتطوير الاستثمارات الاجتماعية بشكل عام والتعليم منها بشكل خاص .

الانصاف يحتم القول ان كلا المقولتين السابقتين وقفت على نصف الحقيقة ، وذلك لوجود علاقات متبادلة بين النمو الاقتصادي ونموالتعليم ، حتى وان كانت تلك العلاقات غير واضحة بشكل كاف . ويبقى الوضوح الذي لاغبار عليه هو في كون التعليم في البلاد المتخلفة مصدر ابتلاع جزء لايمكن اهماله من موارد تلك البلاد لذا فان عملية تخطيطه وتحديد اهدافه تبدو مركزية .

- ٦ -

عند السعي لتخطيط التعليم في العالم المتخلف يبدو انه من غير المنطقي محاولة نسخ تجربة الدول المتطورة . هاتان المجموعتان من الدول ليس عندهما نفس المشاكل وليست في نفس المرحلة من التطور . نظام التعليم يجب ان يجيب على اهداف مختلفة وتحت وطاة ظروف مختلفة .

ان عملية استثمار مادي بسيط وموزع في الدول المتخلفة لاتستطيع معالجة حالة التخلف وبالمثل فان عملية تطور كمية وبسيطة في نظام التعليم القائم في تلك البلدان لن يحل هذه المشكلة ، خصوصا وان نظام التعليم فيها ليس سوى عبارة عن « فوتوكوبي » لنظام التعليم الموجود في الدول المتطورة . وهذا الفوتوكوبي لايستطيع دفع التنمية في الدول المتخلفة او المساهمة في حل مشاكلها لان تلك الدول امام اربع مشاكل للتعليم مختلفة عما نجده في الدول المتطورة وهي :

- عدم الاستخدام الكامل لليد العاملة .
- الانتاج المادي الضعيف .
- البيروقراطية .
- التوزيع السيء لثروات البلدان .

نظام التعليم في البلدان المتخلفة نتاج التخلف ولن يستطيع ابدا لهذا السبب ان يكون اداة التبديل اذا لم يتبدل هو نفسه اولا .

قبل عملية التحطيم التي جرت للصناعات الحرفية في تلك البلدان، كانت الورشة تقوم مقام المعهد في اعطاء الولد المبتدىء مهنة معينة ، اما اليوم أي مع « التحديث » ، اي مع حلول الصناعات الخفيفة مكان الصناعات الحرفية فان هذا الدور قد تلاشى . يذهب الاطفال اليوم الى المعاهد العاجزة عن اعطائهم اية مهنة .

لقد خرجت البلدان المتخلفة حديثا من حفرة الاستعمار ، ولذا فان الدولة فيها في طريق التشكل والدور الموكل الى المعاهد ونظام التعليم بشكل عام في هذه البلدان — حتى وان كان هذا الدور غير معلن — هو امداد مؤسسات الدولة بالموظفين وحماة السلطة . ليس لنظام التعليم في هذه البلدان اية علاقة مع القطاعات الانتاجية ، وهذا يمكن ملاحظته بسهولة اذا نظرنا المعلومات التي تعطيها تلك المعاهد ، محتوى المناهج لايقدم اية فائدة للاستثمارات المادية المقامة ، نظام التعليم « ينتج » اشخاصا من تكوين معين لاداء الدور المرسوم لهم ، لذا لن يجدوا اماكن لهم الا في الجهاز البيروقراطي ، ونجد انفسنا فيما يتعلق بالخريجيين المؤهليين للانتاج امام ظاهرة ، تقاوم المعرفة عندهم ، أو بشكل آخر امام تبذير في التأهيل . هذا الوضع يزداد وضوحا بملاحظة أعداد ونوعيات المؤهلين المهاجرين الى خارج البلاد والذين يجدون لهم اماكن تتلاءم مع تأهيلهم في البلاد المتقدمة .

أمام هذا الفشل غير المرئي بشكل واضح يضاف فشل آخر لنظام التعليم اكثر وضوحا اذا رأينا تزايد اعداد الامين (من ٤٣ مليون أمي في الوطن العربي عام ١٩٧٠ الى ٥٠ مليون عام ١٩٨٠) وتراجع التعليم الالزامي والتعليم الفني .

ان تبدلا نوعيا وكميا في نظام تعليم العالم المتخلف ضرورة ملحة ، تبدلا نوعيا يعني السعي الى تغيير البرامج واقامة المعاهد التي تتلاءم وحاجات الاستثمارات قيد التنفيذ ، تبدلا كميا يعني السعي الى تعميم الفروع والاختصاصات اللازمة للمشاريع القامة وتحديد التكاليفالازمة لهذا التبدل .

بشكل آخر ، اكثر تحديدا ، حتى يساهم قطاع التعليم في عملية الاقلاع التي لن تتولد الا بتناغم ثلاث قطاعات وهي : الزراعة والصناعة المحلية والصناعة الثقيلة فان امامه مهمتين محددتين :

الاولى : ضرورة تطور قطاع التعليم في المرحلة الاولى من الانطلاق حتى يستطيع تلبية الحاجات المستعملة في اليد العاملة (نوعا وكما) ، تلك الحاجات التي تحددها الاستثمارات المادية في طريق التنفيذ .

الثانية : حيث يكون دور التعليم في المرحلة الثانية من الانطلاق اكثر تعقيدا بسبب التقدم التقني الواجب حدوثه والناتج عن نقل التجهيزات والمعدات الاجنبية ، لكن كيف سيكون ذلك بالتحديد .؟

– ٧ –

عن طريق الاستثمارات المادية التي يفترض وضعها في طريق التنفيذ والتي تستطيع تلبية حاجات الانسان الاساسية وتخفيض تكلفة العمل . اي انها بالتحديد الاستثمارات التي تسمح بتحديث الزراعة ودعم ونشر الصناعات المحلية (الصغيرة والذاتية الريفية) والصناعات الثقيلة . ويكون لقطاع التعليم ازاء ذلك دور رئيسي يتحدد في تأمينه للتكنولوجيا

اللازمة وفي اعداده لليد العاملة الضرورية . اي ان هدف قطاع التعليم يجب ان يتحدد بشكل واضح هو مساهمته في تبديل التركيب البالي الاقتصاديات المتخلفة عن طريق بعث التكنولوجيا العصامية وتامين حاجات المصانع والمزارع في طريق النمو من اليد العاملة المؤهلة .

وسيكون لهذا السبب شعار قطاع التعليم « من الاستثمارات المادية الى الاستثمارات الانسانية » .

ثالثا : الصناعات الثقيلة :

لا يمكن للزراعة ولا للصناعات الحرفية والخفيفة ان تتطور دون مساعدة الصناعة الثقيلة . وفي الحقيقة فان الصناعة الثقيلة هي العون لهذين القطاعين بالتجهيزات وهي في نفس الوقت سوق تصريف لهذين القطاعين . في هذا الصدد ، ولان ايا من بلدان العالم الثالث لا يملك ظروف الصين ، فان الصناعة الثقيلة حتى يمكن اقامتها هي بحاجة الى تكامل اقتصادي يعطيها البعد الجغرافي والبشري اللازم .

الى الاستثمارات الانسانية : وذلك بعد ان يبدأ تنفيذ الاستثمارات المادية السابقة الذكر حيث نرى امام قطاع التعليم مهمتين مختلفتين زمنيتين .

المرحلة الاولى : حيث تكون مهمة قطاع التعليم اعداد اليد العاملة التي تحتاجها الاستثمارات التي بدىء بتنفيذها ومن اجل خلق الكادر التكنولوجي وتامين التكنولوجيا العصامية .

المرحلة الثانية : حيث تكون مهمة قطاع التعليم المساعدة في نقل المعدات الراسمالية المتطورة من العالم المتقدم وفي تطوير الاستثمارات المادية .

هذان الدوران لقطاع التعليم يتطلبان ادوات وتركيباً لقطاع التعليم مختلفاً حسب المرحلة اي : في المرحلة الاولى : فان دور قطاع التعليم يكون في تحطيم التركيب المتخلف وتهيئة الجو الملائم لبعث التكنولوجيا وهذا لا يمكن الا بواسطة معاهد بوليتكنيكية (متعددة الاختصاصات) تقدم التأهيل اللازم لتحسين التكنيك المتبع في الانتاج وذلك بادخال تكنيك جديد يهدف زيادة الانتاجية عن طريق اقامة علاقة بين الصناعات الحرفية والصناعات الريفية ، بالتحديد ان دور تلك المعاهد هو :

١ — المساهمة في بناء القاعدة اللازمة لبث تكنولوجيا اصيلة ، وهذا يتطلب بث الخدمات التربوية والعلمية والتكنيكية على مستوى القاعدة اي على الفلاحين البالغين واولادهم . هذا البث للتكنولوجيا يكون عن طريق البرامج التي يجب ان تخدم بشكل مباشر الزراعة والصناعة الحرفية والصناعة المحلية .

٢ — المساهمة في الجهود المبذولة من اجل التعبئة الجماهيرية التي تسمح بنمو وعي سياسي منظم .

٣ — مقاومة التفكير البدائي والعقلية المتخلفة والطائفية والقبلية من ناحية والتفكير الديماغوجي والفوضوي وغير المنظم من ناحية اخرى .

دور المعهد متعدد الاختصاصات في الريف يخدم الفلاحين جميعاً حين يسعى الى مساعدتهم في امتلاك تكنولوجيا عصامية تفيدهم في حياتهم العملية اليومية وهذا لن يكون ممكناً الا في تغيير جذري للبرامج التي تدرس حالياً في الدول المتخلفة .

اما في المرحلة الثانية : فان دور قطاع التعليم الذي يفترض استناده في هذه المرحلة على قاعدة مادية وعلى مناخ تكنولوجي متقدم عما رأيناه في بداية المرحلة الاولى ، ولذا فان هذا الدور يختلف كذلك عن تلك المرحلة ويمكن تلخيصه في :

١ ـ المساعدة على اختيار التجهيزات الراسمالية الاجنبية المتقدمة وتسهيل عملية نقلها .

٢ ـ ملاءمة التجهيزات الراسمالية المنقولة مع الحاجات المحلية وتسهيل استعمالها والعمل على صيانتها .

٣ ـ مقاومة التبعية التكنولوجية .

٤ ـ ادخال الادارة الحديثة في الانتاج .

٥ ـ دعم المشاريع الصغيرة والصناعة المحلية والريفية ومعالجة مشاكلها الفنية .

لا شك ان تلك المهام وهذا الدور المتقدم لقطاع التعليم يستدعي شكلا جديدا لنظام التعليم وخصوصا التعليم الجامعي وبرامج دراسية وأساليب تدريسية جديدة .

ـ ٨ ـ

الا ان تنفيذ هذه الاستراتيجية التي تعكس طموحات كل المستغلين والضعفاء طموحات جماهير العالم المتخلف بشكل عام لا يمكن ان تتحق الا بقيادة منتقاة ديمقراطيا .

ولذا يجب التساؤل فيما اذا كان بالامكان الوصول الى تلك القيادة السياسية الادارية ضمن اطار ايديولوجي سياسي واجتماعي متخلف .

ان التجربة الماضية للدول المتقدمة اليوم برهنت على ان التطور الذي احرزته لم يتحقق في البداية بسبب تقدم تقني وانما كان بسبب تقدم سياسي ـ اداري ـ اجتماعي وايديولوجي .

اي ان التجربة التاريخية بينت اكثر من جميع التطورات انه من المستحيل تحديد الاهداف الاقتصادية والاجتماعية الكفء للبدء في عملية الاقلاع دون تبديل التركيب البنيوي المكون لسياسة ومجتمع واقتصاد الدول المتخلفة .

اذا كان التخلف الاقتصادي والتقني يمكن مشاهدته بسهولة ، فان التخلف السياسي الايديولوجي ـ الاجتماعي لا يمكن تحليله ولمسه بنفس السهولة ولذا فان النضال من اجل تجاوزه اكثر حدة وصعوبة ، لانه يحتاج أولا الى تبديل عقلية الانسان نفسه . ويكفي مقارنة بسيطة بين بعض الدول لنرى ان السبق لا يمكن ابعازه دائما الى سبق اقتصادي وتقني وانما في اغلب الاحيان لايمكن تعليله الا في سبق اداري واجتماعي ـ ثقافي .

لسوء الحظ ان الاستقلال السياسي الذي نالته الدول المتخلفة ترافق مع ولادة نظم سياسية « سلطوية » ومع تطور اقتصادي « كاذب » اي مع ظهور مجتمع استهلاك وسلطة بعيدة من الجماهير . بوضوح ان ذلك المجتمع يتميز بـ :

١ ـ تراجع الدولة وظهور تركيبات ماقبل الدولة الوطنية أي دولة القبيلة ودولة المجموعة . هـذا التراجع عـن المرحلة الكولونيالية التـي كـانت تتميز بالتضامن الوطني عرقـل ويعرقـل اليوم ايـة محاولـة للاندماج الاقليمي والقومي .

٢ ـ اقتصاد تلك الدول مرتبط خارجيا بالاقتصاد الراسمالي العالمي وداخليا بالريف المتخلف ، بالمرأة المقهورة في المنزل ، بمجموع الاميـين العاطلين عن العمل ، ببعض الصناعات الطافية كقطع الزيت التي لاتنتج في احسن الحالات سوى بضائع متجه الى المميزين من البيروقراطيين والبروجوازيين .

٣ ـ سيطرة الايديولوجيا البدائية بالرغم من تحول هذه المجتمعات من استعمال ادوات بدائية الى ادوات حديثة جدا .

٤ ـ ان المحافظة على السلطة هو الهدف الرئيسي للطبقة القائدة في تلك البلدان وهذا يتطلب منها تقوية مؤسسات الدولة التي تستنزف جزءا من الموارد الضعيفة للدول الصغيرة المتخلفة .

٥ ــ نظام التعليم في تلك البلدان هو محصلة هذا الواقع ، لذا فانه يتميز ببرامج في غالبيتها دون اية فائدة للقطاع الانتاجي ، ان هذه المناهج في افضل الحالات من اجل تأهيل موظفي للدولة او الكفاءات العلمية المهاجرة الى خارج الوطن .

اي ان التعليم الجامعي حتى وان كان في توسع مستمر فانه لايعطي التاهيل الفني المطلوب . كما ان هناك ضرورة لوضع البرامج والمناهج التي تسمح باقامة تقاطع بين التعليم الديني وضرورات التقدم . بالاضافة الى ذلك فان ارادة البحث العلمي في الجامعات تكاد تكون معدومة .

واخيرا فانه يجب الاعتراف بأن تراجعا ملحوظا حتى من حيث الكم في التعليم المهني وان هناك فصلاً مطلقاً بين نظام التعليم وعالم العمل .

ان مصير الدول المتخلفة التي تطمح الى كسر حلقة التخلف يمر حتما عبر تحولات اساسية في تركيبها السياسي والاداري وبتحولات جوهرية في عقلية الانسان فيها وفي سلوك وتصرفات جماهيرها بشكل عـــام .

ان التطور المنشود هدف المجتمع باسره ، لذا فان عمل المجتمع بأجمعه هو طريقه . على جماهير تلك البلدان ان تاخذ المبادرة على المستوى المحلي بعمل الورشات الصغيرة داخل المعاهد ، ببث التكنولوجيا الذاتية ، بربط المعهد بالمجتمع .

ان تحطيم التركيب القديم لن يكون الا عــن طريق الاستثمارات المادية المرافقة لتغيير اداري ــ واجتماعي ــ ثقافي .

التصنيع في البلدان المتخلفة

د. محمد مروان السمان

مهما اختلفت الاراء فالكل يعرف بان التصنيع هو الاداة الوحيدة لتحقيق الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي للبدان المتخلفة ، الا ان القليل من يعرف بان التصنيع ليس استيراد الالات والمعدات او خلق صناعة او العديد من الصناعات ، التصنيع هو ظاهرة اقتصادية ـ اجتماعية معقدة ومتعددة الجوانب ، هو عملية تطوير اقتصادي واجتماعي يتم من خلالها تعبئة

قسم متزايد من المواد المحلية من اجل تطوير بنية اقتصادية وطنيـة متعددة الجوانب وحديثة من الناحية التقنية ، حيث تتميز هذه البنية بوجود قطاع صناعي ديناميكي قادر على تأمين معدل نمو مرتفع لمجمل الاقتصـاد ، وبشكل عام قادر على تحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي.

ان كل خطأ يكمن اذن في اعتبار بناء عدة مصانع او تطوير بسيط لمشروع صناعي واحد بمثابة تصنيع لبلد ما .

ان التصور السابق لعملية التصنيع يمكن ان يوصلنا الى تحديـد مفهوم التصنيع وفق الاركان التالية :

١ ــ التصنيع هو عملية واسعة ومتعددة الجوانب حيث يتم بموجبها تطوير فرع صناعي يساهم في عملية الانتـاج الاجتماعي بحيث يكـون القسم الاكبر من مجمل الناتج الاجتماعي والدخل القومي ويمكن من احداث تحولات جذرية في بقية فروع الاقتصاد القومي وفق قاعدة تقنية حديثـة .

٢ ــ التصنيع اذن ليس عملية لا نهائية ، بل عملية مرحلية غايتها الانتقال بالمجتمع من مجتمع زراعي بدائي الى مجتمع زراعي ــ صناعي بمعنى اخر فان الغاية من التصنيع هي جعل القطاع الصناعي قطاعـا رائدا في الاقتصاد القومي قادرا على تحديث الزراعة بادخال وسائل الانتاج الحديثة اليها ، وقادرا في نفس الوقت على الاشباع المتصاعـد لحاجات المجتمع من السلع الاستهلاكية .

٣ ــ باعتبار ان التصنيع هو عملية تطوير هيكلية للبنية الاقتصادية فان هذا مرتبط بايجاد قطاع صناعي ديناميكي منتج لوسائل الانتاج مما يستدعي استخدام تقنية عالية اثناء مرحلة التصنيع .

٤ ــ التصنيع هو ظاهرة اقتصادية ــ اجتماعية . فعلى الرغم من ان الهدف المباشر من التصنيع هو القضاء على التخلف التقني فـان

الهدف الغير مباشر هو احداث تغييرات اجتماعية وحتى سياسية في بنية المجتمع ، ان التطور التقني والتكنولوجي يتطلب حدا ادنى من المستوى العلمي والثقافي لمن له احتكاك مباشر مع الالة حتى يحسن استخدامها ، ويحقق الحد الاعظمي من الفائدة التي يمكن ان تقدمها .

نزاع استراتيجيات التصنيع :

منذ عدة سنين بدا علم الاقتصاد يعطي اهتماما بالغا للدراسات التي تعتني مباشرة باختيار استراتيجية للتصنيع تتناسب مع المعطيات الاقتصادية والاجتماعية للبلدان المتخلفة . بمعنى آخر اذا كان التطور الاقتصادي للبلدان المعنية يقاس بمفهوم « المنتج النهائي » الذي يستطيع بلد ما تقديمه للسوق عن طريق التصنيع ، فالمشكلة الاساسية يمكن ان تتلخص من خلال السؤالين التاليين :

١ ـ كيف يمكن تحويل الادخار المحلي لبلد متخلف الى سلع راسمالية ؟

٢ ـ كيف يمكننا استخدام هذه السلع الراسمالية من اجل الحصول على اكبر مقدار ممكن من « المنتج النهائي » ؟

من اجل الاجابة على هذين السؤالين فانه يوجد ـ حسب رايي امكانية للاختيار مابين طريقتين :

ـ طريقة مباشرة تعتمد على تحويل الادخار المحلي الى سلع رأسمالية منتجة محليا من اجل الحصول في نهاية الامر على « المنتج النهائي » ، اي التصنيع على أساس نظرية احلال الواردات .

ـ طريقة غير مباشرة تعتمد على التجارة الخارجية حسب نظرية المزايا النسبية ، اي تحويل الادخار المحلي الى سلع رأسمالية بواسطة الواردات . في هذه الحالة من اجل الحصول على القطع الاجنبي الضروري

لتمويل قيمة هذه الواردات من السلع الراسمالية ، يمكن للبلد المتخلف ان يضغط مصاريفه الداخلية ويحول الفائض الناتج نحو انتاج سلع معدة للتصدير . الخطوة الثانية ، من اجل الحصول على المنتج النهائي يمكننا تشغيل السلع الراسمالية المستوردة بهدف انتاج سلع معدة للتصدير ومبادلتها « بالمنتج النهائي » ، اي تصنيع البلد المتخلف استنادا الى نظرية صناعات التصدير .

هنا تكمن المشكلة الحقيقية : ماهو طريق التصنيع الذي يجب ان تسلكه البلدان المتخلفة ، هل التصنيع على اساس احلال الواردات ام التصنيع على اساس صناعات التصدير .

ان الجواب على هذا السؤال يتطلب منا دراسة عميقة لكلا النظريتين حتى نحصر على الاقل مبررات تطبيقهما من وجهة نظر مسانديهما .

اولا التصنيع عن طريق احلال الواردات

تعريف :

لقد حاول الكثير من الاقتصاديين ان يعطي تعريفا لهذه النظرية كل حسب تصوراته لها . (C. Furtado) عرفها مثلا بانها « الفعل الذي بواسطته تنخفض مساهمة قطاع التجارة الخارجية في تكوين الدخل القومي » .

يمكننا ان نلاحظ مباشرة بان هذا التعريف غير دقيق لان سبب انخفاض مساهمة قطاع التجارة الخارجية في الدخل القومي لا ينتج فقط عن احلال الواردات بل هناك عوامل عديدة قد تؤدي الى هذا الانخفاض مثل : انخفاض الصادرات او الواردات ، ارتفاع معدل النمو في الدخل القومي عنه في قطاع التجارة الخارجية .... الخ .

في كل الاحوال ، ان هذا التعريف يعكس لنا على الاقل مبررات تطبيق نظرية احلال الواردات في البلدان النامية كنتيجة لوضعها الغير ملائم في مجرى المبادلات التجارية العالمية .

بالنسبة لـ (بوب B. Bobe وديريك Ph. Derycke) فقد عرفا نظرية أحلال الواردات على انها « مجموعة الافعال التي يتم بواسطتها احلال الانتاج المحلي من السلع المصنعة محل الواردات من هذه السلع » .

يمكننا ان نلاحظ ايضا بانه بقدر ما كان التعريف الاول غير دقيق فان التعريف الثاني واسع المفهوم وشامل بحيث لم يحدد لنا نوعية الصناعات التي يمكن لهذه النظرية ان تتبناها .

تعريف آخر قدمه لنا الاقتصادي الفرنسي الماركسي (C. Palloix) ولكن من وجهة نظر متأثره الى حد ما بالاساس الايديولوجي عند هذا المؤلف ، اذ قال : « ان المقصود بنظرية احلال الواردات هو احلال انتاج محلي ما محل الواردات من السلع الصناعية التي هي مهيأة بالاساس لاشباع طلب داخلي موجود وواسع بشكل كاف ، ومبرر لمردودية الاستثمارات الموظفة في الصناعات المنتجة لهذه السلع » . وهذا مايعني بالضبط الانتاج المحلي للسلع الاستهلاكية المصنعة .

من هذا التصور يمكننا ان نحصل على نتيجتين اساسيتين :

آ ــ تعتمد نظرية احلال الواردات على الصناعات المنتجة للسلع الاستهلاكية التي وجدت لاشباع طلب الطبقات العليا في المجتمع وهي نفس النتيجة التي حصل عليها شارك بتلهايم منذ مدة طويلة بصدد دراسته للتجربة الهندية في التصنيع حيث اكد على ان اقامة الصناعات المنتجة للسلع الاستهلاكية ماهي الا خطوة وجدت اساسا لاشباع رغبات الطبقة البورجوازية في المجتمع الهندي من السلع الاستهلاكية المصنعة والتي هي وحدها الطبقة القادرة على اشباع مثل هذه الرغبات.

ب ـ من وجهة نظر تيكونولوجية ، ان صناعات احلال الواردات تتطلب تكنولوجيا بسيطة وذات كثافة راسمالية ضعيفة ، وهذا بالتالي لا يسمح لاقتصاد البلد المتخلف ان يخلق صناعات ديناميكية بتأثيراتها المتتابعة في الاقتصاد القومي ككل سواء من حيث السلع التي تنتجها والتي تذهب الى الاستهلاك المباشر ، او من حيث تأثيراتها الفنية على بقية الفروع الصناعية الاخرى . هنا ايضا نشير باقتصادي فرنسي كبير واسمه دي بيرينس الذي حلل مثل هذه الامور بدقة حين اعطانا نمطا جديدا من الصناعات اسماه « الصناعات المصنعة » والتي سوف نتعرض لها في حينه بالتفصيل .

نظريا ربما كان (بالوا) عنده الحق في ذلك الا انه عمليا قد اغفل أمرا واقعا تعيشه جميع البلدان النامية وهو انها مهيأة من حيث المبدأ لاقامة الصناعات التي لا تحتاج الى كثافة راسمالية عالية وذلك لانها تستطيع التعويض عن هذه الكثافة الراسمالية العالية بالراسمال من اليد العاملة الذي تملكه بغزارة ، وهذا في صالح اقامة صناعات احلال الواردات التي تتلاءم اكثر مع المستوى الراسمالي والتقني للبلدان النامية .

في الواقع انه من الصعب جدا تبني تعريفا كاملا ودقيقا لنظرية احلال الواردات لانه من الضروري قبل كل شيء معرفة ابعاد المشاكل الاقتصادية لكل بلد نام على حده . انطلاقا من ذلك يمكننا ان نعرف احلال الواردات على انها اختيار عقلاني للصناعات المقامة ، اختيار يعتمد على احلال الانتاج المحلي لبعض السلع مع المصنعة محل الواردات من هذه السلع التي تحدد نوعيتها من خلال المعطيات والظروف الاقتصادية الخاصة بالبلد المعني .

والمقصود « بالاختيار العقلاني » هنا هو ان يكون هذا الاختيار حسب نظام تخطيطي شامل محكم حيث تدرس فيه جميع العقبات والمشاكل التي يمكن ان تحد من تطوير الصناعة خلال مراحل تشغيلها .

انطلاقا من ذلك يمكننا ان نعمم مفهوم صناعات احلال الواردات بحيث تشمل الصناعات المنتجة للسلع التي كانت مستوردة قبل اقامة مثل هذه الصناعات ، والمقصود بالسلع هنا جميع انواع السلع المنتجة وبدون اي استثناء .

مبررات صناعات احلال الواردات عند نوركس R . Nurkse (١) :

يعتبر نوركس ان التصنيع امر لابد منه بالنسبة للبلدان المتخلفة ، ولكن على الاخص التصنيع المفتوح على العالم المتقدم والقائم على اساس الصناعات الاستهلاكية وذلك انطلاقا من ضرورة التوازن ما بين النمو في القطاع الصناعي والنمو في القطاع العام . لا حظ نوركس ان هناك عقبة أساسية تقف في وجه التصنيع بشكل عام في تلك البلدان الا وهي ضعف دافع التثمير لدى أصحاب رؤوس الاموال بسبب ضيق السوق المحلية لاغلبية البلدان المتخلفة . يجب اذن توسيع هذه السوق عن طريق البدء بصناعات رائجة في المدى القريب ، اي الطلب على منتجاتها موجود . ولكن كيف تستطيع هذه البلدان تمويل النفقات الناتجة عن اقامة مثل هذه الصناعات الاستهلاكية ؟

احل نوركس رأس المال الاجنبي محل امكانيات نمو الصادرات من أجل تغطية نمو المستوردات من المواد والمعدات اللازمة لعملية التصنيع هذه ، التي دفعته لتبنيها . لذا فقد كان من الضروري الرجوع الى فكر نوركس للوصول في النهاية الى النتيجة التي بلغها وتبنا فيما بعد .

يستعرض لنا هذا الاقتصادي ثلاثة موديلات لبناء القاعدة الصناعية وبالتالي النمو الاقتصادي المتسارع للبلدان المتخلفة ، هذه الموديلات هي :

(١) بالرغم من ان R . Radan هو اول من طرح نظرية النمو المتوازن في عام ١٩٤٣ بهدف تصنيع بلدان اوروبا الشرقية والجنوبية الشرقية ، الا ان R . Nurkse هو اول من صمم هذه النظرية لتطبيقها في البلدان المتخلفة .

١ ــ النمو بواسطة الصادرات من المواد الاولية .

٢ ــ النمو بواسطة اقامة صناعات التصدير .

٣ ــ النمو بواسطة توسيع الانتاج المحلي للسلع الصناعية لتغطية السوق الداخلية والمقصود هنا اقامة صناعات احلال الواردات وعلى الاخص الصناعات الاستهلاكية .

حسب رايه فان هذه الموديلات الثلاثة يمكن ان تكون مختلطة ولكن الاهمية المعقودة على كل واحد منها تختلف حسب الموارد الداخلية لكل بلد وحسب شروط الطلب الخارجي . فمن المعروف ان البلدان المتخلفة تشكو اليوم من عجز في صادراتها من المواد الاولية (موديل ١) ، ومن الحواجز الصعبة التي تضعها أمامها البلدان المتقدمة للحد من صادراتها من المواد المصنعة (موديل ٢) ، يؤكد نوركس هنا بانه لم يبق الا الموديل ٣) اي توسيع الانتاج الداخلي بالاعتماد على اقامة الصناعات المحلية المنتجة للسلع الاستهلاكية الذي يعتبر والحالة هذه اكثر ملاءمة من الموديلين الآخرين ، الا ان طريق التصنيع هذا لا يخلو من عقبات اهمها هو ضيق السوق الداخلية الذي يؤدي الى اضعاف حوافز الاستثمار . وهذا تحصيل منطقي لمعطيات البلدان المتخلفة بشكل عام .

انخفاض الانتاجية

↓

انخفاض الدخل

↓

ضعف القوة الشرائية

↓

ضيق نطاق السوق

↓

انخفاض الحافز على الاستثمار

وبالتالي فان توجيه الاستثمارات في مشروع واحد سيبوء بالفشل سيما وان العاملين في هذا المشروع لن يتمكنوا من استيعاب ناتجه وهكذا لن يستطع المشروع تصريف منتجاته . الحل الوحيد برأي نوركس هو البدء بوضع برنامج استثماري يحوي العديد من الصناعات المتكاملة بتغطيتها للطلب الاستهلاكي النهائي ، فانشاء مثل هذه الصناعات المتكاملة بشكل كثيف وعلى جبهة واسعة من شأنه ان يؤدي الى زيادة نصيب الفرد من الاستثمار ويرفع من انتاجه ودخله وبالتالي من استهلاكه النهائي مما يؤدي بالنتيجة الى توسيع نطاق السوق بالنسبة لمختلف الصناعات القائمة ، هذا ما يطلق عليه « نظرية النمو المتوازن » التي تستوجب تزامن جميع الصناعات ، اي انشائها في نفس الوقت ، فالاستثمار في صناعة ما يخلق الطلب على مخرجات الصناعات الاخرى، كما أن التوسع في الصناعات الاخرى يخلق طلبا على مخرجات الصناعة الاولى ، وبعبارة اخرى فان العاملين في كل صناعة يعتبرون سوقا لمنتجات الصناعات الاخرى . وهكذا فان الاستثمارات في صناعة معينة تخلق فرص الربح وبالتالي تهيء فرص الاستثمار في صناعات اخرى ، والعكس بالعكس .

اما المقصود بمفهوم « التوازن » فهو نمو كل صناعة او قطاع بمعدل متلائم مع مرونة دخل / الطلب على المستوى الكلي للاقتصاد القومي ، على منتجات هذه الصناعة او هذا القطاع . يمكننا اذن ان نقول بأن نمط النمو هو متوازن اذا كان معدل النمو في كل قطاع قد تم بالاستناد الى مرونة دخل /الطلب على منتجاته .

هذا ما يوصلنا في الحقيقة الى القول بأنه ليس من الضروري أن يكون معدل النمو في كل قطاع او صناعة مساويا لمثيله بالنسبة للقطاعات والصناعات الاخرى ، بل من الممكن ان يكون معدل النمو مختلفا من قطاع لآخر ومن صناعة لاخرى ، وهذا امر طبيعي طالما ان مستوى الدخل القومي ونمط توزيعه يحددان مرونة دخل / الطلب التي تختلف من

قطاع لآخر ومن صناعة لاخرى وهكذا فمن المعقول ان يكون نمو القطاعات والصناعات بمعدلات مختلفة ومتفاوتة فيما بينها .

من الملاحظ بأن هذه النظرية المقترحة من قبل نوركس لتطبيقها في بلدان متخلفة لا تتلاءم مطلقا مع حجم الموارد والامكانيات المادية والخبرات المتاحة لهذه البلدان . انطلاقا من هذا الانتقاد الاساسي الذي يمكن ان يقلل كثيرا من اهمية افكار نوركس ، ومن اجل ان تكتمل الحلقة في تحليلاته فقد ركز بعد ذلك على ضرورة دخول رؤوس الاموال الاجنبية الى البلدان المتخلفة لتبدا القيام بتنشيط حالتها الاقتصادية وتوسيع اسواقها الداخلية بالمعنى الذي ذكرناه آنفا .

وهكذا يمكننا ان نلاحظ بان نوركس قد بقي مخلصا لمدرسته واتجاهه الكلاسيكي لعدم استغنائه عن مبدا التخصص والتقسيم الدولي للعمل ولو تغير شكله ومضمونه قليلا . بل على العكس قد اعطاه نوعا من الاستمرارية بتغيير الوسيلة التقليدية لنقل النمو عن طريق التبادل العالمي حيث احل محلها طريقة جديدة لنقل هذا النمو عن طريق طلب البلدان المتخلفة لرؤوس الاموال العالمية . رؤوس الاموال هذه يجب ان تتبع طريقا مختلفا تماما عن ذلك الذي اتبعته في الماضي(١) ، بمعنى آخر فان رؤوس الاموال الاجنبية هذه يجب ان ينحصر عملها من اجل الانتاج المحلي وتوسيع السوق الداخلية في البلدان المتخلفة ، وليس من اجل الانتاج بهدف التصريف في السوق الخارجية وهكذا فقد ضمن مكانة الدول المتقدمة في تحليلاته هذه وذلك بملكيتها لرؤوس الاموال وهذا ما يجعل عندها ــ بنفس الوقت ــ مزية نسبية في هذا المجال في تصدير رؤوس الاموال هذه الى البلدان المتخلفة التي هي في اشد الحاجة اليها .

(١) المقصود بالطريق الذي اتبعته في الماضي رؤوس الاموال الاجنبية داخل البلدان المتخلفة هو مجال الصناعات الاستخراجية .

باختصار فان افكار نوركس يمكن ان تتلخص على الشكل التالي :

ان ظروف وبنيــة اقتصاديات البلدان المتخلفة تتطلب استعمــالا ديناميكيا لرؤوس الاموال الاجنبية التي تعمل في داخلها . هذا الاستعمال الديناميكي يجب ان يتجه بالضرورة نحو توسيع السوق الداخلية بخلق صناعات منتجة للسلع الاستهلاكية . انه يستبعد حصرا استعمال رؤوس الاموال هذه من اجل السوق الخارجية اي من اجل انتاج سلع معدة للتصدير ، لان مثل هذا الامر سيصطدم بضيق السوق الخارجية كما اسلفنا سابقا (موديل ١ و ٢) .

لنتساءل الآن اين يقع عدم كفاية التحليل عند نوركس ؟ ان الوقائع الاقتصادية وتجارب البلدان المتخلفة في هذا المجال قد اظهرت لنا واقعا للامور بعيدا كل البعد عما قدمه لنا نظريا هذا المؤلف .

قبل كل شيء ، ان دخول رؤوس الاموال الاجنبية يكون عادة مشروطا بنمو الصادرات اللازمة لتمويل الاعباء المالية المتولدة عن رؤوس الاموال هذه . فالفرص المفتوحة امام الاستثمارات العاملة في صناعات استهلاكية لا تكون مواتية الا لفترة قصيرة وهي الفترة اللازمــة لاشباع السوق الداخلية من منتوجات هذه الصناعات ثم لا تلبث ان تصطدم من جديد بضيق السوق الداخلية وهي ظاهرة تفرض نفسها في الكثير من الدول المتخلفة وتقف حائلا اما تطبيق اية استراتيجية للتنمية ، لذا وعلى المدى الطويل فان هــذه الاستثمارات تجــد نفسها مرغمة لاقتحام السوق الخارجية والتي لا تخلو ايضا من المصاعب وذلك على الاقل حسب راي نوركس نفسه .

هذا هو السبب الذي من اجله اتخذت الاستثمارات المباشرة الامريكية في البلدان المتخلفة منذ عدة سنوات اتجاهين مختلفين :

١ ــ في البلدان المتخلفة ذات الاســواق الواسعة ، كانت هــذه الاستثمارات تغطي مشاريع صناعية ضخمة والتي يكون فيها معامل راس

المال قوي ، اي في مجال صناعات احلال الواردات . ان القسم الاعظم من منتجات هذه الصناعات يصرف داخليا نظرا لاتساع السوق المحلية.

٢ ــ في البلدان المتخلفة ذات السوق الضيقة والطلب الضعيف ، حيث كانت هذه الاستثمارات تستخدم في صناعات ذات كثافة عالية من اليد العاملة اي في مجال صناعات التصدير حيث يمكن الاستفادة من اليد العاملة المحلية الرخيصة . هذا بشكل عام المثال التقليدي والنموذجي لمجال عمل رؤوس الاموال الاجنبية في البلدان المتخلفة لان الغالبية العظمى منها ــ وكما قلنا ــ ذات سوق اقتصادية محدودة .

بالنتيجة يمكننا القول اذن بأن نوركس من اجل ان يتحاشى ضيق السوق الخارجية قد وقع في مشكلة اكبر واعقد ، وهي ضيق السوق الداخلية .

مبررات صناعات احلال الواردات عند (هيرشمان Hirschman):

ان تاريخ الوقائع الاقتصادية يبين لنا التطور كسلسلة من اختلالات التوازن والتي تظهر فيها صناعات معينة مؤهلة لجلب النمو الاقتصادي. هذه الصناعات القائدة او « اقطاب النمو » تلعب دورا كبيرا في دفع عملية التنمية والتطور الاقتصادي الى الامام ، ان تقدم ونمو اقطاب النمو هذه يولد قوة جذب بالنسبة لبقية قطاعات الاقتصاد القومي ككل، بمعنى آخر فان تقدم صناعة ما (قائدة) على صناعات اخرى هو شرط ضروري لخلق ظروف نموهذه الصناعات ، ولعلنا نستطيع اعطاء بعض الامثلة التاريخية عن مثل هذه الصناعات القائدة التي كانت أساسا في تحقيق التطور الاقتصادي في بعض بلدان اوروبا الغربية والشرقية على حد سواء : كصناعة النسيج في انكلترا وصناعة السكك الحديدية في امريكا والمانيا وفرنسا وصناعة الخشب في السويد وذلك خلال القرن التاسع عشر ، اما في القرن الحالي فباستطاعتنا ان نذكر قطاع الكهرباء في الاتحاد السوفياتي في العشرينات ، صناعات النقل البحري في بلدان

أوروبا الشمالية ، الصناعات الكيميائية والالكترونية في النصف الثاني من القرن الحالي بالنسبة لبلدان أوروبا الغربية .

ان تقدم بعض الصناعات على البعض الآخر يكون باستمرار مصحوبا باختلال التوازن ، هذا الاختلال الذي يأخذ شكل تولد طاقة فائضة في الصناعات القائدة وشكل ضغوط واختناقات في الصناعات الاخرى المتخلفة نسبيا في نموها . ان الاختلال في التوازن يشكل في نفس الوقت القوة المحرضة للنمو . هذا ماأطلق عليه « نظرية النمو غير المتوازن » التي جاء بها هيرشمان والتي تعتبر ركنا اساسيا من أركان نظريات « التنمية الاقتصادية » .

تعتبر عملية التنمية ـ حسب هذه النظرية ـ سلسلة متصلة من اختلالات التوازن حيث ان كل اختلال يولد قوى مصححة له . الا ان تصحيح هذا الاختلال سوف يخلق أيضا اختلالا جديدا في التوازن يولد بدوره قوى مصححة لتعديل هذا الاختلال وبذلك يتولد اختلال جديد في التوازن ... وهكذا مما يدفع بالنتيجة التنمية نحو الامام .

من اجل توضيح فكرة السلسلة المتصلة الحلقات من اختلالات التوازن يركز هيرشمان على مفهوم الارتباط المتبادل بين الصناعات المختلفة وعلى مفهوم الوفورات الخارجية التي تتولد نتيجة لهذا الارتباط(١). فكل استثمار سوف يخلق فرصا أخرى لاستثمارات جديدة وبالتالي يشكل بذلك دفعا جديدا للتنمية . فالمشروعات الاستثمارية الجديدة تستفيد من وفورات خارجية قائمة ولكنها بدورها تخلق وفورات خارجية جديدة وهي من ثم تخلق الظروف لمشروعات استثمارية جديدة تأتي لتستفيد من هذه الوفورات . كما ان المشروعات الثانية تستفيد

(١) انظر : مبادىء الاقتصاد للدكتور محمد هشام خواجكية ، ١٩٧٧ .

من الوفورات الخارجية(١) التي خلقتها المشروعات السابقة ولكنها بدورها تخلق وفورات خارجية جديدة يمكن ان تستفيد منها مشروعات اخرى.

ان نقطة البدء عند هيرشمان تختلف كثيرا عنها عند نوركس . فبينما نرى بأن الثاني قد ركز على راس المال على انه اشد ما تفتقر اليه البلدان المتخلفة في عملية التصنيع ، فقد ركز الاول على وجود المستحدث والاداري الجيد الذي يتوقف عليه اختيار النوع الملائم من الاستثمارات . يرى هيرشمان بأن القيد الرئيسي الذي يقيد عملية التصنيع يتمثل في القدرة على اتخاذ قرارات الاستثمار ، وحيث أن هذه القدرات نادرة في البلدان المتخلفة فيجب خلق الاطار والدوافع والظروف التي تؤدي الى اتخاذ هذه القرارات بأعلى فعالية ممكنة ، والظروف التي تؤدي الى اتخاذ قرارات الاستثمار بفعالية عالية هي ظروف اختلال التوازن المتمثل في الضغوط والاختناقات . وبمعنى آخر يجب البدء بعملية التصنيع عن طريق اختيار الاستثمارات المحرضة وليس الاستثمارات المستقلة .

ان عملية التنمية يجب ان تتجه اذن نحو اقامة الصناعات الرائدة بقوة جذبها وتنشيطها للصناعات الاخرى . أما الصناعة الرائدة او القائدة فقد اعتبرت كذلك لانها تتميز بعلاقات امامية وخلفية بالنسبة الى غيرها من الصناعات . تتمثل العلاقات الامامية في امكانية الصناعة على خلق فرص للاستثمار في المراحل ما بعد انتهاء العملية الانتاجية . فمثلا توسع الصناعة آ ينشط ويدفع الصناعة ب اذا ما كانت هذه الاخيرة تستخدم مخرجات الصناعة آ كأحد المدخلات لديها . يترتب اذن على توسع الصناعة آ وارتفاع الانتاجية فيها زيادة ربحية الاستثمار في الصناعة ب وذلك عن طريق تخفيض نفقات انتاجها . وهكذا فمع ازدياد هذه العلاقات الامامية فان مزيدا من الاستثمارات سوف توظف في كلا

(١) الوفورات الخارجية بشكل عام هي الوفورات التي تتحقق لمشروع او لمجموعة من المشاريع من جراء زيادة انتاجها او ارباحها بفضل ما ينتقل اليها من مزايا اقتصادية تفرزها مشاريع اخرى او يولدها المحيط .

الصناعتين : الاولى بسبب التصريف السريع لانتاجها والثانية بسبب الوفورات الخارجية التي تقدمها لها الصناعة الاولى .

اما العلاقات الخلفية فتتمثل في امكانية الصناعة او الاستثمار على خلق الطلب وبالتالي فرص الاستثمار في المراحل السابقة للعملية الانتاجية . ان العلاقة الخلفية للصناعة آ تتمثل في قدرتها وامكانياتها على خلق فرص الاستثمار في الصناعة جـ التي تقدم للصناعة آ مستلزمات الانتاج . وبذلك فان توسع الصناعة آ يعطي بعض نتائجه في زيادة ربحية الاستثمار في الصناعة جـ عن طريق توسع السوق المهيأة لمنتجاتها .

ان انشاء مثل هذه الصناعة (القائدة) سوف يخلق اذن حالة من اختلال التوازن في هيئة نقاط اختناق في مراحل الانتاج السابقة وفي هيئة فائض من ناتج الصناعة القائدة مهيأ للاستخدام في الصناعات التي تقوم بالمراحل التالية للانتاج(١) ، ان هذا الاختلال في التوازن سوف يخلق بدوره قوى لتصحيحه وبالتالي اعادة التوازن في صورة تحريض الاستثمارات في المراحل السابقة والمراحل اللاحقة للانتاج في الصناعة التي تم توسعها . الا ان هيرشمان قد اكد على الصناعات التي يمكن ان تخلق فرصا للتصريف بالنسبة لصناعة اخرى ، اي انه اكد على الصناعات التي لها آثار تحريض نحو الخلف . وباعتبار ان هناك العديد من الصناعات تتمتع بهذه الصفة ، الا انه يجب البدء بالصناعات السهلة التحقيق في البلدان المتخلفة وخصوصا من الناحية التكنولوجية والتي يمكن ان يكون مردودها في الفترة الاولى اكبر ما يمكن .

ولكن على الرغم من ان استراتيجية التصنيع التي يقدمها هيرشمان تظهر على شكل صناعات احلال الواردات الا انها مفتوحة لدرجة كبيرة على العالم الخارجي لذا يمكن اعتبارها ــ على الاقل في الفترة الاولى من البدء

(١) بمعنى آخر وحسب مثالنا السابق فسوف يكون هناك نقاط اختناق بالنسبة للصناعة جـ وفائض في انتاج الصناعة آ حتى اللحظة التي تبدا فيها الصناعة آ تحريض الصناعة ب حسب الميكانيكية التي ذكرناها .

ــ بها كبرنامج مختلط ما بين صناعات احلال الواردات وصناعات تصدير.
في كل الاحوال وحسب رأيه يجب البدء بالصناعات الاستهلاكية لانها تتميز بمردودها الكبير نسبيا في الفترة الاولى من خلقها ، وبعدها وبفعل عوامل الشد والتحريض التي يمكن ان تمارسها هـذه الصناعات يمكن الوصول الى خلق او توليد صناعات انتاجية .

لنتساءل الآن ما هي مبررات البدء باقامة صناعات احلال الواردات كخطوة اولى في مجال التصنيع ؟ حسب رأي هيرشمان بان منتجـات الصناعات هذه يمكن ان تكون مستوردة من الخارج الا ان انتاجها في الداخل له عدة اسباب موجبة :

١ ــ هناك مصاعب تواجهها البلدان المتخلفة فيما يخص مهنـة الاستيراد نفسها التي تتطلب تأهيلا خاصا يحد من امكانياتها في الدخول الى السوق العالمية .

٢ ــ ان منتجات الصناعة المحلية القائمة يمكن ان تكون مدخلات لصناعة اخرى ، كما يمكن ان تأخذ مدخلاتها من صناعة اخرى ، وبذلك تكون قد استفدنا من هـذه العلاقات التبادلية في تحريك وتنشيط البنية الاقتصادية ككل (اي يمكن الاستفادة من العلاقات الامامية والخلفية التي يمكن ان توجدها الصناعة القائمة) .

٣ ــ هناك مشكلة اساسية تعاني منها اغلب البلدان المتخلفة وهي مشكلة العجز المزمن في ميزان المدفوعات مما قد يشكل نقاط اختناق بالنسبة للانتاج الداخلي الذي يعتمد بصورة رئيسية على الواردات .

مع كل هذا فان موديل التصنيع المقترح من قبل (هيرشمان) هو موديل (برانى Extraverti) على الاقل في مراحله الاولى .

تلعب الواردات دورا كبيرا في تنشيط ودفع الصناعة القائدة في المرحلة الاولى من انشائها حيث تحتاج الى المعدات والآلات الضرورية

وبكميات هائلة . لكن هذه الواردات ــ في نظر هيرشمان ــ يجب ان تقيم تقييما دقيقا من حيث الكمية والنوعية .

من اجل استبعاد نقاط الاختناق التي يمكن ان يولدها العجز المحتمل في ميزان المدفوعات نتيجة استيراد المواد والمعدات الضرورية لعملية التصنيع وبكميات كبيرة ، يجب الابقاء على ما يسمى بالتوازن الخارجي . بمعنى آخر يجب تأمين وسيلة فعالة للتصدير من أجل تمويل النمو المضطرد للواردات .

براي هيرشمان توجد هناك وسيلتان لتغطية هذه الواردات وبالتالي للابقاء على التوازن الخارجي ، وهما :

١ ــ بواسطة حصيلة الصادرات التقليدية من المواد الاولية .

٢ ــ بواسطة حصيلة الصادرات المتولدة من تصدير جزء من الانتاج الذي يمكن أن تولده الصناعة القائدة نفسها والتي هي في أوج ديناميكيتها .

الا انه يستبعد الوسيلة الاولى بسبب الكثير من المشكلات والمصاعب التي تعاني منها البلدان المتخلفة في السوق العالمية والتي تقف حائلا امام الاعتماد على صادراتها التقليدية من المواد الاولية لتمويل وارداتها وبناء قاعدتها الصناعية . يتبنى هيرشمان الوسيلة الثانية باعتبار ان نمو الواردات المتولد عن حاجة الصناعة القائدة سيكون موازن بشكل نظامي واوتوماتيكي بانتاج الصناعة نفسها . بمعنى آخر يمكن تمويل هــذه الواردات بتصدير منتجات الصناعة القائدة نفسها .

لقد اغفل هيرشمان هنا ناحية هامة وهي ان المشكلة لا تأتي فقط من ناحية الانتاج وخلق الفائض المعد للتصدير ، بل يمكن ان تأتي من ناحية تصريف منتجات الصناعة القائدة في السوق الخارجية وخاصة سوق البلدان المتقدمة . فاذا حلت المشكلة الاولى وتوفر الفائض المعد للتصدير ، وهذا لا يعني ابدا ان تحل المشكلة الثانية اي مشكلة التصريف ، اذ ان هناك بعض الظواهر التي يجب اخذها بعين الاعتبار ، والتي تقف حائلا في وجه تصريف المنتجات الصناعية التي تنتجها البلدان المتخلفة واهمها :

١ ـ ان نمو صادرات البلدان المتخلفة هو من اجل تمويل الواردات في نفس الوقت الذي يتم فيه التصدير بالنسبة للبلدان المتقدمة من اجل التصريف فقط .

٢ ـ ان نمو صادرات البلدان المتخلفة من السلع الصناعية يجب ان يتم في نفس الوقت الذي تسيطر فيه المؤسسات الصناعية والتجارية الضخمة والتابعة للدول المتقدمة على السوق العالمية مما يضعف المركز التنافسي للبلدان المتخلفة في هذه السوق .

ان نمو الصادرات من السلع الصناعية بالنسبة للبلدان المتخلفة يعتمد على كفاءة انتاجية ضعيفة ومستوى تكنولوجي متدني في الوقت الذي قطعت فيه البلدان المتقدمة اشواطا كبيرة في هذا المجال .

٤ ـ ان نمو الصادرات من السلع الصناعية بالنسبة للبلدان المتخلفة يجب ان يتم بالرغم من القيود التجارية التي تفرضها البلدان المتقدمة على المنتجات الصناعية للبلدان المتخلفة وهذا امر لا يخلو من الصعوبة في تصريف هذه المنتجات .

ان نقطة الضعف الرئيسية في نظرية هيرشمان تكمن اذن في امكانية دوران الصناعات التي هي في الاصل صناعات احلال الواردات نحو الخارج بعد فترة بسيطة جدا من انشائها من اجل تمويل الواردات من المعدات والادوات الضرورية لتوسيع هذه الصناعات نفسها ؟.

مبررات صناعات احلال الواردات عند دي بيريس (G. D. DE Berris)

ان الشرط الاساسي للتطور الاقتصادي هو (جوانية الصناعات Intra version des Industries) لانه ـ حسب راي دي بيريس اساسا لا نستطيع بناء التطور الاقتصادي اذا لم تكن الصناعات في البلدان المتخلفة « جوانيه » Entraverit لقد جرت العادة في هذه البلدان ان تكون الصناعات متجهة نحو العالم الخارجي « برانية »

Extraverti . ان صناعات التصدير لا يجب ان يكون لها الا اثارا غير مباشرة في تمويل الدفعة الاولى من الواردات من المعدات الضرورية لعملية التصنيع بشرط ان لا تستعمل حصيلة الصادرات لغير هذا الهدف . ان جهود البلد المتخلف يجب ان تتجه بعدهـا وباقصى سرعة نحـو الداخـل .

نحن نتساءل الان اي نوع من التصنيع يقصد هذا المؤلف ؟ مـن اجل الاجابة على هذا السؤال نرى انه من الضروري ان نتعرض الى معنى ، صفات وآثار الصناعات المقترحة من قبله والتي اطلق عليها اسم « الصناعات المصنعـة » Industries Industrialantes فالصناعـات المصنعة هي الصناعة او مجموعة الصناعات التي تكون مهمتها الاقتصادية الاساسية ـ في المكان والزمان المحددين ـ جلب تسويد نظامي او ادخال تعديل هيكلي في مصفوفة العلاقات الصناعية وادخال تحولات في دالة الانتاج وذلك بفضل وضـع مجموعة جديدة مـن الالات والتكنولوجيا الحديثة تحت تصرف الاقتصاد الكلي بهدف زيادة انتاجية عوامل الانتاج وزيادة سيطرة الانسان على العملية الانتاجية ، هذه التحولات التـي تعيد البناء الاقتصادي والاجتماعي مما يؤدي الى خلق شرط وصيرورة التصنيع في البلدان المتخلفة .

تشمل الصناعات المصنعة حسب تصور (دي بيرنس)

صناعات الحديـد والصلب ، الصناعات الميكانيكيـة ، الصناعات الكيميائية ، الصناعات البترو ـ كيميائية ، الصناعات الكهربائية والمراكز الحديثة للطاقـة .

ثم يحدد ثلاث خواص اساسية لهذه الصناعات :

١ ـ انها ذات حجـم كبير جدا ممـا يستدعي بالضرورة الاندماج المنظم بين عدة بلدان بحيث يصبح عدد سكان السوق المشتركة (١٠٠) مليون نسمة على الاقل .

٢ ــ تتمركز الصناعات المصنعة في قطاع السلع الانتاجية .
٣ ــ تتميز هذه الصناعات بكونها ذات كثافة راسمالية عالية .

يؤكد دي بيرنيس على ان هذه الصناعات ذات كفاءة غير مشكوك بها على توليد صناعات أخرى لان الصناعات المصنعة الانفة الذكر تتميز بقدرة كبيرة على التحريض نحو الامام ، وبمعنى اخر فانها ذات علاقات امامية قوية . وهنا يكمن الفرق الاساسي بين الصناعات المصنعة والصناعات المقترحة من قبل هيرشمان ، فبينما تؤكد الاولى على العلاقات الامامية فان الثانية تؤكد على العلاقات الخلفية .

هيرشمان يصر على ضرورة توليد علاقات خلفية ليبرر بالتالي اقامة صناعات احلال الواردات في القطاع المنتج للسلع الاستهلاكية ، اما دي بيرنيس ــ فعلى العكس ــ يصر على ضرورة توليد علاقات امامية ليبرر اقامة صناعات احلال الواردات في القطاع المنتج للسلع الانتاجية .

يمكننا ان نلاحظ بان تصور الاقتصاديين السابقين يمكن ان ينطوي تحت مفهوم استراتيجية النمو غير المتوازن حيث جميع موارد الاستثمارات الجاهزة يجب ان توجه نحو اقامة الصناعة القائدة او الصناعةالاساسية الا ان دي بيرنيس يؤكد على ضرورة التفريق بين مبررات اختياره للصناعات المصنعة وتلك التي جاء بها هيرشمان من قبل وذلك من خلال الظواهر التالية :

١ ــ ان صناعات احلال الواردات حين تتمركز في القطاع المنتج للسلع الاستهلاكية انما تخدم حصرا طلب الطبقات الميسورة في البلدان المتخلفة حيث يقول دي بيرنيس في هذا الصدد :

« يجب ان لا ننسى ابدا بان موديل التطور بواسطة خلق الصناعات الاستهلاكية هو مطابق تماما لرغبات الطبقة من المجتمع ذات الدخل المرتفع والتي من صالحها حشد الراسمال القومي في البلد من اجل تلبية رغباتها في استهلاك السلع الاستهلاكية المصنعة » .

٢ ــ ان الصناعات الاستهلاكية لا يوجد عندها اية قدرة تحريضية على قطاع الصناعات الانتاجية ، اي بواسطة الصناعات الاستهلاكية لا يمكن توليد صناعات اساسية . بالعكس فان الصناعات المصنعة تملك القدرة على ذلك فابتداء من صناعة اساسية يمكننا ان نولد صناعات استهلاكية وحتى صناعات اخرى انتاجية تسمح بتحديث قطاعات اخرى حيوية كالقطاع الزراعي .

٣ ــ اذا ما اخذنا بعين الاعتبار العامل التكنولوجي ، فان صناعات احلال الواردات المقامة في قطاع الصناعات الاستهلاكية على عكس الصناعات المصنعة فانها تتطلب تكنولوجيا بسيطة وبدائية نسبيا ذات كثافة راسمالية ضعيفة مما لايسمح لاقتصاد البلد المتخلف ان يخلق قطاعا صناعيا ديناميكيا بعلاقاته الامامية .

٤ ــ بفضل المردودية العالية التي تتمتع بها الصناعات الاستهلاكية على المدى القصير ، فان اقامة مثل هذه الصناعات تشجع من قبل رأس المال الخاص والاجنبي ، على العكس بالنسبة للصناعات المصنعة ذات الكثافة الراسمالية العالية فانها تتطلب رؤوس اموال هائلة ولا تكون مردوديتها كبيرة الا على المدى البعيد . لذا فان اقامة مثل هذه الصناعات ــ اي الصناعات المصنعة ــ يتطلب بالضرورة رؤوس اموال وطنية تعمل بهدف البناء الاقتصادي والاجتماعي للبلد المتخلف الذي اقيمت فيه الصناعة .

٥ ــ اخيرا فان تجارب البلدان المتخلفة قد اثبتت بأن سياسة التصنيع التي تعتمد على انتاج السلع الاستهلاكية لم تنجح على تلبية رغبات هذه البلدان حتى من السلع التي تنتجها هذه الصناعات . بل اكثر من ذلك فانها عمقت وقوت تبعية البلدان المتخلفة بالنسبة للبلدان المتقدمة خصوصا فيما يتعلق باستيراد السلع والمعدات الراسمالية . ان تصنيع السلع الانتاجية في البلدان المتخلفة نفسها يقوي من استقلالها الاقتصادي ويضعف بالتالي من تبعيتها للعالم المتقدم وهذا ما يمكن ان تقدمه الصناعات المصنعة .

اذا أردنا تلخيص أفكار دي برنيس فانه يمكننا القول بأن على البلدان المتخلفة من اجل تحقيق استقلالها وتطورها الاقتصادي يجب أن ترفض التصنيع المفتوح على العالم الخارجي الذي يجعلها تابعة لمجموعة من القوى الموجودة خارج حدودها والتي يمكننا استنتاج مساوئها اذا ما تفحصنا ميدان المدفوعات لكل بلد على حده والذي يشكل بعجزه المزمن قيدا قاسيا على جهود التنمية ، يجب على هذه البلدان ان تعتمد على قواها الذاتية الموجودة او التي يمكن خلقها ضمن اطار حدودها الوطنيـــة .

ان خلق ديناميكية داخلية في اقتصاديات البلدان المتخلفة مبنية على نموذج ذاتي للتنمية هو مطلب طبيعي ليس بالنسبة لهذا المؤلف فحسب بل بالنسبة لكل انسان يعيش في هذه البلدان . هذا المطلب مبرر تماما من وجهة نظر ايجاد حل مثالي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه البلدان المتخلفة اليوم اكثر من أي وقت مضى . الا ان استراتيجية التصنيع التي اقترحها دي برنيس تترك بعض الاسئلـة الهامة دون اجابة .

١ ــ ان المشكلة التي بقيت دائما معلقة في تحليل هذا المؤلف هــي كيفية تمويل الصناعات المصنعة التي تتطلب امكانيات مالية كبيرة جدا . انمشكلة التمويل هذه تحد كثيرا من جهود التنمية المبذولة فيأغلب البلدان المتخلفة حتى من اجل تنفيذ الصناعة التي تتطلب كثافة راسمالية اقل بكثير مما تتطلبه الصناعات المصنعة .

٢ ــ يؤكد المؤلف كثيرا على مبدأ « جوانيه » موديل التنمية القائم على اساس الصناعات المصنعة .ان هذا المبدأ المقترح هو في تناقض كبير على الاقل فيما يتعلق بالمجال التكنولوجي . ان نموذج الصناعات المصنعة يتطلب كما رأينا تكنولوجيا متقدمة جدا والتي لا يمكن ان تكون الا مستوردة من العالم المتقدم وخصوصا في الخطوات الاولى من انشاء مثل هذه الصناعات . وهذا ما يولد على المدى البعيد تبعية تكنولوجية

للبلدان المتخلفة بالنسبة للبلدان المتقدمة ، ولعل التجربة الجزائرية في التصنيع اكبر مثال على هذه الظاهرة .

٣ ـ يعطي دي بيرنس دورا قليل الاهمية لصناعات التصدير وذلك حصرا من اجل تمويل الدفعة الاولى مـن المعدات والالات المستوردة والضرورية لبدء عملية التصنيع . بعد هذه المرحلة فان دور صناعات التصدير هذه يصبح هامشيا . ثم يعود في مكان آخر ليعطي التجارة الخارجية دور صمام الامان بالنسبة للصناعات المصنعة . بمعنى اخر فانه يقول بان علينا ان نستورد حينما تكون قدرات الانتاج في الصناعة (آ) غير كافية وقاصرة على تأمين مستلزمات الانتاج في صناعة اخرى (ب) امامية بالنسبة للصناعة الاولى ، الاستيراد يأتي هنا لتجنب نقاط الاختناق في العطية الانتاجية للصناعة (ب) .

ويجب علينا ان نصدر حينما يكون لدينا من الفائض مايزيد عن حاجة الصناعة (ب) مثلا كما في مثالنا السابق ، وذلك خوفا من ان يستهلك هذا الفائض استهلاكا نهائيا غير منتج .

اذن والحالة هذه فان التجارة الخارجية تلعب دور صمام الامان الذي يخلق الانسجام والتناغم في مستوى القدرات الانتاجية الداخلية وذلك حسب الميكانيكية التي اوردناها سابقا (تأمين العجز وتصريف الفائض) . أليس من المعقول ان تفرض علينا الكفاءة الانتاجية ان نبقى بشكل دائم بين الحالتين السابقتين ، اي وجود عجز وفائض بشكل مستمر ولكن بالتناوب ؟ في هذه الحالة لا يوجد اي مانع في ان تنقلب الصناعات المصنعة « الجوانية » الى صناعات للتصدير وبذلك تنتفي الميزة الديناميكية لهذه الصناعات ، فبدلا من ان نزرع جميع مخرجاتها في ارض الاقتصاد الام تذهب على شكل صادرات الى العالم الخارجي وهذا مخالف تماما لحجج دي بيرنس .

ثانيا ـ صناعات التصدير :

ان اهم شرط ضروري للانطلاق الاقتصادي في البلدان المتخلفة هو تحسين الصادرات المبني على أساس من التخصص الديناميكي . يلاحظ أيضا (دي بيرينس) ان هناك علاقة قوية بين نمو الصادرات والدخل القومي وذلك انطلاقا من بعض الدراسات الاحصائية التي قام بها احد الاقتصاديين الذي حصل على معامل ارتباط لهذه العلاقة مقداره (٠,٨٢) لعينة مؤلفة من ٥٠ بلدا متخلفا مابين الفترة ١٩٥٣ ــ ١٩٦٤ .

لاحظ هذا الاخير ظاهرة مفادها ان بلدا ما يستطيع ان يرفع حصة الفرد من الدخل القومي بمقدار ١٪ لكل زيادة في صادرات هذا البلد بمقدار ٢,٥٪ .

في هذا الصدد ايضا ، فان مجموعة من الاقتصاديين المهتمين بأمور التنمية الصناعية في البلدان المتخلفة والتابعين لهيئة الامم المتحدة قد اوصوا بنتيجة الدراسات بانه من اجل رفع كفاءة الصادرات في تمويل الواردات من السلع الضرورية للنمو الاقتصادي على البلدن المتخلفة ان تخصص قسما من كفاءتها الانتاجية من السلع الصناعية للسوق الخارجية وليس فقط للسوق الداخلية .

وهكذا يجب ان لا نفهم بأن سياستي التصنيع (احلال الواردات وصناعات التصدير) يجب أن تتبعا الواحدة دون الاخرى . على العكس فان هاتين الصناعتين متكاملتان اذ يجب تبني سياسة التصنيع بحيث تشمل صناعات احلال الواردات وصناعات التصدير في برنامج مشترك .

في الحقيقة ان في هذه النتيجة امرا طبيعيا اذا ما اخذنا بعين الاعتبار افلاس سياسة التصنيع القائمة على اساس احلال الواردات في تحقيق الاهداف التي انشئت من اجلها . فقد كان من المعتقد انه بعد اقامة صناعات احلال الواردات فان هذه البلدان سوف تخفف كثيرا من اعتمادها

على العالم الخارجي عن طريق تقليل وارداتها . وربما كان ذلك صحيحا بعض الشيء بالنسبة للسلع التي تنتجها هذه الصناعات والتي اقتصرت على السلع الاستهلاكية . الا انه في نفس الوقت ازدادت وارداتها وبنسب كبيرة من السلع الوسيطة والالات والمعدات اللازمة لهذه الصناعات مما جعل هذه البلدان عاجزة عن تمويل وارداتها من هذه السلع خصوصا وان صادراتها تتألف في غالبيتها من مواد اولية تعاني صعوبات كثيرة في تصريفها في السوق العالمية . لذا فقد كان من الضروري ان تسعى هذه البلدان الى تعديل التركيب الهيكلي لصادراتها بما يضمن مجابهة حاجياتها المتزايدة من المعدات الضرورية لبناء قاعدتها الصناعية . المطلوب هنا اذن تعديل وضع البلدان المتخلفة على المستوى العالمي واعادة النظر في التقسيم الدولي للعمل في ادخال شيء من الديناميكية عليه بما يتناسب مع الظروف والحاجات الراهنة لهذه البلدان وهذا ما يفسر لنا ظاهرة جديدة في مجال الاقتصاد العالمي والتي تتمثل في اعادة توزيع النشاطات الاقتصادية في العالم ككل .

يمكننا تحليل هذه الظاهرة فيما يتعلق بالبلدان المتخلفة من عدة وجوه مختلفة :

١ ــ الاول بسيط وتقليدي يعتمد على تحسين الصادرات من المواد الاولية بادخال بعض العمليات الصناعية بهدف تنويع الصادرات . وهكذا تستطيع البلدان المتخلفة عن طريق اعطاء بعض القيم المضافة لمنتجاتها من المواد الاولية الزراعية او الاستخراجية ان تدخل شيئا من الاستقرار على صادراتها . ان معارضي هذه الفكرة يؤكدون على ان البلدان المتقدمة هي وراء ذلك لان آفاقها في استغلال البلدان المتخلفة قد تحول تبعا للزمن ولتطور القوى المنتجة . فحينما كانت هذه البلدان المتخلفة بشكلها صناعاتها التحويلية استوردت المواد الاولية من البلدان المتخلفة بشكلها الخامي . اما الان وقد ارتقت البلدان المتقدمة في سلم التطور الصناعي اصبحت بغنى عن تحويل هذه المواد الاولية بنفسها الى مرحلة اعلى . ففي القرن التاسع عشر عندما كانت الصناعات النسيجية البريطانية

بحاجة للقطن مثلا بشكله الخام لتدفع صناعة الغزل الى الامام اصبحت الان بحاجة الى الخيوط القطنية لانها لم تعد بحاجة لتشغيل « مانيفاكتوراتها » بل تعدت هذه المرحلة لتتركها للبلدان المتخلفة بينما تنصرف هي لمجالات انتاجية اخرى .

في كل الاحوال ان هذا النقد سيكتمل اكثر حينما نتعرض بالتفصيل للوجه الثالث في تفسير ظاهرة اعادة توزيع النشاطات الاقتصادية في العالم .

٢ ــ الوجه الثاني فانه يعتمد على الفكرة القائلة بان هناك توزيعا عالميا للنشاطات بشكل مستمر يعتمد على ميكانيكية الاستقبال لنشاط جديد والتخلي عن نشاط قديم في كل بلد . ففي كل مرة تتخلى الدولة المتقدمة عن نشاط قديم في مجال الانتاج لتستقبله دولة اخرى اقل تقدما من الاولى وهذا ما يعطي من حيث المبدا ديناميكية مستمرة للتقسيم الدولي للعمل .

٣ ــ اما الوجه الثالث في تفسير ظاهرة اعادة توزيع النشاطات الاقتصادية على مستوى العالم فيعتمد على ظاهرة « عالمية الانتاج »

سوف نقوم الان بدراسة الوجهين الثاني والثالث بشيء من التفصيل . اما الوجه الاول فيمكن ان يمثل حالة من الحالات التي نتعرض لها تلقائيا عند تحليلنا للوجه الثاني .

آ ــ التوزيع العالمي للنشاطات وديناميكية التقسيم الدولي للعمل :

١ ــ نظرية دوران المنتجات عند (ر . فيرنون R . Vernon) :

تنطلق هذه النظرية من تعميم ظاهرة انتقال بعض النشاطات الصناعية بشكل عفوي من البلدان المتقدمة الى البلدان الاقل تقدما .

يقسم فيرنون السلع الى ثلاثة أنواع وذلك حسب خواصها ومستوى تطور البلد التي توجد فيها :

ــ سلع جديدة (Produits nouveaux) خاصة بالبلدان الاكثر تقدما والتي فيها البحث العلمي اكثر تطورا من البلدان الاخرى .

ــ سلع ناضجة (Produits mûrs) بتأثير الزمن ، وهي نفس السلع الجديدة ولكن بعد فترة زمنية معينة من انتاجها فان البلد المنتج يتخلى عنها ليصار الى انتاجها من قبل البلد التي تاتي في الدرجة الاقل مباشرة في سلم التقدم .مثال ذلك السلع التي تتخلى الولايات المتحدة عن انتاجها لبقية البلدان المتقدمة .

ــ سلع نمطية (Produits standardisés) ، وهي آخر مرحلة من حياة منتج ما حيث تبدأ بانتاجه البلدان المتخلفة بعد أن تخلت عن انتاجه البلدان المتقدمة .

هذه الدورة في حياة سلعة ما يمكننا تصورها حسب الشكل التالي :



بلدان متخلفة اخرى بلدان متخلفة بلدان متقدمة اخرى الولايات المتحدة الامريكية

حسب رأي فيرنون فان هذه هي القاعدة التي يجب على بلدان العالم ان تنطلق منها من اجل بناء قاعدتها الصناعية .

ان ما يهمنا في الحقيقةمن ذلك كله هو تقبل او رفض هذه الميكانيكية التي يقدمها لنا فيرنون من وجهة نظر التصنيع في البلدان المتخلفة . بمعنى آخر اذا كان الهدف من تصنيع البلدان المتخلفة هو القضاء على حلقة التخلف التي تعيشها هذه البلدان ، واذ انطلقنا من ان التخلف هو مفهوم نسبي (أي اننا لولا التقدم لما عرفنا ان هناك تخلفا) فهل باستطاعتنا ان نعتبر تصنيع البلدان المتخلفة القائم على اساس هذه النظرية التي يقدمها لنا فيرنون هو الطريق الصحيح لحل مشكلة التخلف في هذه البلدان ؟ بتعبير مطلق ، ان هذه الآلية في انتقال النشاطات تحمل معها تحسنا ملموسا في هيئة البلدان المتخلفة فيما يتعلق بمجال التصنيع الذي تحتاج اليه .

بتعبير نسبي ، ان استمرارية استقبال وبث النشاطات سوف يؤدي الى توسيع الفجوة من التقدم التي تفصل البلدان المتقدمة عن البلدان المتخلفة .

لأن الاخيرة ستبقى قابعة في ادنى مراحل نظام الانتاج العالمي . ان ما اقترحه فيرنون يعمق في الحقيقة التقدم بالنسبة للبلدان المتطورة في مجال البحث العلمي ويعمق ايضا التخلف بالنسبة لجميع البلدان النامية على حد سواء .

اذا كان فيرنون يقترح علينا في نظريته هذه قانونا جديدا للتقسيم الدولي للعمل فان هذا الاخير لا يختلف كثيرا عن القانون القديم سواء من ناحية الجهة التي فرضته وهي البلدان المتقدمة نفسها ، او من ناحية المكان الذي سوف تحتله البلدان المتخلفة في نظام الانتاج . بواسطة

القانون المقترح من قبل فيرنون فان البلدان المتقدمة تحفظ لنفسها فيه الاختراعات والابداع الفني والتكنولوجي وتترك للبلدان المتخلفة الصناعات التي اصبحت غير مجدية لها وخصوصا تلك الصناعات ذات الكثافة العالية من اليد العاملة الرخيصة . بمعنى آخر فان تصنيع البلدان المتخلفة حسب آلية فيرنون يتمركز في مجال انتاج السلع التي بلغت المرحلة النهائية من دورة حياتها .

في الحقيقة ان فيرنون لم يعط قانونا جديدا للتقسيم الدولي للعمل وانما اعطى للقانون القديم حركية تتناسب مع تطور نظام الانتاج العالمي. في كل الاحوال فان اعادة التوزيع العالمي للنشاطات هذا والذي ياخذ مظهر استقبال وبث للنشاطات قد تبناه فيما بعد دي بيرنو DE Perno ولكن آفاقه كانت نوعا ما مختلفة عن سابقه ـ للوصول الى القانون الديناميكي للتقسيم الدولي للعمل (وذلك حسب تصوره بالطبع) .

٢ ـ بث واستقبال النشاطات وديناميكية التقسيم الدولي للعمل عند (دي بيرنو DE Perno) :

ينطلق دي بيرنو في تحليله لحركة النشاطات العالمية من تقسيم دول العالم الى اربعة مجموعات :

١ ـ الولايات المتحدة الامريكية وتاتي في اعلى التسلسل الهرمي للبلدان المتقدمة .

٢ ـ المملكة المتحدة البريطانية ، المانيا وفرنسا وتصنف في قمة البلدان الصناعية بعد الولايات المتحدة الامريكية وبانها ذات مستوى معاشي مرتفع(١) .

---

(١) المجموعتان الثانية والثالثة لا تشملان فقط البلدان المذكورة بل ان هذه البلدان كانت على سبيل المثال وليس الحصر .

٣ ـ ايطاليا واليابان وهي من البلدان الصناعية ولكن ذات مستوى معاشي اقل من المجموعة الثانية .

٤ ـ مجموعة البلدان التي هي في طريق التصنيع وتشمل البلدان المتخلفة بشكل عام .

وهكذا فان كل مجموعة من هذه البلدان هي مؤهلة لان تستقبل النشاطات من المجموعة التي تسبقها وتبثهـا للمجموعة التي تليها . هذه الآلية يمكن ان ترجح لنا الى حد ما مدى مساهمة البلدان المتقدمة في تصنيع البلدان المتخلفة وذلك عندما تبث اليها النشاطات التي تتخلى عنهـا .

ان حركة النشاطات هذه على المستوى العالمي لهي « حقيقة اكيدة » ولكن ، حسب مايقول دي بيرنو ايضا ، توجد بعض العوامل التي تخدم توزيع هذه النشاطات واهمها السياسات الجمركية التي تقيد حركتها . من اجل الخلاص من جميع القيود ومن أجل ان تستفيد جميع البلدان في العالم وخصوصا المتخلفة منها من حركة هذه النشاطات فان المؤلف (دي بيرنو) يدعو الى تبني النموذج المفتوح[١] للنمو ما بين مجموعـة البلدان المتقدمة من جهة ومجموعة البلدان المتخلفة من جهة أخرى .

انه يقول بان المجموعة الثانية لا تستطيع ان تتغلب على « السلبيات الهيكلية » التي تعاني منها اقتصادياتها الا اذا احتوى النمو في البلدان المتقدمة على الصفتين التاليتين :

١ ـ ان يقوم هذا النمو على اساس قطاعات التصدير .

---

(١) وهو نموذج (هـ . جـ . جونسون H . J . Johnson) الخاص بتحليل آثار النمو الداخلي على المبادلات الخارجية .

٢ ـ انتقاء نموذج النمو بحيث تكون له آثار مباشرة على قطاع الاستيراد بما يكفل تنشيط الواردات من البلدان المتخلفة .

هذان هما الشرطان الضروريان اللذان يجب ان يجتمعا في نموذج النمو المتبع في البلدان المتقدمة حتى تتوفر « الشروط السانحة » لتواجد عنصر الديناميكية في التوزيع العالمي للنشاطات .

بعد هذا التمهيد يخلص (دي بيرنو) الى اعطاء تصور جديد لمبدا التخصص الدولي حسب المزايا النسبية حيث يدخل عليه عنصر الحركية .

يقول المؤلف بان لمصلحة كل بلد ان يتخصص في تصنيع وانتاج السلع التي تكون الآفاق المستقبلية للطلب الداخلي عليها ملائمة . بالمقابل يجب ان يستورد السلع التي تكون لاجلها هذه الآفاق اقل ملاءمة .

بعد ان لخصنا الافكار الرئيسية التي يعتمد عليها (دي بيرنو) :

١ ـ آلية حركة النشاطات الاقتصادية على الصعيد العالمي عند (فيرنون Vernon) .

٢ ـ آثار النمو الداخلي على المبادلات الخارجية عند (جونسون Johnson) .

نستطيع ان نلاحظ ان الديناميكية المقترحة من قبل هذا المؤلف والتي ادخلها على قانون المزايا النسبية تعتمد على ثلاث قواعد رئيسية :

١ ـ التخلي المستمر من قبل البلدان المتقدمة عن نشاطات اقتصادية كانت تؤديها والقدرة المستمرة بالمقابل من قبل البلدان المتخلفة على امتصاص هذه النشاطات .

ب ـ الانتقاء للنشاطات الجديدة المتبناة من قبل البلدان المتقدمة بما يتلاءم مع الشروط التي ذكرناها آنفا والتي يجب ان تتوفر في نموذج النمو المتبع .

جـ ـ الاخذ بقانون المزايا النسبية في التخصص والتقسيم الدولي للعمل بشكله الديناميكي ، اي بأن مصلحة كل بلد تقتضي ان يتخصص في انتاج السلع التي تكون الآفاق المستقبلية للطلب الداخلي عليها ملائمة، وان يستورد السلع التي تكون لاجلها هذه الآفاق اقل ملاءمة .

ان نفس النقد الذي وجهناه لنظرية فيرنون يمكن ان يوجه ايضا الى افكار دي بيرنو والذي يتلخص بانه يمكن ان يؤدي الى تحسن مطلق في وضع البلدان المتخلفة ولكن نسبيا فان هذه البلدان تبقى في ادنى درجات نظام الانتاج العالمي الذي يبقى مسيطرا عليه من قبل البلدان المتقدمة .

ب ـ عالمية الانتاج L'internationalisation de la Production
والتوزيع الجغرافي للنشاطات :

ان انتشار ظاهرة الاستثمارات الاجنبية المباشرة على الصعيد العالمي التي تأخذ شكل استمرارية الانتاج في الوطن الأم صاحب هذه الاستثمارات يجعلنا ان نتجاوز المفهوم العفوي للتوزيع العالمي للنشاطات التي تكلمنا عنه آنفا واستبداله بما يسمى بالتوزيع الجغرافي للنشاطات . والمقصود من ذلك هو ان مكان العملية الانتاجية هو الذي تغير اما مآلها فدائما البلد الذي انطلقت منه هذه الاستثمارات . اذن لا يوجد توزيع عالمي للنشاطات يتم بشكل عفوي ، كما يقول البعض وانما يجب الحديث عن توزيع جغرافي للنشاطات ، اي وكأننا نتكلم عن انتقال هذه النشاطات

داخل الوطن الواحد . سنقوم بتحليل هذه الظاهرة بشيء من التفصيل نظرا للاهمية الكبرى التي تحتلها الآن في العالم الغربي خصوصا عند الاقتصاديين الماركسيين .

ان الهدف الاساسي من دراستنا لظاهرة (عالمية الانتاج L'internationalisation de la Production) هو أولا معرفة مكان البلدان المتخلفة الذي ستحتله على الصعيد العالمي كما يحدده لنا مفهوم عالمية الانتاج وثانيا معرفة فيما اذا كانت آلية التصنيع التي تقدمها لنا هذه الظاهرة بالنسبة للبلدان المتخلفة هو ما تريده هذه البلدان لحل مشاكلها .

قبل كل شيء يجب علينا ان نلاحظ التناقض الموجود بين هذا التحليل والتحليل الذي سبقه والذي يتعلق بديناميكية التقسيم الدولي للعمل .

ان تحليل التقسيم الدولي للعمل يتجاوز هنا تصور التخصص مابين البلدان حسب مبدأ الموجودات من عوامل الانتاج او صيرورة الانتاج ، هذا التجاوز قد قسم بواسطة ادخال مفهوم مراكز القوى .

هذا يعني ان التقسيم الدولي للعمل هو محصلة مراكز القوى ما بين البلدان ، هو حصيلة الوضع الجغرافي والسياسي وليس حصيلة مبدأ المزايا النسبية كما تدعي المدرسة الكلاسيكية .

ان الصراع اذن هو ما بين مراكز قوى موجودة على الصعيد العالمي التي هي وراء انتشار عملية الانتاج الراسمالية خارج حدودها الجغرافية بواسطة توجيه الاستثمارات على الصعيد العالمي ، لتقوم بعملية الانتاج في بلد ثان الا ان مآل الانتاج في نهاية الامر الى السوق المحلية للبلد الراسمالي حيث جاءت منه الاستثمارات .

يمكننا القول اذن بان اعادة توزيع النشاطات او بمعنى آخر التقسيم الدولي للعمل حسب المفهوم الديناميكي الآنف الذكر بين البلدان المتقدمة والبلدان المتخلفة هو مفتعل ـ غير تلقائي ـ ومن اخراج البلدان المتقدمة نفسها لتضمن مجالا حيويا لتشغيل استثماراتها في البلدان المتخلفة . ان الوصول لهذه النتيجة امر طبيعي اذا ما وسعنا مفهوم الانتاج ليتجاوز الحدود الطبيعية لبعض البلدان المتقدمة ولعل الشركات المتعددة الجنسيات (Les Firmes Multi - National) لهي اكبر مثال على ذلك حيث توجد الشركة الام في البلد الراسمالي اما فروعها فتكون في بلدان اخرى تمارس عمليات الانتاج في هذه البلدان ومن ثم تصدر منتجاتها حسب العقود والالتزامات التي تبرمها الشركة الام . وهكذا فان عملية الانتاج بحد ذاتها قد تمت في البلد الآخر ـ غالبا ما يكون بلدا متخلفا ـ الا ان مآل الانتاج نفسه انما يكون الى البلد الراسمالي .

بشكل عام ان البلدان المتخلفة[١] حسب ظاهرة عالمية الانتاج سوف تصبح جزءا مندمجا في نظام الانتاج الذي تفرضه الدول المتقدمة الكبرى. وهكذا فان عدم ثبات عملية الانتاج وتجاوزها الحدود الطبيعية لهذه البلدان كان لها اثر في خلق تخصص جديد للبلدان المتخلفة يتمركز فوق قطاع صناعي مجزأ بما يتلاءم مع خطة الانتاج الموضوعة من قبل البلدان الكبرى حيث تستفيد هذه الاخيرة من اليد العاملة الرخيصة في البلدان المتخلفة . ان هذا التحليل يفسر لنا بعض الشيء كيف ان مفهوم البلدان المتقدمة في استغلال البلدان المتخلفة قد تطور حسب الزمان وحسب القوى المنتجة في كلا المجموعتين من البلدان . فاذا كان التقسيم الدولي للعمل بمفهومه التقليدي اداة في يد البلدان المتقدمة تمكنها من استغلال البلدان المتخلفة في مواردها الطبيعية فان التقسيم الدولي للعمل بمفهومه الديناميكي القائم على اساس اعادة توزيع النشاطات بين مختلف بلدان العالم هو اداة تملكها الدول المتقدمة لتتمكن اليوم بواسطتها من استغلال

الدول المتخلفة في مواردها الطبيعية بالاضافة الى مواردها من اليد العاملة .

ان هذه النظرة وان كانت تشاؤمية الى حد ما لانها تعتبر التصنيع في البلدان المتخلفة حسب هذه الآلية بعيدا كل البعد عن خلق الاستقلال الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلدان ، الا انها امر واقع تعيشه الغالبية العظمى من هذه البلدان التي التزمت بصناعات اكثرها تجميعية ذات تأثير محدود في خلق قطاع صناعي حركي قادر على احداث تغيير هيكلي في بنية اقتصاديات البلدان المتخلفة .

في بعض الحالات نستطيع اليوم ان نلمس تحسنا نسبيا في التركيب الهيكلي لصادرات بعض البلدان المتخلفة لصالح ارتفاع حصة السلع المصنعة في مجمل هذه الصادرات . الا ان هذا يجب ان لا يمر بدون حذر وتحليل لهذه الظاهرة . ان ارتفاع نصيب الصادرات من السلع الصناعية في غالبيته العظمى جاء نتيجة لنشاطات الفروع الانتاجية والتجارية للشركات المتعددة الجنسيات التي تمارس اعمالها داخل هذه البلدان .

ان الاحصائيات المتوفرة لدينا عن النشاطات التجارية لفروع الشركات الامريكية المتعددة الجنسيات الموجودة في امريكا اللاتينية تشير الى ان ٤٠٪ من صادرات هذه الاخيرة من السلع الصناعية في عام ١٩٦٨ قد تمت بواسطة فروع الشركات الامريكية ولصالحها .

النتيجة النهائية التي يمكننا ان نحصل عليها هي ان تصنيع البلدان المتخلفة بقدر ما هو امر ضروري ومحتوم لكسر حلقة التخلف التي تعيشها هذه البلدان بقدر ما هو امر حساس ودقيق ، على هذه البلدان ان تفهم مضمونه وابعاده . ان البلدان المتقدمة لا يمكن ان تساعد البلدان

المتخلفة في بناء قاعدتها الصناعية بدون حدود ، ان ما يهمها أولا وأخيرا هو ضمان مصالحها الاقتصادية في هذه البلدان وان يكون ربحها اكبر بكثير من خسارتها . اننا لانقصد ابدا اهمال دور البلدان المتقدمة في هذا المجال ، على العكس فللبلدان المتقدمة دورها الذي يجب ان تلعبه في تصنيع البلدان المتخلفة ولكن في حدود طريق التصنيع الذي تختاره البلدان المتخلفة بنفسها والذي يجب ان يتناسب مع خلق هوية مستقلة لها

* * *

أهميّة المعطيات الإحصائية في التخطيط لمساهمة المرأة في التنمية الإقتصادية

الدكتورة أمل كابوس

مقدمة :

ان الاستفادة القصوى والمثلى من الموارد البشرية هدف من اهداف جميع الدول في بناء اقتصادها ، اذ وعى الجميع ما للعنصر البشري من اهمية قصوى في الانتاج والتنمية والتطور . وبما ان المجتمع طائر ذو جناحين : المراة والرجل فان التنمية تعتمد بالتالي على تطوير ودمج واسهام كل من الجنسين رجالا ونساء في هذه التنمية واهمال احدهما يعني بكل تاكيد انه هنالك هدر للموارد البشرية او على الاقل عدم استفادة مثلى منها .

وقد برهنت تجارب جميع الدول ان التنمية الاقتصادية والاجتماعية لا تتحقق ما لم يخطط لها ، كما ان التخطيط الاقتصادي الفعال في اي مجال من المجالات لايتحقق ما لم تتوفر للمخططين المعلومات والمعطيات الاحصائية الاساسية التي تعطيهم مسحا كاملا للفئة المدروسة تصور لهم واقع هذه الفئة واحتياجاتها وامكاناتها والموارد المتاحة كي يتمكن هؤلاء المخططون من أن يوجهوا هـذه الامكانات والموارد في الطريق الافضـل والامثل .

قبل ان ننطلق في معالجة اهمية المعطيات الاحصائية في تصوير واقع المراة في منطقة الدول العربية وخاصة سوريا وكيف يمكننا ان نخطط لمساهمتها في التنمية والتطور والنمو انطلاقا من الواقع يتوجب علينـا توضيح بعض النقاط المهملة :

اولا ـ هدف التخطيط : المراة

في كل عملية تخطيطية يجب تحديد الهدف بكل دقة وهدفنا هنا هو التخطيط لمساهمة المراة في التنمية الاقتصادية ، بمعنى آخر ان اهتمامنا سينصب على دور المراة . وقضية المراة هذه هي بالحقيقة قضية نصف المجتمع من الناحيـة الكمية اذ ان نسبة الذكور الى الاناث قريبـة من التسـاوي في كل المجتمعات ، وهي في نفس الوقت قضية المجتمع كله من الناحية الكيفية ، اذ ان مساهمة المراة الفعالة في المجتمع انما تضيف موردا بشريا هاما لمواجهة تحديات التقدم والتطور والنمو ، ومن ثم فان الايمان بضرورة تمكين المراة من الاسهام في حياة مجتمعها عطاء واخذا ، قد استقر كضرورة من ضرورات التنمية هدفا ووسيلة وقد اصبح من شبه المسلمات لدرجة انه تولدت لدى الجميع شبه قناعـة بأن للمراة دورا اجتماعيا وانسـانيا وتربويا واقتصاديا عليها ان تؤديه وعلينا ان نخطط له .

لكن الخلاف ينشأ عندما ننتقل الى كيفية تادية هـذا الدور والى الاتجاه الذي يجب ان نسلكه في عملية التخطيط هذه .

فالبعض يرى في المراة الام والزوجة التي خلقت لتربية الاطفال والاعتناء بزوجها فقط ولم تخلق للعمل خارج المنزل فهي اقل من الرجل فهما وادراكا ، وان عملها خارج المنزل يمنعها من تأدية وظيفتها الاساسية والى ضعضعة الاسرة وتهليل المجتمع ، وعلينا ان نخطط في هذا الاتجاه اي ان تقوم المراة فقط بدورها كأم وكزوجة .

هذه النظرة الى المراة كانت سببا في ضعضعة مكانة المراة الاجتماعية والى ضعف دورها الاجتماعي والاقتصادي ، وتعود الى اعتبارات تتعلق بالعادات والتقاليد القديمة ، ومن هذا المنطلق فحصول المراة على التعليم يعتبر رفاهية وامتهانها عملا ما خروجا على المجتمع وحصولها على الاكتفاء والاستقلال المادي شيء غير مرغوب فيه ، وتحقيق الذات وتكوين شخصيتها كلام ليس له اي معنى او مدلول .

فريق آخر يركز على كون اهمية الدور الذي تلعبه المراة لا ينبع فقط من كونها اماً ومربية جيل بل من كونها عنصرا فعالا وقادرا على العمل والانتاج ، ويجب علينا ان نفسح لها مجال العمل الانتاجي داخل وخارج المنزل ، علما ان العمل المنزلي الاسري رغم انه في النظريات الحديثة عمل انتاجي (بدون اجر) الا انه غير قادر في جميع الاحوال على امتصاص الايدي العاملة النسائية بالكامل فيتوجب على الفائض من هذه الايدي العاملة الخروج من المنزل للاستفادة من هذه الطاقات غير المستعملة . وقسم كبير من هذا الفريق يركز على أولوية عمل المراة داخل المنزل وتربية الاطفال والجيل والسماح لها في الخروج فقط عند انعتاقها من المسؤوليات وفي حال وجود اسباب اقتصادية مادية تدعو الى ذلك .

الفريق الثالث يذهب الى ابعد من هذا ليطرح فكرة كون المراة والرجل متساويين (لا المساواة الحسابية المطلقة) بل المساواة في الامكانيات والقدرات وخاصة في الحقوق ، وهذا يعني ان المراة تساوي الرجل عقليا وفكريا ، وقادرة على العطاء والعمل والانتاج والابداع ، **علما ان مجالات العمل والابداع قد تكون مختلفة لكل من الرجل والمراة ،**

كما انها تتمتع بالصفات الخلقية والنفسية والفكرية والجسدية التي تؤهلها للمساهمة في جميع الفعاليات الاجتماعية والاقتصادية وتبوؤ المناصب في مختلف المستويات .

وانه من غير المنطق والعدل والحكمة والفائدة الوطنية ابعادها قسراً (مباشرة او غير مباشرة) عن العمل وتخصيصها فقط بالمنزل ، لانه تكون بذلك قد حرمنا المجتمع من عناصر قد تكون مبدعة ومنتجة في ميادين شتى . والمفروض علينا ان نؤمن للمرأة كما للرجل فرص التعليم والحياة والاختيار بدون اي قسر او اكراه (مادي او معنوي ، فكري او اجتماعي ، عام او حتى نفسي) ، وتأمين فرص الاختيار هذه يشعر المرأة كالرجل انها عنصر مسؤول يسعى الى تأمين مستقبله بالشكل الذي يرغب وبالاسلوب الذي يحقق شخصيته وينم عن ذاته ويجعل منه عنصراً مميزاً ، ويجب ان تشعر المرأة ان قوانين وعادات وامكانيات المجتمع توفر وتؤمن لها هذا الاختيار وتساعد في تحقيقه تماماً كالرجل . وهنا يتجلى بوضوح مبدأ المساواة . هذه المسؤولية يترتب عليها بالطبع حقوق وواجبات فعليها ان تعي هذه الحقوق وتسعى الى القيام بواجباتها . بهذا الشكل تأخذ المرأة مكانها الطبيعي (في المنزل والعمل ، كأم وكزوجة ، كصديقة وكأخت ، كزميلة وكشريكة) وتكون قادرة على ان تعكس صورة واضحة للأمة في تقدمها وفي تخلفها ، فالامة التي تكون فيها المرأة عنصراً بشخصية متكاملة نفسياً وعقلياً وثقافياً هي امة متقدمة متطورة ، وعندما يضيق على المرأة وتتخلف يكون ذلك احد المظاهر الواضحة لتخلف الامة وتراجعها نساء ورجالاً اذ من غير الممكن اذا كان نصف اعضاء المجتمع غير مكتملي الشخصية والتكوين الفكري والعلمي ان يكون المجتمع سليماً ، لان النساء والرجال هم اعضاء لمجتمع واحد .

لذا يجب التركيز بانه عند الدعوة لاسهام المرأة في التنمية النظر للموضوع في اطاره العام الشامل وليس من زاوية اقتصادية بحتة ، فكم من النساء العاملات تهضم حقوقهن ويعطين ازواجهن كامل دخلهن دون

ان يكون لهن حتى حق ابداء الراي . وبرامج التنمية يجب ان تتضمن برامج تغيير البنية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والاعلامية لتحتل المراة مكانتها وتنال حقوقها (قانونيا ــ ثقافيا ــ عمليا ــ اعلاميا ــ نضاليا) ولتشعر هي بنفسها ان هذا ليس عطاء من المجتمع او من الذي حولها بل هو اساس وجودها كفرد من افراد المجتمع وككائن حي كامل الاهلية والحقوق وان هذا يحقق خير المجتمع كله لا النساء فحسب .

ثانيا ــ اهمية التخطيط وادواته (البحث العلمي ــ المعطيات الاحصائية) :

يتجلى بوضوح من الآراء السابقة المتباينة ان مساهمة المراة في التنمية لا يتم وسوف لن يتم بالشكل العفوي ، كما انه لا يواكب تطور المجتمع بشكل طبيعي بل له مقوماته الخاصة واوضاعه المختلفة . واذا افترضنا جدلا ان المجتمع قد تقبل طوعا فكرة خروج المراة الى العمل ومشاركتها مشاركة فعالة في التنمية وبناء مجتمعها ، فهل يمكن أن يتم ذلك بين ليلة وضحاها ؟ كلا ان ذلك يحتاج الى اتخاذ كثير من الاجراءات والى تحديد السياسات المختلفة في جميع المجالات والاستراتيجيات ، انه بكلمة مختصرة يحتاج الى تخطيط قصير ومتوسط وطويل الاجل . وان فترة الانتقال (انتقال المراة من وضعها التقليدي الى امراة مسؤولة عاملة) هي فترة انتقالية صعبة جدا تحتاج الى تدابير خاصة اذ يجب ان لا يغرب عن بالنا بان الاسرة تبقى الخلية الاولى والمهمة في اي مجتمع سليم وان بناءها المتكامل هو الاساس في صرح البناء المتين للمجتمع بكامله ، كما ان الاطفال هم نواة المجتمع وجيل المستقبل فلا يجوز ان يكونوا هم الضحية ايضا لتغيير مفاجىء في المجتمع فالتنمية هدفها الاول والاخير : الانسان وتحقيق سعادته (رجلا او امراة ، طفلا او شيخا ، ابيض او اسود) .

من هذا المنطلق فالتخطيط لاسهام المراة في التنمية الاقتصادية التي هي جزء من كل ، في التنمية العامة الشاملة : اجتماعية ، ثقافية ، ...الخ، يتم برسم السياسات التي تعتمد على المنطق السليم والبحث العلمي .

آ ـ البحث العلمي :

كان البحث العلمي فيما مضى أكثر ما يهتم بالعلاقات السببية لدراسة الواقع وملاحظته ، أما الآن فان اهتمام الباحث الحقيقي العلمي ينصب على نواح أخرى غير السببية ، اذ أصبح الهدف الرئيسي له الحصول على علاقات تربط الظواهر الطبيعية الملاحظة وغيرها ببعضها البعض .

ومهما تعددت أساليب البحث فلا يمكن ان يسمى البحث علميا الا اذا سار تبعا لمراحل معينة متميزة صراحة او ضمنا . وهذه المراحل تكاد لا تختلف في شيء عن المراحل التي يتبعها الشخص العادي في تفكيره عندما تصادفه مشكلة من مشاكل الحياة اليومية . اذ يمكن تلخيصها كما يلي :

١ ـ الشعور بوجود مشكلة او مجال يحتاج الى دراسة او بحث .

٢ ـ تحديد اطار الدراسة او البحث .

٣ ـ وضع فرضيات معينة تتعلق بهذه الدراسة .

٤ ـ جمع المعطيات الاحصائية وترتيبها وتصنيفها وعرضها بشكل تسهل الافادة منها .

٥ ـ تفسير المعطيات الاحصائية واستخلاص النتائج وتعميمها اذا امكن التعميم بعد اختبار دقتها وجودتها لننطلق منها الى التنبؤ بالمستقبل والتخطيط له .

كما نلاحظ انه بعد تحديد المشكلة واطارها بشكل دقيق فان المعطيات الاحصائية تعتبر من ادوات البحث العلمي ومن مستلزماته الأساسية اي اننا نسعى عن طريق جمع الادلة والبيانات الى ترجمة المشكلة الغامضة الى ارقام والاعتماد على التعبيرات الكمية بدلا من التعبيرات الكيفية .

فمثلا رسم سياسة تعليمية للمرأة من حيث توفر المدارس اللازمة وعدد المدرسين فيها يعتمد على بيانات وارقام توضح عدد التلميذات المحتاجات لكل نوع من انواع التعليم في كل منطقة من المناطق . وبدون هذه المعطيات الاحصائية نجد انفسنا نتصرف دون هدى او ارشاد ، فنكثر من المدارس في جهة لاتحتاج اليها بينما تقلل منها في جهة اخرى هي في مسيس الحاجة اليها ؛ او ننشيء معاهد لنوع معين من التعليم في منطقة تحتاج الى نوع اخر من المعاهد . وفي الميادين الصحية نجد انه لايمكننا توزيع خدمات صحية تهتم بالامومة والطفولة مثلا توزيعا سليما يؤدي الى الدرجة القصوى من الاستفادة الا بناء على معطيات احصائية عن عدد النساء المتزوجات ودرجة الخصوبة ومدى انتشار الامراض . وفي الميادين الاجتماعية نجد انفسنا امام ظواهر معقدة متشابكة كالزواج والطلاق والتكاثر . ولدراسة هذه الظواهر نحتاج الى مقاييس رقمية تبين مدى انتشارها في المجتمع ومدى تأثيرها وتأثرها بالعوامل الاخرى وبدون هذه المقاييس يستحيل علينا تفهم اوضاع المرأة على حقيقتها ويصعب جدا بالتالي اعداد خطة سليمة للاصلاح حينما تدعو الحاجة اليها .

ولكي نصل الى مانريده من ارقام ومقاييس كمية وحقائق علمية نجد انه يلزمنا عادة اجراء ثلاث عمليات متشابكة وهي :

١ ـ جمع البيانات الاولية اللازمة اي جمع الاحصاءات من :

١) مصادرها الاساسية (ميدانيا) .

٢) من مصادرها الثانوية .

عرض الاحصاءات :

١) عرض ضمن الكتابة .

٢) عرض جدولي .

٣) عرض بياني .

٣ ـ تحليل الاحصاءات لحساب :

١) النسب والمعدلات .
٢) القيم المركزية (المتوسطات) .
٣) قيم التشتت وعلاقات الارتباط بين المتغيرات .

٤ ـ تفسير الاحصاءات واستنباط التقديرات والتنبوآت .
وتدعى هذه الطريقة في العمل بالطريقة الاحصائية ، ويمكن تعريفهاكالتالي:

« الطريقة الاحصائية هي احدى طرق وصف ومقارنة المجموعات والظواهر المتغيرة واثبات الحقائق العلمية المتصلة بها ، شأنها في ذلك شان اية طريقة من طرق الاستنتاج المنطقي كالطريقة التجريبية مثلا غير انها تختلف عن طرق الاثبات الاخرى في انها تعتمد اعتمادا كليا على التعبير الرقمي عن الظواهر » .

ويمكن القول ان اي باحث اجتماعي احصائي اقتصادي يستخدم الطريقة الاحصائية كاحدى طرق الاثبات العلمي لاينتهي بجمع البيانات بل بالعكس ان عمله يبتدىء بجمع البيانات ولاينتهي الا بعد ان يقوم بتنقيح هذه البيانات وتحقيق الهدف من جمعها فالبيانات الاحصائية (او ايضا المعطيات الاحصائية) للباحث العلمي هي بمثابة المواد الاولية لاية عملية انتاجية لايستطيع الصانع ان يستفيد من هذه المواد مالم يحولها الى سلع صالحة قابلة للاستعمال وقادرة على اشباع حاجات معينة في الانسان.

ب ـ حدود المعطيات الاحصائية واستعمالاتها السيئة :

كما ان المواد الاولية تختلف في جودتها فتختلف قيمة السلع المنتجة منها تبعا لذلك فان المعطيات الاحصائية تختلف ايضا في دقة تمثيلها للظواهر الموضوعة تحت البحث وتختلف تبعا لذلك قيمة النتائج التي نحصل عليها منها ومهما بلغت هذه المواد الاولية من الجودة فانه لايمكن

استعمالها مالم نحولها الى اشكال مختلفة عن شكلها الاصلي لتصبح صالحة للاستعمال واشباع الحاجات وبالمثل فان المعطيات الاحصائية لاتستطيع ابراز اية حقيقة علمية مالم نجر عليها التحويلات اللازمة وتعيين الحدود المنطقية التي تجيز لنا استنتاج الآراء والعلاقات المناسبة .

فالمعطيات الاحصائية لايمكن ان تتعدى حدود امكانياتها فهي ليست بالوسيلة التي تستطيع ان تعطينا البرهان القاطع لكل الظواهر كما ان التفسير الناتج عن هذه المعطيات لايمكن ان يتعدى حدود المعطيات المعدية . قد يكون التعبير الرقمي عن هذه الظواهر من اقوى وسائل الاقناع والاثبات لان منطق الارقام بصورة عامة منطق موضوعي مستقل عن الاعتقاد او الميل الفردي ، غير انه قد يكون ايضا من اشد وسائل التضليل اذا اسيء استعماله . ومع الاسف فان سوء استعمال المعطيات الاحصائية شائع لدرجة تدعو الى الاسف ، لاسيما وانه قلما نجد بحثا اجتماعيا او اقتصاديا او سياسيا او طبيا يخلو منها ، ويرجع ذلك الى عدم فهم طبيعة الطرق الاحصائية او الى معرفة القليل المضلل عنها .

ان طرق الاحصاء هي بمثابة الادوات والالات للصانع . وهل ننتظر من الصانع ان يؤدي عملا منتجا الا اذا فهم طبيعة الادوات والالات التي يستخدمها ويجب ان لايغيب عن ذهننا ايضا ان كل طريقة او اداة مهما كانت فعالة وقوية ، لابد لمن يستعملها ان يستعمل الى جانبها الدقة والحكمة والحس السليم كي يصل الى الهدف ويحقق الغاية من استعمال تلك الطريقة ، لذلك يجب على الاحصائي ان يتسلح الى جانب معرفته بالادوات الاحصائية بحس سليم وتفهم صحيح لواقع المشكلة التي يريد دراستها ، اذ انه غالبا مايتعرض لخطر الاكثار والمغالاة في جمع المعلومات الاحصائية والى خطر الانغمار في المجالات الفنية للاصول والمبادىء الاحصائية واعطائها الاولية في البحث .

ولعل من اخطر وسائل التضليل هو محاولة التوصل الى نتائج علمية من واقع البيانات الاولية مباشرة كما لو حاول الصانع تقديم المواد الاولية

للمستهلك في شكلها الاصلي . ومع هذا فكثيرا مانجد مثل تلك الاحصاءات في الابحاث .

الجدول رقم ١

توزع اناث القطر العربي السوري حسب الريف والحضر وفئات السن بالالاف

فئات السن / العام	تقدير ١٩٧٥		تقدير ١٩٧٨	
	ريفيات	حضريات	ريفيات	حضريات
٠٠ – ١٤	٩٤٤	٧٩٤	١٠٠٣	٨٩٤
١٥ – ١٨	١٥٠	١٢٦	٢١٠	١٨٦
١٩ – ٤٤	٥٧٩	٤٨٧	٦٧٠	٥٩٧
٤٥ – ٥٩	١٤٤	١٢١	١٨٥	١٦٥
٦٠ فاكثر	١٢٩	١٠٩	١٠٩	٩٧
المجموع	١٩٤٦	١٦٣٧	٢١٧٧	١٩٣٩

فتقديم هذه الارقام على علاتها دون تحليلها باية طريقة احصائية والاستنتاج منها ، انه نظرا لكون العمر القانوني للعمل هو ١٩ – ٦٠ سنة فمجموع القوة العاملة المتاحة للاناث هو ٨٥٥٠٠٠ انثى في الريف ٧٦٢٠٠٠ انثى في المدينة ، وبما ان المراة تعمل في بلدنا بشكل منتج في الحقل ، فلا يمكننا اعتبار الريفيات في سن العمل عاطلات عن العمل مهما كانت نتيجة التعداد الاحصائي ، هذا الاستنتاج قد يكون مضللا في بعض الاحيان حسب اعتقادنا .

هنالك امثلة اخرى يمكن ان تدل على سوء استعمال المعطيات الاحصائية غير انه يكفي ان نشير هنا في ايجاز الى اهم الاخطاء الشائعة في هذا المجال :

١ ـ التحيز : يقول الاستاذ يول (١) « انه قلما يخلو انسان من الميل الطبيعي نحوالتحيزفي صوره المختلفة في اختيار البيانات الاحصائية وان هذه الصفة الانسانية متأصلة الى درجة تجعل من المستحيل التغلب عليها حتى بالمران او الحذر الشديد .

٢ ـ استعمال بيانات غير كافية او اغفال بعض العناصر المهمة في الظاهرة المدروسة : فمثلا لايمكننا تحديد معدلات التسجيل في المدارس الابتدائية أستنادا الى نشرات المدارس الرسمية فقط فيما اذا كان هنالك قطاع خاص ضخم للتعليم الابتدائي ...

٣ ـ عمل مقارنة بين بيانات لايصح المقارنة بينها نتيجة وجود اختلاف اما في التعاريف المستعملة او في التركيب الهيكلي . مثلا : مفهوم العاطل عن العمل يختلف من بلد الى اخر .

لمقارنة معدلات الوفيات يتوجب دوما توحيد التركيب العمري للسكان والا لكانت النتائج خاطئة .

ويمكننا ان نختتم هذه الفقرة بالقول بان جميع الاحصاءات مع منتهى حسن النية تتضمن دائما اخطاء ، وبعض الاخطاء مثل التي تنتج عن التقريب تكون عادة غير هامة . اما الاخطاء التي تكون نتيجة المشاهدة الخاطئة او التسجيل الخاطىء او ايضا التفسير الخاطىء فقد تكون خطيرة وينبغي بالتأكيد تجنبها او تصحيحها ماامكن ذلك . ولكن مهما

(١) يول وكندل : مقدمة لنظرية الاحصاء ص ٢٣٧ .

كانت الاخطاء التي قد تظهر في الاحصاءات فانها تبقى اداة قوية ومقنعة واقل تحيزا من غيرها من الوسائل ، وكل طريقة علمية مهما بلغت من الدقة والموضوعية قابلة للتعرض لنفس الاخطاء . لذلك يجب عدم الخوف من استعمال المعطيات الاحصائية بسبب الخشية من الاخطاء ، فالاحصاء يحتل مكان الصدارة في تطور ونمو كثير من العلوم والمعلومات الاحصائية تبقى الدعامة في النظريات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة والاساس في السياسات والعمليات الاقتصادية الاجتماعية ، واستعمالها يبدو الزاميا لمن يريد تحليل وتفسير العلوم الانسانية الاجتماعية الاقتصادية لانها تحقق وظيفتان هامتان : وظيفة تصويرية ــ وظيفة تحليلية .

ثالثا ــ وظائف الاحصاء :

وظيفة تصويرية : وتتحقق هذه الوظيفة عن طريق الدراسات التي تسعى الى تصوير بعض الظواهر في مجموعة من الافراد عن طريق ايجاد مقاييس تكون في مجموعها صورة لهذه الظواهر .

ومن امثلة هذا النوع تعدادات السكان التي تعطينا صورة معينة لحالة المجتمع في لحظة معينة . احدى هذه الصور تبين لنا الحالة الزواجية في المجتمع بواسطة مجموعة من الارقام اولها يبين عدد المتزوجين والثاني يبين عدد المطلقين والثالث يبين عدد الارامل ... الخ . ويمكننا تحديد صورة ارى للمجتمع تبين حالته العلمية عن طريق مجموعة اخرى من الارقام ..... وهكذا ...

وقد سميت هذه الوظيفة بالتصويرية لانها كالتصوير الضوئي تسعى الى تصوير الوضع الراهن من عدة جوانب .

وظيفة تحليلية : تتحقق هذه الوظيفة عن طريق البحوث التي تدرس تأثير عدة مؤثرات وتحلل اسباب ظواهر معينة ودراسة العلاقة بين مجموعة من الظواهر . كان ندرس مثلا اثر تعليم المراة على معدلات الخصوبة او دراسة اسباب الطلاق .

وغني عن البيان ان هذين النوعين من البحوث (بحوث تصويرية ــ بحوث تحليلة) غير مستقلين عن بعضهما، فالبحوث التصويرية انما تهدف في الواقع الى اعداد البيانات وتحديد العمليات الاحصائية حتى يتمكن الباحثون من استخدامها في بحوثهم التحليلية . والبحوث التحليلية اما ان تتكون من عملية جمع البيانات ثم تحليلها واما ان تعتمد على بيانات ومعطيات احصائية سبق اجراؤها .

رابعا ــ دور الاحصاء في مجال التخطيط لاسهام المراة في التنمية :

آ ــ تصوير الواقع :

بينا فيما سبق كيف يمكن للمعطيات الاحصائية ان تصور واقع اية ظاهرة اقتصادية او اجتماعية واننا سنحاول في هذه الفقرة ان نطبق عمليا الطريقة الاحصائية في تصوير واقع المراة لان تصوير هذا الواقع اساسي في تخطيط المستقبل ، وان امثلتنا العملية ستكون مستقاة اكثر ما يمكن من الواقع العربي السوري بالاضافة الى بعض الامثلة الاخرى من بعض الدول العربية .

١ ــ واقع المراة كعنصر بشري

ان اهم صفة من صفات اي مجتمع احصائي سكاني هو تقارب الجنسين ولو ظهرت بعض الاضطرابات في بعض الفئات العمرية ،فالتعادل هو سمة لاستمرارية المجتمعات الانسانية واستقرارها . والجدولان رقم ٢ و ٣ يبنيان التركيب العمري لسكان سورية في سنوات متعددة .

الجدول رقم ٢

عدد سكان القطر العربي السوري حسب الجنس
ولفئات السن
١٩٦٠ - ١٩٨٠

فئات السن	١٩٦٠		١٩٧٠		تقدير ١٩٨٠	
	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث
٠ - ٤	٤٦٤٨٢٨	٤٣٥٣٨٠	٦١٤١١٥	٥٧٥٤٢٤	٨٥٧٣٨٠	٨١٥٩٩٨
٥ - ٩	٣٧٧٧٢٦	٣٣٨٧٠٥	٥٥٩٠٢٤	٥١٦٦٦٠	٦١٧٤٦٨	٥٨٩٩٤٣
١٠-١٤	٣٧٠٧٢٢	٣٤٥١٦٢	٤٤٣٠٦٣	٣٩٧٨٣٤	٥٦٩٧٨٥	٥٤٢٥٦٠
١٥-١٩	١٩٠٦٩٧	١٨٨٩١٦	٣٠٧٠٧٥	٢٩٥٣٦٣	٥٣٨٣٠٩	٥٠٣٢١١
٢٠-٢٤	١٦٥٦٤٢	١٧١٣٧٦	٢٣٩٠٩٥	٢٢١٨٧٣	٤٢١٦٥٦	٣٩٠١٥٩
٢٥-٢٩	١٥٥٠٢٩	١٢٠٠٩٣	١٦٨٥٧٧	١٨٣٠١٣	٣٠٣٤٩١	٢٨٤٠٠٥
٣٠-٣٤	١٤٦٣١١	١٣٤١٨٩	١٥٥٩٠٨	١٦٦٧٢٩	٢٢٣١١٢	٢١٠١٥١
٣٥-٣٩	١٢٤٣٣٩	١١٧٦٠٢	١٥٨٣٥٠	١٥٨٩٧٠	١٧٤١٤٨	١٦٦٤٤٥
٤٠-٤٤	٨٨٩٣٤	٧٨٩٢٩	١٣٨٤٠٢	١٢٥١٤٣	١٥٥٥٣٥	١٥٠٢٣٣
٤٥-٤٩	٧٩٠٠٢	٧٠٢١٧	١٠٧٢٣٤	٩٦٥٣٦	١٤٦٣٩٣	١٤٣٥٧١
٥٠-٥٤	٦٤٤٥٨	٧٦٤٩٤	٧٨٦٦١	٧٤٦٦٦	١٢١٩٢٥	١٢١٧٧٦
٥٥-٥٩	٤٨٩٤٨	٤٥٩٨٨	٦١٥٨٣	٥٦٠٥٤	٩٠٣٨٦	٩٣١٨٣
٦٠-٦٤	٥٥٤٦٣	٦٣٥٠٤	٦٣٤٦١	٦٥٩١٧	٦٣٣١٧	٦٦٠٤١
٦٥-٦٩	٣٥٦٨٤	٣٠٣٧١	٤٢٥٣٨	٤٢٧٣٥	٤٧٩٣١	٥١٤٠٩
٧٠-٧٤	٣٣٧٩٨	٣٥١١٤	٤٢٧٠٨	٤٢٨٥٣	٣٨٣٠٣	٤١٦٥٥
٧٥ فأكثر	٤٣٦٤٣	٣٩٥١٨	٥٣٣١٧	٥١٨٠٦	٣٩٨٩٣	٤٣٩٢٤
المجموع	٢٣٤٤٢٢٤	٢٢٢٠٨٩٧	٣٢٣٣١١٠	٣٠٧١٥٧٥	٤٤٠٨٩٨٠	٤٢١٤٠٦٤
نسبة الذكور الى الاناث*	١٠٥،٥٥	١٠٠	١٠٥،٢٦	١٠٠	١٠٤،٦٢	١٠٠

المصدر : المجموعات الاحصائية السورية

* محسوبة من قبل الباحث

الجدول رقم ٣

التركيب العمري النسبي في القطر العربي السوري
حسب الجنس للاعوام ١٩٦٠-١٩٧٠-١٩٨٠

نسب مئوية - نسبة الاعالة مرتفعة

فئات السن	١٩٦٠ ذكور	١٩٦٠ اناث	١٩٧٠ ذكور	١٩٧٠ اناث	تقدير ١٩٨٠ ذكور	تقدير ١٩٨٠ اناث
٠ - ٤	١٦ر٨	١٦ر١	١٦ر٠	١٨ر٧	١٩ر٥	١٩ر٤
٥ - ٩	١٦ر١	١٤ر٨	١٧ر٣	١٦ر٨	١٤	١٤ر٠
١٠ - ١٤	١١ر٥	١١ر٠	١٢ر٧	١٣ر٠	١٣ر٠	١٢ر٩
المجموع	٤٧ر٢	٤٤ر٩	٥٠ر٠	٤٨ر٥	٤٦ر٥	٤٦ر٣
١٥ - ١٩	٨ر١	٨ر٥	٩ر٥	٩ر٦	١٢ر٢	١١ر٩
٢٠ - ٢٤	٧ر١	٧ر٧	٧ر٤	٧ر٢	٩ر٦	٩ر٣
٢٥ - ٢٩	٦ر١	٧ر٧	٥ر٣	٦ر٠	٦ر٩	٦ر٧
٣٠ - ٣٤	٦ر٢	٦ر٠	٤ر٨	٤ر٨	٥ر٠	٥ر٠
٣٥ - ٣٩	٥ر٣	٥ر٣	٤ر٩	٥ر٢	٤ر٠	٣ر٩
٤٠ - ٤٤	٣ر٨	٣ر٦	٤ر٣	٤ر١	٣ر٥	٣ر٦
المجموع	٣٧ر١	٣٨ر٨	٣٦ر١	٣٧ر٥	٤١ر٢	٤٠ر٤
٤٥ - ٤٩	٣ر٤	٣ر٢	٣ر٣	٣ر١	٣ر٣	٣ر٤
٥٠ - ٥٤	٣ر٨	٣ر٤	٢ر٤	٢ر٤	٢ر٨	٣ر٦
٥٥ - ٥٩	٣ر١	٣ر١	١ر٩	١ر٨	٢ر٠	٢ر٢
٦٠ - ٦٤	٢ر٤	٢ر٨	٢ر٠	٢ر٢	١ر٤	١ر٦
المجموع	١٠ر٧	١١ر٥	٩ر٦	٩ر٥	٩ر٥	١٠ر١
٦٥ - ٦٩	١ر٥	١ر٤	١ر٢	١ر٤	١ر٠	١ر٢
٧٠ - ٧٤	١ر٤	١ر٦	١ر٢	١ر٤	٠ر٩	١ر٠
٧٥ فأكثر	١ر٩	١ر٨	١ر٧	١ر٧	٠ر٩	١ر٠
المجموع	٤ر٨	٤ر٨	٤ر٣	٤ر٥	٢ر٨	٣ر٢
المجموع العام	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

المصدر : المرأة العاملة في سوريا رسالة لنيل دبلوم معهد التخطيط للتنمية الاجتماعية والاقتصادية في سوريا ١٩٧٥ - ١٩٧٦

الجدولان رقم ٢ و٣ يشيران الى الحقائق التالية :

١ – ان نسبة الذكور الى الاناث في المجتمع العربي السوري هي تقريبا ١٠٥ بمعنى ان كل /١٠٥/ من الذكور يقابلهم /١٠٠/ انثى ، وهذا يعني ان هنالك تقاربا في اعداد الذكور والاناث .

٢ – ان الفئة العمرية القادرة على العمل اي بين العمر ١٥ – ٦٤ سنة تتميز بارتفاع نسبة الاناث عن الذكور حسب تعدادي ١٩٦٠ و١٩٧٠ حيث بلغت على التوالي ٤٧ر٨ للذكور – ٥٠ر٣ للاناث – و٤٥ر٧ للذكور و٤٧ر٣ للاناث بينما تساوت هذه النسبة حسب اسقاطات عام ١٩٨٠ اذ بلغت ٥٠ر٧ للذكور و٥٠ر٥ للاناث – وهذا يعني ان نصف قوة العمل مؤلفة من النساء .

٣ – ان المجتمع العربي السوري يتميز ببنية سكانية فتية اذ بلغت نسبة الفئة العمرية ٠ – ١٤ سنوات حوالي نصف مجموع السكان ، وهذا يعني ان معدلات الاعالة مرتفعة جدا .

هذه الحقائق تدفعنا الى القول بانه اذا لم يكن هنالك سياسة حكيمة تزج بالطاقات النسائية في العمل فسوف يكون هنالك هدر قوة بشرية لا يستهان بها . ويعتبر هدر القوى الانسانية من أسوأ انواع الهدر الاقتصادي .

٢ – واقع المرأة في التعليم :

ان أهم مظهر من مظاهر رقي الامم وتقدمها في البلدان النامية هو مستوى التعليم عامة (ذكرا وانثى) ومستوى تعليم المرأة خاصة . وان آثار التعليم المباشرة وغير المباشرة غير قابلة للحصر . فبالعلم ترتفع الامم، وبالعلم يتسامى الانسان ويرقى ، وان المردود المادي للعلم يتبلور في زيادة الانتاجية والابداع في العمل ، والابتكار ومع هذا فانه لايضاهي مردوده الاجتماعي والمعنوي بخلق اجيال واعية ذات فكر نير خلاق وتفكير منطقي

وعلمي . فما هو اذن وضع المرأة اذا حرمت من هذا السلاح البناء ، وكيف يمكن لها ان تعمل وتنتج مالم تؤمن لها هذا الشرط اللازم لاثبات ذاتها .

وللاسف ان واقع المرأة في التعليم في غالبية الدول العربية لواقع اليم رغم الجهود الجبارة التي تقوم بها معظم هذه الدول في هذا المجال . واليكم بعض الارقام التي تظهر تأخر المرأة عن الرجل في مجال التعليم في سوريا التي تعتبر من اوائل الدول التي تسعى الى تعليم المرأة .

الجدول رقم (٤)

جدول يبين مستوى التعليم الى مجموع السكان عام ١٩٧٠ في سوريا

الجنس / المستوى التعليمي	اناث		ذكور	
	العدد	النسبة٪	العدد	النسبة٪
امي	١٤٤٩٠٨٩	٧٣ر٢	٧٠٩٠٩٨	٣٤ر٤
ملم	٢٩٧٧٣٢	٢٦ر٨	٧١٢٩٦٦	٣٤ر٦
ابتدائي	١٥٣٨٠٧	٧ر٨	٣٧٦٧٤٣	١٨ر٣
اعدادي وثانوي	٦٥٩٢٥	٣ر٣	١٩٩١٩١	٩ر٧
تعليم عالي*	١٢٩٣٨	٠ر٧	٦١٩٧٠	٣ر٠
المجموع**	١٩٧٩٤٩٢	٪١٠٠	٢٠٥٩٩٧١	٪١٠٠

المصدر : المرأة والتنمية في مجالات التعليم ـ العمل التشريع الخدمات الاتحاد العام النسائي ـ الجمهورية العربية السورية ص٤

* تعليم عالي : قد جرى حسابه من قبل الباحث كعدد متمم للمجموع .

** المجموع : يمثل مجموع السكان / ١٠ / عشرة سنوات فاكثر ، اي اعتبرت اعمار الاميين من سن العاشرة فما فوق .

ان هذا الجدول يعطينا فكرة عن معدلات الامية ويظهر بوضوح ان نسبة الامية لدى النساء تفوق ضعف نسبة الامية لدى الذكور ، وقد يكون من المفيد ان تكمل هذا الجدول ببعض النسب الهامة لمعدلات الامية بين الاناث في الجمهورية العربية السورية لاتمام الصورة الحقيقية لواقع تعليم المراة اذ انه يتعلق بفئات السن من جهة والاقامة من جهة اخرى . فمعدل الامية بين الاناث من الفئة العمرية (١٠ ــ ١٤) بلغ ٥٠ر٨ ٪ ويرتفع في فئة العمر (٢٠ ــ ٢٤) الى ٦٨ر١ ٪ ويصل الى ٨١ر٧ ٪ في فئة العمر (٣٠ ــ ٣٤) والى ٩٠ر٧ ٪ في فئة العمر (٤٥ ــ ٤٩) والى ٩٤ ٪ في فئة العمر (٥٥ ــ ٥٩) . اما معدلات الامية عند اناث الريف فقد بلغت ٨٨ر٣ ٪ في حين أن المعدل عند اناث الحضر لم يتجاوز ٥٣ر٨ ٪ .

وان هذا الواقع في الحقيقة لا تختلف في بقية البلدان العربية عنه في سوريا . والجدول الآتي يعطينا صورة عن هذا الواقع لبعض البلدان العربية :

الجدول رقم ٥

النسبة المئوية للأمية للذكور والاناث لسكان بعض الدول العربية ١٥ سنة فما فوق

البلد	السنة	ذكور	اناث
البحرين	١٩٦٥	٦٣ر٩	٨١ر٨
	١٩٧٥	٤٢ر٠	٦٤ر٦
مصر العربية	١٩٦٦	٥٢ر٠	٧٩ر٠
	١٩٧٥	٤٣ر٢	٧١ر٠
العراق	١٩٦٥	٦٤ر٤	٨٧ر٢
	١٩٧٥	٥٨ر٥	٨٢ر٨
الاردن	١٩٦١	٤٩ر٩	٨٤ر٨
	١٩٧٦	١٩ر٠	٤٥ر٧
الكويت	١٩٧٠	٣٦ر٦	٥٨ر١
	١٩٧٥	٣٢ر٠	٥٢ر٠
لبنان	١٩٧٠	٢٥ر١	٤٧ر٩
	١٩٧٥	٢٠ر٠	٤٤ر٠
سوريا	١٩٦٢	٤٦ر٥	٨٣ر٢
	١٩٧٥	٣٤ر٠	٧٦ر٠
الامارات العربية	١٩٦٨	٧٣ر٠	٩١ر١
	١٩٧٥	٤١ر٦	٨١ر٩

المصادر الاصلية :

1 - United Nations , Demographic Yearbook 1971

2- ECWA , Demographic and Related Socio-Economic Data Sheets for countries of The Economic Comission for Western Asia, Beirut, 1978

هذا النقص في تعليم المرأة يتفاقم في المستويات العليا من التعليم وقلما تتوجه المرأة الى المجالات العلمية والاختصاصات التطبيقية بل تكتفي في اكثر الاحيان بالاختصاصات النظرية وهذه بعض الارقام التي تدعم هذه الحقائق .

الجدول رقم ٦

احصاءات عدد الطلاب في الجامعات

في القطر العربي السوري

ونسبة عدد الاناث فيها

العام الجامعي	مجموع عدد الطلاب	عدد الذكور	عدد الاناث	النسبة
١٩٧٠/١٩٦٩	٣٦٧٦١	٣٠٢٨١	٦٤٨٠	٪١٨
١٩٧٥/١٩٧٤	٦١١٥٦	٤٨٤١٠	١٢٧٤٦	٪٢١
١٩٧٧/١٩٧٦	٧٨٠٦٨	٦٠٦٠٦	١٧٤٦٢	٪٢٢
١٩٧٨/١٩٧٧	٨٥٤٧٤	٦٥٧٢٤	٩٧٥٠	٪٢

المصدر : " المرأة والتنمية " مرجع سابق ص ٢ !

نلاحظ من هذا الجدول ان نسبه الاناث بالنسبة للذكور تبقى منخفضة ولو ان اتجاهها العام في تزايد ، ولكن الحقيقة التي تراد التذكر بها ان تكون نسبة نمو عدد الاناث في الجامعات أعلى من الذكور ويمكننا التحقق من ذلك بحساب الجدول النسبي التالي :

الجدول رقم ٧

تطور عدد الطلاب في الجامعات من سنة الى اخرى

العام الجامعي	عدد الطلاب		عدد الذكور من الطلاب		عدد الاناث من الطلاب	
	المطلق	النسبة المئوية من سنة الى اخرى	المطلق	٪ من سنة الى اخرى	المطلق	٪ من سنة الى اخرى
١٩٧٠/٩٦٩	٣٦٧٦١	—	٣٠٢٨١	—	٦٤٨٠	—
١٩٧٥/١٩٧٤	٦١١٥٦	١٦٦	٤٨٤١٠	١٥٩ر٨٦	١٢٧٤٦	١٩٦ر٧٠
١٩٧٧/٩٧٦	٧٨٠٦٨	١٢٧ر٦٥	٦٠٦٠٦	١٢٥ر١٩	١٧٤٦٢	١٣٧
١٩٧٨/٩٧٧	٨٥٤٧٤	١٠٩ر٤١	٦٥٧٢٤	١٠٨	١٩٧٥٠	١١٣

■ جرى حساب هذا الجدول من قبل الباحث استنادا الى الجدول السابق بتقسيم كل عدد على العدد الذى يسبقه كالتالي : $\frac{٦١١٥٦}{٣٦٧٦١}$ = ١٦٦٪ $\frac{٧٨٠٦٨}{٦١١٥٦}$ = ١٢٧ر٦٥ ٪

نلاحظ من هذا الجدول ان معدل الزيادة من سنة الى اخرى هو اكبر للاناث منه للذكور وهذه ظاهرة جيدة في تعليم المرأة الجامعي رغم كون هذه الزيادة اقل بكثير من المرغوب .

والسؤال الممكن ان نطرحه الآن كيف تتوزع هذه النسبة من الفتيات الجامعيات بين مختلف العلوم والفروع ؟ الجواب لهذا التساؤل معطى في الجدول رقم ٨ .

نموذج عن توزع الطلاب والطالبات

في الاختصاصات المختلفة في جامعات القطر العربي السوري

للعام الدراسي ١٩٧٦/١٩٧٧

اسم الكلية	المجموع	الذكور	الاناث	النسبة
الطب	٥١٧٤	٤٢٣٤	٩٤٠	١٨
الصيدلة	١١٦٩	٠٤٦٦	٧٠٣	٥٩
طب الاسنان	١١٣٨	٠٨٤٥	٢٩٣	٢٦
العلوم	٩٠٤٤	٦٧١٣	٢٣٣١	٢٦
الهندسة	١٠٧٧٣	٩٣٨٠	١٣٩٣	١٣
الهندسة الميكانيكية والكهربائية	٢٢٢٨	٢٠٨٤	١٤٤	٦
الزراعة	٧٢٠٩	٦٢٤٤	٩٦٥	١٣
الفنون الجميلة	٠٦١٨	٠٤١٤	٢٠٤	٣٣
الآداب	٢٢٩٧٥	١٥٥١٧	٧٤٥٨	٣٢
الحقوق	٩٣٢٢	٨١٥٢	١١٧٠	١٣
التجارة	٤٢٦٦	٣٠٦٨	١١٩٨	٢٨
الشريعة	٠٩٨٩	٠٦٨٣	٣٠٦	٣١
التربية	٠٤٤٠	٠٣٢٤	١١٦	٢٦
العلوم الاقتصادية	١٣٢٤	١٠٨٣	٢٤١	١٨
الطب البيطري	١٣٦٦	١٣٦٦	-	٠
المجموع	٧٨٠٦٨	٦٠٦٠٦	١٧٤٦٢	٢٢

المصدر : المرأة والتنمية : مرجع سابق ص ١٣

نلاحظ من هذا الجدول ان هنالك بعض الفروع التي تستهوي المراة اكثر من غيرها،ولاشك ان معرفةهذا التوزع ضروري لتخطيط المستقبل، فـان اقبال المراة على العلـوم الاساسية التطبيقية كالطب والهندسة الميكانيكية والكهربائية والزراعة اقل من غيره رغم اننا قد بدانا نلمس في الآونة الاخيرة تطورا في هذا المجال ، وقد تسعى المراة الى مجالات تتطلب فترة زمنية دراسية اقل وتتماشى مع اكثر اهوائها ونفسيتها كالسكرتارية حيث بلغت النسبة في عام ١٩٧٨/١٩٧٩ للانتساب في معهد السكرتارية بدمشق ٥٦٪ اناث بالنسبة للذكور ، كما ان الاقبال على مدرسة التمريض مرتفع جـدا .

الا ان اقبال المراة على التخصص العالي ضئيل جدا ، واحصاء عدد الموفدين معيار لمدى الاقبال كما نرى في الجدول التالي :

الجدول رقم (٩)

احصاء عدد الموفدين من جامعة دمشق للدراسة العليا خارج القطر

العام	المجموع	ذكور	اناث	النسبة ٪
١٩٧٠	٢٠٣	١٩١	١٢	٦
١٩٧٥	٢٢١	٢٠٤	١٧	٨
١٩٧٧	١٨٨	١٦٨	٢٠	١١

المصدر : **المراة والتنمية** مرجع سابق ص ١٥

مما سبق نستطيع ان نستخلص النتائج التالية :

١ ــ ان معدلات الامية رغم ارتفاعها لدى الذكور والاناث في البلدان العربية ككل ، فان ارتفاع نسبتها في البلدان العربية بالنسبة للاناث هو أعلى بكثير .

٢ ــ ان الاقبال على الدراسات المتخصصة الجامعية والعليا قليل جدا من قبل الاناث بالمقارنة مع الذكور وما يقال عن سوريا ينطبق على البلدان الاخرى العربية اذا لم تقل انه اسوأ .

٣ ــ هنالك اتجاه نحو نمو وتطور التعليم بين الاناث ، وهذا مالمسناه في الجدول رقم (٧) وما نستطيع ان نلمسه من الجدول التالي :

الجدول رقم (١٠)

جدول نسب التسجيل الصافية الاستيعابية
في العامين ١٩٧٠/٩٧١-١٩٧٥/١٩٧٦
في سوريا

الاعوام / المرحلة	١٩٧٠/٩٧١			١٩٧٥/١٩٧٦		
	ذكور %	اناث %	مجموع %	ذكور %	اناث %	مجموع %
الصف الاول	٩١	٦٥	٧٨	٩٤	٧٣	٨٤
المرحلة الابتدائية	٨٥	٥٤	٧٠	٩٠	٦٥	٧٨
المرحلة الاعدادية	٦٥	٢٧	٤٧	٧٥	٣٩	٥٧
المرحلة الثانوية	٣٥	١٢	٢٧	٤٣	٢٠	٣٢

المصدر : المرأة والتنمية مرجع سابق ص ٦ .

المصدر : **المرأة والتنمية** مرجع سابق ص ٦ .

ومع هذا فان التطور غير كاف وذلك بالمقارنة مع التطور في الدول المتقدمة .

٤ ـ لا ضرورة للقيام بدراسة تبين العلاقة الوثيقة الموجودة بين مستويات التعليم وآثاره الايجابية في جميع ميادين الحياة : وسنترك بحث هذه النقاط الى حين معالجتنا اثر التعليم والعلاقة بينه وبين العمل ، الا اننا ننوه هنا فقط الى قصور المعطيات الاحصائية في تبيان الآثار الاجتماعية والفكرية وتغيير العادات الاستهلاكية والاعتماد على الطرق الحديثة في ادارة المنزل وتربية الاطفال وبناء جيل مفكر مبدع الناتجة عن تعليم المرأة وفتح آفاق تفكيرها ، وسنورد فقط الجدول التالي الذي يبين أثر تعليم المرأة على خصوبتها نحن الذين نعاني من نمو سكاني ذي معدلات مرتفعة جداً .

الجدول رقم ١١

متوسط عدد الاولاد المولودين لـ ١٠٠٠ امرأة متزوجة (١٩-٤٩ سنة)
حسب مستويات التعليم لكل من الرجل والمرأة في الاردن

مستوى تعليم الزوج / مستوى تعليم الزوجة	أمي*	ابتدائي	اعدادي	ثانوي	جامعة	المجموع
أمي*	٦٢٠٤ (١١٨٢)	٦١٣٥ (١٤٣١)	٥٨٦١ (٢٣٢)	٥١٤٦ (١٥٨)	٥٢٠٠ (٢٠)	٥٩٦٨ (٢١٣٥)
ابتدائي	٥٢١٤ (١٣٢)	٤٨٦٢ (٦٠٤)	٣٢٩٥ (٢٩١)	٤٠٢٢ (١٨٤)	٣٩٠٣ (٧٢)	٤٤٣١ (١٢٣٩)
اعدادي	٣٨٥٠ (٢٠)	٣٠٠٨ (١٢٦)	٣٠٥٢ (١٤٤)	٢٩٧٦ (١٢٤)	٢٨٤٠ (٩٤)	٣٠١٤ (٥٠٠)
ثانوي	**	٣١٢٥ (٣٢)	٢٥٤٨ (٤٢)	٢٦٤٢ (١٠٢)	٢٤٣٦ (١١٠)	٢٧١٥ (٢٨٨)
جامعة	-	**	**	**	٢٠٠٠ (٢٥)	-
المجموع	٦٠٨٦ (١٣٢٦)	٥٥٦٤ (٢١٩٥)	٣٦٣٢ (٧٧٠)	٢٩٠٦ (٥٧٢)	٣٠٢٤ (٣٥١)	٥١٠٤ (٥٢١٤)

المصدر : Population Bulletin of the United Nations Economic Commission for Western Asia-N° 13 July 1977
Afaf Mech Kandis:"Female Education and Fertility Decline in a Developing Country:the Case of Jourdon .

* تشمل العلم بالقراءة والكتابة .
** مجموعات عدد افرادها أقل من العشرين .
الأعداد داخل الاقواس تمثل عدد الافراد في كل مجموعة (حجم العينة)

٥ ـ لم نناقش التعليم في الريف نظرا لاننا سنفرد للمرأة الريفية فقرة خاصــة .

٣ ـ واقع المرأة في العمل :

للمرأة خصائص اجتماعية وبيولوجية تؤهلها للقيام ببعض الوظائف والتخصص في بعض المجالات التي تنبع بها وتؤدي فيها دورا فعالا لذلك فان عمالة المرأة تعتبر مهمة جدا لتحسين الانتاج ولتسريع وتائر النمو الاقتصادي والاجتماعي والثقافي كما انه يزج في المجتمع طاقات كبيرة من الايدي الغير المنتجة . ومع ذلك فان نسبة قوة العمل النسائية مــن مجموع الاناث في البلدان العربية لا تزال ضعيفة ولم تدخل المرأة بعــد في مجال العمل الذي يلائم خصائصها وطاقاتها ، وهذا التناسب بين الطاقات والخصائص من جهة ونوع العمل من جهة أخرى ضروري جدا اذ ان مطالبة حق العمل للمرأة لا يعني بتاتا زجها بشكل عشوائي في جميع مجالات العمل دون النظر الى امكانياتها وأوضاعها الخاصة وهذا لا يقف ابدا عائقا في مساهمتها ، فالمهندس لايستطيع ان يقوم بعمل القاضي والعكس صحيح فالتخصص وارد فيجميع مجالات الحياة ، الا ان هذا التخصص يتطلب وضع سياسات حكيمة ومخططة لدراسة واقع المرأة في العمل وتطلعاتها ومجالات نبوغها اكثر مايمكن .

وتتجلى اهمية مساهمة المـرأة في البنــاء الاقتصادي والاجتماعي لتحقيق التنمية في :

١ ـ ازدياد الدخـل الوطني وبالتالي زيادة التراكـم الرأسمالي الضروري لانجاح برامج التنمية .

٢ ـ التقليــل الى حد كبير مــن نسبة السكان الذيــن يعيشون كمستهلكين فقط ، اي عالة على المنتجين ، وبذلك تزداد نسبة الرأسمال الموجه الى البناء على حساب الرأسمال المستهلك من الدخل القومي .

٣ ـ رفع انتاجية العمل الاجتماعي وهي الركن الاساسي لتحقيق التنمية وقد تنبهت الى هذه الحقيقة جميع البلدان المتقدمة وزجت بذلك النساء في العمل ، وان الدول النامية تسعى الى زج الطاقة النسائية في العمل المنتج ولكن يجب ان تكرر ان هذا الامر يستلزم بيانات احصائية دقيقة للتعرف على الطاقات البشرية المتوفرة لاستخدامها استخداما صحيحا وبصورة عقلانية دون احداث خلل او عدم توازن في تركيب المجتمع اذ لا نستطيع نقل المراة من المنزل الى العمل دون التخطيط لذلك من عدة جهات :

١ ـ تهيئة المراة عمليا واعلاميا **فالعمل قبل كل شيء مسؤولية** يجب أن يحرر المراة من تبعيتها لكل ماهو بال : عادات قديمة او ايضا ظواهر مغنية حديثة زائفة (السلوك الاستهلاكي غير الواعي ـ التقليد في اللباس والعادات ..... الخ ....) ، ويخلق منها شخصية متكاملة منتجة متميزة قادرة على تحدي مشاكل الحياة مع الحفاظ على كرامتها وزيادة تمسكها بالعائلة والمنزل والاولاد لاسيما وانها تشعر انها تشارك في عملية البناء هذه .

٢ ـ تهيئة الظروف العائلية المواتية بشكل نحافظ على التركيب العائلي السليم ونضمن الاستقرار والرعاية للاولاد .

٣ ـ تهيئة فرص العمل المناسبة للمراة :

وان دخول المراة معترك العمل باسس علمية صحيحة سوف يكون له اثر حضاري وثقافي ينتقل من خلالها الى الاجيال القادمة التي هي عماد البلاد في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لانها سوف تعلم الاجيال القادمة انماطا جديدة للحياة .

واذا اردنا ان نأخذ فكرة عن مدى مساهمة المراة في العمل في بعض الدول العربية لرأينا ان نسبة مساهمتها مقارنة بالذكور منخفضة كما يظهر في الجدول رقم ١٢ .

الجدول رقم ١٢

مدى مساهمة المرأة في القوة العاملة
لبعض الدول العربية عام ١٩٧٥

البلد	معدلات العمالة ٪		نسبة الاناث في قوة العمل
	ذكور	اناث	
العراق	٤٧ر٤	٢ر٦	٤ر٦
الأردن	٤٤ر٤	٣ر٠	٦ر٠
لبنان	٣٢ر١	٦ر٦	١٨ر٤
العربية السعودية	٥٠ر١	٢ر٦	٤ر٧
اليمن	٥٣ر٦	٢ر٤	٤ر٢
اليمن الديمقراطية	٤٩ر٨	٢ر٧	٥ر٠
المعدل الوسطي	٤٧ر٩	٢ر٨	٧ر١

المصدر: I.L.O : Labour Force Estimates and Projections: 1950 – 2000 Geneva 1977

وهذه المعدلات المنخفضة هي من سمات الدول النامية بصورة عامة والعربية بصورة خاصة مقارنة مع بقية دول العالم كما يظهر من الجدول الآتي .

الجدول رقم ١٣

عدد النساء العاملات في بلاد آسيا ونسبتهن
الى مجموع عدد الاناث والى مجموع قوة العمل
عام ١٩٧٥

البلد	عدد الاناث بالآلاف	النساء العاملات: العدد بالآلاف	النسبة المئوية: مجموع الاناث	النسبة المئوية: الاناث في سن ستة فأكثر	النسبة المئوية من مجموع قوة العمل
العراق	٥٤٤١	١١٨	٢ر٣	٣ر٧	٤ر٣
الأردن	١٣١١	٣٠	٣ر٠	٥ر٣	٦ر٠
لبنان	١٤٢٥	١٢٧	٩ر٦	١٥ر٣	١٨ر٤
العربية السعودية	٤٤٣١	١١٢	٢ر٦	٤ر٧	٥ر٨
اليمن	٣٢٩٥	٨١	٢ر٥	٤ر٠	٤ر٣
اليمن الديمقراطية	٨٢١	٢٢	٢ر٧	٤ر٦	٥ر١
الكويت	٤٩٢	٢٥	٥ر١	١٠ر٠	٨ر١
ج.ع.س	٣٥٤٩	٢١٢	٦ر٠	٥ر٢	١١ر٢
آسيا	١١٠٦٠٩٤	٣٢٢٤٦٦	٢٦ر٦	٤٤ر٨	٣٤ر٣
العالم	١٩٨٠٩٥٥	٥٧٥٧٠٥	٢٩ر١	٤٣ر٢	٣٥ر٠

المصدر : ILO: Labour Force estimates and Projections 1950-2000 Vol. I: Asia (Geneva, 1977)

واذا كانت هذه النسب قد تطورت بعض الشيء في بعض البلدان العربية كالكويت مثلا نظرا للنهضة الصناعية التي رافقتها كما نلاحظ في الجدول رقم ١٤ فانها بصورة عامة مازالت تسير بوتائر ضعيفة جدا .

الجدول رقم ١٤

تطور مساهمة القوة العاملة في بعض الدول العربية

البلدان	السنة	ذكور	اناث	مجموع
الاردن	١٩٦١	٤٢ر٤	٢ر٦	٢٣ر٩
	١٩٧١	٤٣ر١	٢ر٦	٢٣ر١
	١٩٧٥	٤٤ر٤	٣ر٠	٢٤ر٢
الكويت	١٩٦١	٤٧ر٤	٠ر٤	٣٦ر٧
	١٩٧٠	٥٣ر٠	٥ر٦	٣٦ر٤
	١٩٧٥	٤٧ر٩	٥ر١	٣٨ر٥
سوريا	١٩٦٠	٤٦ر٠	٥ر٤	٢٦ر٣
	١٩٧٠	٤٣ر٧	٥ر٥	٢٤ر٨
	١٩٧٥	٤٥ر٢	٦ر٠	٢٦ر٦
مصر العربية	١٩٦٦	٥١ر٣	٤ر٢	٢٧ر٩
	١٩٧٢	٥٠ر٨	٤ر٠	٢٧ر٤
	١٩٧٥	٥٠ر٤	٤ر١	٢٧ر٥

المصدر : International Labour Office, Yearbook of Labour Statistics, Geneva, 1966 and 1978

واذا اردنا ان نحلل اسباب هذا التقصير في مواكبة التطور الطبيعي فنرى ان هنالك عوامل عديـدة تتحكم في موضوع مساهمـة المراة في الانشطة الاقتصادية المختلفة فالبيئة المحافظـة والاعراف التي تحيط بالمراة في مجتمعنا تحد من مساهمة المراة في العمل ، وكذلك فان زواج المراة يجعلها اقل اقداما على العمل في مجتمعنا الذي لا تتوفر فيه الشروط الكافية التي تخفف على المراة بعض الواجبات البيتية مثـل رعاية الاطفال ودور الحضانة والخدمات المنزلية .

وتجدر الملاحظة هنا الى ان الاحصائيات التي تبين مدى العلاقة الموجودة بين توفر هذه الخدمات وامكانية الزيادة في مساهمة المرأة في العمل خارج المنزل غير متوفرة ، كما انه لا توجد اية دراسة تقوم على حصر حاجات النساء العاملات من هذه الخدمة .

فدور الحضانة انشئت بعد ان شعر الجميع بحاجتها الماسة ومع ذلك فاننا نعلم ان اعدادها غير كافية ، فالتخطيط المسبق لهذه الخدمات غير متوفر كما ان البيانات والاحصائيات في هذا المجال قاصرة جدا على مد المخططين بالاسس التي سيعتمدونها في هذا المجال .

لهذه الاسباب نرى ان مساهمة المرأة تتأثر بعاملين رئيسيين ، من جملة العوامل الاخرى ، وهما الحالة الزواجية والحالة التعليمية كما يظهر في الجدولين رقم ١٥ ــ ١٦ بالنسبة لسوريا .

الجدول رقم ١٥

نسبة مساهمة الاناث في القوة العاملة
حسب الحالة الزواجية
عام ١٩٦٠ و ١٩٧٠ في سوريا

الحالة الزواجية	مجموع الاناث		المشتغلات		النسبة	
	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٧٠
عازبة	١٥٤ر١	٢١٨	٦٦ر٨	٥٤ر٥	١٧ر٤	١٧ر١
متزوجة	٧٧٢ر١	١٠٣٤ر٤	٤٧ر٣	٥٩ر٨	٦ر١	٥ر٨
مطلقة	٩ر٢	١٢ر٦	١ر٣	٢ر٣	١٤ر١	١٧ر٥
ارملة	١٣٨ر٥	١٦٤ر٥	٧ر٠	١٥ر٢	٥ر٤	٩ر٣
المجموع	١٠٧٥ر٤	١٥٢٩ر٦	٨٢ر٤	١٣١ر٧	٦ر٦	٨ر٦

المصدر : تعداد السكان ١٩٦٠ و ١٩٧٠

بينما تبلغ النسبة لكل من العازبات المطلقات ١٧ر٥٪ تقريبا تنخفض الى ٥ر٨ و ٩ر٣ لكل من المتزوجات والارامل ويعزى ذلك الى مسؤولياتهن العائلية ورعاية اطفالهن .

الجدول رقم ١٦

عدد ونسبة مساهمة الاناث نسبي النشاط الاقتصادي حسب الحالة التعليمية في سوريا

الحالة التعليمية	مجموع الاناث ١٠ سنوات فاكثر	ذوات النشاط الاقتصادي	النسبة
أمي	٤١٧٢٣٧	١٢٨١٩٥	٣٠ر٧
ملم	٢٨٤٢٥٩	١٠٢٢٤	٣ر٦
ابتدائي	١٤٢٦٠٩	٦٠٣١	٤ر٢
اعدادي	٤٠٤٣٦	٢٨١٤	٦ر٩
ثانوي	١٨٧٠٠	٤٩٤٤	٢٦ر٤
فني ومهني	٧٦٩٠	٧١٧٩	٩٣ر٣
حامل شهادات العلوم الانسانية والعربية	١٧٤٧	١٤٩٦	٨٢ر٩
حامل شهادات العلوم الاجتماعية والقانونية	١٣٦٨	١١٣٤	٨٢ر٩
حامل شهادات العلوم الطبيعية	٣٨٧	٢٥٧	٦٦ر٤
حامل شهادات العلوم الهندسية والفنية	٢٧٥	٢٤٣	٨٨ر٣
حامل شهادات العلوم الطبية أو ماجستير	٢٧٠	٢٣٥	٨٧ر٠
حامل شهادات العلوم الزراعية	٣١	٣٠	٩٦ر٨
دكتوراه	١٢٠	١٠٨	٩٠ر٠
غير مبين	١٨٦	٩	[illegible]
المجموع العام	١٩١٢٢٢٥	١٦٦٨٦٦	٨ر٧

المصدر : تعداد السكان عام ١٩٧٠

هذا الجدول يظهر بوضوح الارتباط الوثيق الموجود بين مستويات التعليم ومحاولة النشاط الاقتصادي ، ويبين ان تعلم المرأة يدفعها الى ميدان العمل ، فكلما ارتفعت درجة تعليمها ادى ذلك الى جعلها عنصرا فعالا في المجتمع نتيجة لزيادة وعيها . ويوضح لنا الجدول بان ٨٢ر٧٪ من جملة النساء الحاصلات على الشهادة الجامعية يساهمن في النشاط الاقتصادي و ٩٣ر٣٪ من جملة النساء الحاصلات على المؤهل الفني او المهني يساهمن في النشاط الاقتصادي ، وتنخفض هذه النسبة الى ٢٦ر٤ عند النساء الحاصلات على الشهادة الثانوية العامة وتصل الى ٣ر٦ عند النساء الملمات .

ان هذه الحقيقة على درجة بالغة من الاهمية ، فالحل الوحيد لزج النساء في ميدان العمل هو التعليم الذي يرفع من درجة كفاءتهن وعطائهن ومردودهن .

لن نستطرد في سرد الوقائع التي تظهر لنا ايضا مساهمة المرأة في تصوير واقع المرأة في العمل .

ان المعطيات الاحصائية قادرة ان تظهر لنا ايضا مدى مساهمة المرأة في كل قطاع من القطاعات المختلفة للنشاطات الاقتصادية وتحدد لنا بذلك انواع الاعمال التي تستهوي المرأة اكثر من غيرها . فمثلا في سوريا ان عمل المرأة يتركز بصورة رئيسية في مجال التعليم والخدمات ومن ثم الزراعة ، فالاعمال المكتبية ، وهذا التخصص يساعدنا في رسم الخطط المستقبلية .

قبل ان نختم هذه الفقرةلواقع المرأة في العمل يجب التنويه الى نقتطين هامتين في هذا المجال .

١ ــ ان العمل رغم اهميته القصوى بالنسبة للمرأة ومردوده بالنسبة للاقتصاد ، فقد لا يعود بالنفع المادي على صاحبه ، فمثلا في سوريا

عام ١٩٧٠ بلغت نسبة النساء اللواتي يعملن بدون أجر ٤٠٪ من مجموع النساء العاملات ، وهذا الواقع قد يدل على سيادة بعض العادات الاجتماعية التي وان دفعت المراة الى العمل فانها لا تعتقها من واقعها الاجتماعي ولا تحررها من تبعيتها الاقتصادية . واكثر ماتتركز هذه الظاهرة في الارياف . وللاسف فالمعطيات الاحصائية المتوفرة قلما تعكس هذا الواقع بحقيقته الكاملة .

٢ ــ ان خروج الزوجة الى العمل ولد بعض المشكلات ، ولكن هنا ايضا يوجد قصور كبير في المعطيات الاحصائية لتصوير هذا الواقع وتحديد المشكلات بالارقام ليتسنى للمخططين معالجتها اذ حسب رأينا الغاية من عمل المراة هو النمو والتطور من جميع اوجهه ، ومن غير المنطق ان يكون عمل المراة سببا في تفكيك رباط الاسرة او اهمال تربية الاطفال او حتى على حساب صحة الزوجين او اوقات فراغهم .

فقد اثبتت دراسة اجتماعية ميدانية عن المشكلات الناتجة عنخروج الزوجة الى العمل قام بها المكتب التنفيذي للاتحاد العام النسائي في سوريا بالاشتراك مع وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بان نزول المراة معترك العمل والمساهمة بالنشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعام قد حقق مكسبا كبيرا في تكوين اتجاهات جديدة في تحرير نصف المجتمع من الجمود ودفعه في طريق الانتاج والمشاركة لكن مجموعة كبيرة من المشكلات اخذت تدخل الى معظم البيوت من خلال ارهاق المراة بعملين معا ولعدم توفر الخدمات التي تعتق المراة من بعض مسؤولياتها من جهة ولعدم قبول الازواج بمساعدة زوجاتهن من جهة اخرى اذ لم يتولد قناعة لدى الجميع بأن الحياة اساسها المشاركة .

وقد حددت أغراض البحث* بـ :

(*) لمزيد من الايضاح راجع المشكلات الناتجة عن خروج الزوجة الى العمل الكتاب الاول الاتحاد العام النسائي ــ دمشق ١٩٧٨ .

١ ـ الكشف عن المشكلات الاسرية ، وتحديد ابعادها وآثارها على حياة الاسرة واستقرارها من خلال مايعطيه البحث من معلومات وبيانات ومعطيات احصائية .

٢ ـ **الوصول الى نتائج واعلان مقترحات .**

وفي الحقيقة ان مثل هذه الدراسات نفتقر اليها كثيرا رغم اهميتها اذ تلقي اضواء على مقومات جديدة لعمل المرأة نذكر على سبيل المثال لا الحصر المعطيات التالية :

٦٨,٥٧٪ من الزوجات العاملات يقضين العطل في البيت للقيام بالاعمال المنزلية .

٥٤,٨١٪ من الاسر التي لديها اولاد تغطي الزوجة غيابها عن العمل بسبب مرض طفلها باجازات ادارية و٤٠,١٠٪ باجازة بدون راتب .

٢٩,٨٢٪ من العاملات التي جرت الدراسة عليهن ينفردن بكافة الخدمات المنزلية داخل الاسرة . وهذا يعني ان ثلث الزوجات العاملات تقريبا مسؤولات عن تأمين كافة الخدمات المنزلية بمفردهن دون اية مساعدة .

٤٧,٥٪ من الازواج يساعدون زوجاتهن العاملات بالاعمال المنزلية التي تعتبر من اختصاص رب الاسرة (شراء الحاجيات ، ومساعدة الاولاد في مسؤولياتهم المدرسية) .

النتائج الممكن استخلاصها من دراسة المرأة في العمل تنحصر في النقاط التالية :

ـ ان مساهمة المرأة في العمل يبقى ضعيفا رغم الجهود المبذولة واذا اردنا زيادة مساهمتها فيجب التخطيط من اجل تحقيق هذا في ثلاثة اتجاهات :

آ ـ زيادة تعليم المرأة

ب ـ تأمين ص العمل التي تتناسب وامكانياتها وظروفها .

جـ ـ العمل ى تأمين الخدمات التي تحـرر المرأة من اعبائهـا المتراكمة في المنزل .

٤ ـ واقع المرأة الريفية :

ان المعطيات الاحصائية تظهر اهميتها خاص في دراسة فئة لهـ اوضاعها الخاصة وظروفها الشاقة والصعبة لاسيما ان لها تأثير كبير على التنمية الاقتصادية هذه الفئة هي عبارة عن فئة النساء الريفيات ، اننا اذ نريد ان نظهر واقعها الذي هو بصورة عامة واقع اليم ، فاننـا نهدف من هذا ، التأكيد على اهمية دراسة اوضاعها بالارقام ، والتخطيط لتطويرها ، وتنمية القطاع الزراعي الذي يعتبر من اهم جميع القطاعات في الاقطار العربية . واليكم بعض الارقام كما وردت في البحث الذي اعده الاتحاد النسـائي في دمشق « المرأة والتنمية » عن سوريا .

آ ـ التركيب السكاني :

٧٨٪ من النساء في الريف هن في اعمار تتراوح بين ١٥/٥٩ سنة بينما اللواتي يزيد عمرهن عن /٦٠/ فاكثر لا يشكلن سوى ٤٪ وهذا معناه ان المرأة الريفية قوة بشرية فعالة تسهم في العمل والانتاج وفي بناء المجتمع العربي .

وقد اثبتت نتائج البحث في مجالات التعليم ـ العمل ـ التشريع ـ الخدمات عام ١٩٧٩ ان ٩٣٪ من القوة العاملة النسائية في الريف هن مشتغلات . وغالبا مايكون العمل في المجال الزراعي .

ب ـ التركيب التعليمي :

ان نسبة الامية في الاوساط النسائية الريفية ٧٦٪ بشكل عام وهي ٦١٪ في فئة السن ١٥ ـ ١٩ و ٩١٪ في كل من فئات السن ٣٠ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٩ . وتؤكد على ماجاء في البحث بأن هذه النسبة مؤشر خطر لاوضاع المراة الريفية تظهر آثاره واضحة في جميع المجالات . الامر الذي يدفع المسؤولين الى الاهتمام الجدي بمحو الامية للنساء الريفيات بوضع برامج تنفيذية تتناسب والواقع وتتفق مع الاحتياجات.

ج ـ التركيب الزواجي :

يتميز الزواج في الريف بظاهرتين اساسيتين :

١ ـ ظاهرة الزواج المبكر : ٣٪ من المتزوجات تتراوح اعمارهن بين الـ ١٠ ـ ١٤ سنة .

٢ ـ غلاء المهور : ٨١٪ من الفتيات بين العمر ١٥ ـ ١٩ سنة .

و٣٧٪ من الفتيات بين العمر ٢٠ ـ ٢٤ سنة غير متزوجات بسبب غلاء المهور .

د ـ المراة الريفية والعمل :

ان العمل الزراعي للمراة الريفية هو جزء لا يتجزأ من عملها اليومي كربة منزل فـ ٩٦٫٨٧٪ من نساء الريف المشتغلات يعملن بالزراعة والرعي ، ولكن قلما تستقل المراة الريفية ماديا اذ هنالك ٨٢٫١٩٪ من النساء الريفيات ليس لهن اي دخل الوسائل الصحية الخدمات ووسائل الترفيه والتسلية .

فالجدولان رقم ١٧ ورقم ١٨ يبينان توزيع المشتغلين الريفيين في سوريا حسب الحالة التعليمية والعملية .

جدول رقم ١٧

توزيع المشتغلين الريفيين حسب الحالة التعليمية في سوريا
عام ١٩٧٥

الحالة التعليمية / الجنس	أمي %	متعلم او حاصل على مؤهل %	اجمالي %
ذكر	٥٢ر٤٩	٤٧ر٥١	١٠٠
انثى	٩٣ر٨٦	٦ر١٤	١٠٠
المجموع	٦٤ر٥٢	٣٥ر٤٦	١٠٠

المصدر : بحث العينة السكانية لعام ١٩٧٥ .

جدول رقم ١٨

توزيع المشتغلين الريفيين حسب الجنس والحالة العملية في سوريا
لعام ١٩٧٥

الحالة العملية / الجنس	صاحب عمل %	يعمل لحسابه %	يعمل بأجر لدى او حكومي %	يعمل لدى ذويه أو لدى الغير بدون أجر %	المجموع %
ذكر	٦ر٤٧	٤٩ر٣١	٢٧ر٤١	١٦ر٨٣	١٠٠
انثى	٠ر٣١	٥ر٦٥	١١ر٨٦	٨٢ر١٦	١٠٠
المجموع	٤ر٦٢	٣٦ر٥٨	٢٢ر٨٧	٣٥ر٨٧	١٠٠

المصدر : نتائج بحث العينة السكانية لعام ١٩٧٥ .

النتائج السكن ان نستخلصها من وضع المرأة في الريف تتلخص في النقاط التالية :

النتائج الممكن ان نستخلصها عن وضع المراة في الريف تتلخص في النقاط التالية :

١ ــ ان المراة الريفية تساهم في التنمية بشكل ملموس .

٢ ــ مردود مساهمة المراة الريفية يبقى منخفضا نتيجة مستواها العلمي والعملي .

٣ ــ قلما تعمل المراة الريفية باجر اللهم اذا كانت في الوظائف الادارية معلمة او غيره ... التي في الحقيقة لا تشكل الا نسبة ضئيلة من مجموع العاملات .

نستطيع الاسترسال في دراسة واقع المراة ممثلا بمعطيات احصائية: ارقاما ، او نسبا ، معدلات تطور ونمو ، من نواح اخرى متعددة ، الا اننا نجد انه من المهم ان نعالج الى ما حققته المعطيات الاحصائية في مجال التحليل والتنبؤ . ونتساءل فيما اذا كانت المعطيات الاحصائية تفي هذا الغرض .

حدود المعطيات الاحصائية في مجال التخطيط لمساهمة المراة في التنمية :

سبق وقلنا ان اهمية المعطيات الاحصائية تتحقق في تصوير الواقع ولكن ما فائدة تصوير الواقع اذا لم يساعدنا الى الانطلاق نحو المستقبل والتخطيط له ، وعلى ما نظن انه لن نكون متشائمين اذا قلنا ان العقبات وقصور المعطيات في هذاالمجالكبير فقلما سعت دراسة او بحث الى تقديرات وتنبؤات خاصة بالمراة : هنالك بعض التقديرات المتعلقة بنمو السكان عامة : مثلا توقعات السكان لعام ٢٠٠٠ كما ان هنالك بعض التوقعات لتطور قوة العمل بشكل اجمالي وعام ، ولكن هل يكفي هذا ؟

ان صورة المراة التي تعكسها المعطيات الاحصائية الموجودة قد عبرت عن واقع معين للمراة نريد تغييره وتطويره لنتحكم في سيره واتجاهه . ولكن هل يمكننا ذلك اذا لم يكن لدينا صورة للمراة كما نريد ان تكون وكما نريدها ان تكون في المستقبل . ولنتساءل ما هي الامكانيات المتوفرة في هذا المجال ؟ وما هو السبيل الى ذلك ؟

وهنا يظهر بوضوح النقص في البيانات والقصور في المعطيات الاحصائية .

سبق وأن ذكرنا في نهاية كل فقرة ماهية المعطيات الاحصائية الغير متوفرة فالسعي الى ايجادها يعتبر ضرورة نتمنى تحقيقها بالاضافة الى الملاحظات والمقترحات التالية :

١ ــ ان الاجهزة والادارات الاحصائية قلما تسعى الى تصنيف احصائياتها في مختلف المستويات والقطاعات على أساس النوع (ذكورا واناثا) ولو فعلت لساعدت كثيرا في تامين الوسائل لتخطيط افضل في مجال قوة العمل النسائية .

٢ ــ نقص البيانات الصحية والطبية الخاصة بالمراة رغم اهميتها وضرورتها .

٣ ــ ليس لدينا أية صورة رقمية لوضع المراة في المستقبل وليس هنالك خطط من اهدافها المحددة بشكل دقيق تحقيق مستوى معين من عمل المراة مثلا ، او تعليمها خلال فترة معينة من الزمن اي ان الصورة المستقبلية للمراة غير واضحة وغير محددة بالارقام والاعداد .

٤ ــ ليس هنالك اي مسح يحدد المشاريع والبدائل والمجالات الجديدة التي يمكن ايجادها لزيادة معدلات مشاركة المراة في قوة العمل.

٥ ـ ليس هنالك تشجيع كاف للمراة بالتدريب على مجالات البحوث وجمع المعلومات . ويتاكد اهمية دور المراة الباحثة في الدراسات الميدانية خاصة الريفية منها نظرا لتفهمها وقربها من مشاكل المراة بصورة عامة وكفاءتها كعنصر اتصال بالاسرة وجمع المعلومات منها .

بايجاز : ان المعطيات الاحصائية في الدول العربية عامة وفي سورية خاصة قد ساعدت كخطوة اولية على تصوير وضع المراة ، الا ان الصورة لم تكتمل بعد ، وانجميع الدول العربية تسعى الى معالجة ذلك . ومن هذا المنطلق فهي بحاجة ماسةالى اخصائيين في هذا المجال .

* * *

هجرة الكفاءات العربية

أسباب - نتائج
مقترحات للحل

علي العيد

تعتبر ظاهرة الهجرة احد اهم العوامل المؤثرة ، على تطور الاقتصاد الوطني وعلى التركيب الهيكلي للسكان والقوى البشرية ، وتكتسب هذه الظاهرة ، اهمية متزايدة ، في وقتنا الحاضر نظرا لتزايد عدد المهاجرين وخاصة من الكوادر العلمية المتخصصة واثر ذلك على خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالنسبة للدول النامية وحرمان هذه الدول الاستفادة من خبراتهم

ومؤهلاتهم بالاضافة الى النتائج المترتبة عن الهجرة الداخلية والمتمثلة بالنزوح من الريف الى المدينة وما يترتب عليها من نتائج متعددة الجوانب، بعضها ايجابي وبعضها الآخر سلبي ، وهذا ما نراه في الدول النامية التي تتصف حركة القوة العاملة بها بالعشوائية والبعد عن التخطيط . والدراسة المتعلقة بالهجرة تعني الانتقال من اجل العمل الى بلدان متقدمة صناعية سواء للاقامة المؤقتة او الدائمة ، ولا يدخل في عداد ذلك الانتقال بين الدول العربية ، او الهجرة النادرة باتجاه البلدان النامية الاخرى او الهجرة لاسباب سياسية . وتكاد الدراسات تجمع على تحديد فئة المهاجرين كما يلي :

١ ـ ذوي المهن الحرة كالاطباء والمهندسين والاقتصاديين والمحامين وغيرهم .

٢ ـ الفنيون الذين يشكلون حلقة الاتصال بين المهندسين والعمال المهرة .

٣ ـ العمال المشابهون للفنيين الذين هم العمال المهرة المكتسبون خبرة متخصصة في مجالات حيوية في الصناعة .

والفكرة السائدة عن هجرة الكفاءات هي ان هذه الهجرة تمثل عقبة في طريق تنمية البلدان النامية بما فيها بلدان الوطن العربي . ومن هنا فلدى معالجة هذه المشكلة التي يمكن ان نصفها مبدئيا بالخطيرة ، فان دراسة الظواهر والعوامل التي تسهم في هجرة هذه الكفاءات انما تمثل نقطة بداية سليمة في وضع برامج فعالة للقوى البشرية كما انها تنطوي على عملية دقيقة في بناء المؤسسات العربية العاملة في مجالي البحث والتعليم العالي واذا كانت هجرة الكفاءات تنتقص من اهمية قضايا اساسية أخرى من قبيل الاستقلال والتبعية والتخلف فان التركيز على هذه المتغيرات المحورية انما يبرز هجرة الكفاءات بوصفها ظاهرة فرعية ملازمة لهياكل اخرى قائمة على التبعية والجمود .

ان احصاءات هجرة الكفاءات العربية والتي تعتبر جزءا من الحركة العامة لهجرة الكفاءات من الدول النامية ، يشوبها قصور واضح ويبدو أن هذا القصور متعمد من جانب الدول المتقدمة المستقبلة للكفاءات ؛ حيث تتجاهل هذه الدول نشر البيانات الواضحة عن حركة هجرة الكفاءات والتجنس اليها ، على الرغم من وجود نظم احصائية بالغة الدقة لدى هذه الدول في هذا المجال(١) .

اسباب هجرة الكفاءات العربية :

في اطار المناقشة العامة لهجرة الكفاءات العربية أرى ضرورة تناول الموضوع سواء لتفهم اسباب الهجرة أم لاقتراح الحلول ؛ في اطار واسع يتجاوز العوامل الشخصية ، ذلك أن قرار الهجرة لا يتخذ على المستوى الشخصي كاختيار حر ينسجم مع حق الانسان في الهجرة ، أو العمل حيثما شاء ، لكن هجرة الكفاءات تمثل احدى افرازات البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية ، وتتشابك العوامل لتجتمع في سعي ماح للهجرة. ، وهي بذلك مؤشر لفشل خطط تنمية الانسان العربي اقتصاديا واجتماعيا وعلامة استسلام امام عوامل تهميش الانسان صانع التنمية وهدفها .

فالتجربة التي يعيشها المثقف العربي تشتمل على عنصر الغربة والضياع في شتى المجالات تلك الغربة التي يعيشها في كلتا الحالتين سواء استمر في وطنه اذ يكون حاملا لمعرفة لا تكتمل بها شخصيته نتيجة لميزات مجتمعه . او هاجر ، وهنا يستوعب من طرف المجتمع المهيمن الذي يحتوي على ذاتيته مما يؤدي الى الغبن الثقافي .

(١) مجلة الاقتصاد العدد ٢٠٦ آذار ١٩٨١ .

اذا الاغتراب هنا هو حالة هيكلية متولدة من خصائص المجتمع العربي في علاقته مع الامبريالية الثقافية(٢) والحالة هذه ، تولد في الواقع ثلاثة انواع من ردود الفعل للمثقف العربي اذا لم يكن مهاجرا :

ـ فهنالك حالة العجز وانتفاء القدرة على العمل والتغيير والانكباب في الاستهلاك وتلك اشد حالات الاغتراب .

ـ وهنالك تبني الايديولوجية القوميـة على اساس انها تعبر عن ارادة السيطرة على التكنولوجية في سبيل الحفاظ على الذاتية والكرامة القومية .

ـ وهناك تبني السلفية والتنكر القومي للتقدم بما فيه من انماط تكنولوجية وثقافية ، وهي ايضا تشكل نوعا من الاغتراب لانها تتنكر للتاريخ .

وهكذا تختلق ثنائية ثقافية مبنية على ثنائية اقتصادية تعكس الهيمنة المولدة للاغتراب الثقافي وهذه بدورها المنعكسة من طبيعة المجتمع العربي .

والهجرة اذن هي الامكانية من الامكانية المتاصلة في وضع الاغتراب الثقافي الذي تولده خصائص المجتمع العربي في علاقته مع الامبريالية .

ولا شك في ان الكشف عن الابعاد المختلفة لظاهرة هجرة الكفاءات العربية لامر على جانب من الاهمية لاكثر من سبب . اذ من المنتظر ان يتخرج بضعة ملايين من المواطنين العرب في الجامعات العربية فيما بين عامي ١٩٨١ ـ ٢٠٠٠ ومن ثم فان المشكلات التي نواجهها حاليا في استيعاب الكفاءات العالية وتوزيعها واستخدامها ، مشكلات محوريـة بالنسبة لرسم سياسات اكثر فعالية للقوى البشرية والتعليم . وسوف

(٢) المستقبل العربي العدد ١٥ ـ ١٩٨٠ .

تستمر البلدان التي تفتقر في الوقت الحالي للكفاءات العالية في استخدام هذه الكفاءات من البلدان لتي لديها فائض منها .

وتؤكد الدراسات الخاصة بهجرة الكفاءات ، العلاقة الوثيقة بين التعليم والتدريب في الدول المتقدمة وهجرة الكفاءات . فالدارسون في الخارج هم اكثر المرشحين للهجرة سواء بعد اتمام دراستهم او تدريبهم مباشرة أو بعد عودتهم بمدة وجيزة .

وتشير بعض الاحصاءات ان نسبة ٦٠٪ من الدارسين في البلدان الغربية يهاجرون كما ان نسبة ١٥٪ من الدارسين في الدول الاشتراكية او الدول النامية يهاجرون . ووفقا لحسابات اجراها احد الباحثين العرب وطرحها في ندوة « إكوا » « اللجنة الاقتصادية لدول غربي آسيا التابعة للامم المتحدة » فقد بلغت النسبة المئوية لهجرة الاطباء والمهندسين والعلماء العرب الى اوربا والولايات المتحدة الامريكية حتى سنة ١٩٧٦ كما يلي :

٥٠٪ من الاطباء والبالغ عددهم ٢٤٠٠٠ طبيب .

٢٣٪ من المهندسين والبالغ عددهم ١٧٠٠٠ مهندس .

١٥٪ من العلماء العرب المشتغلين بالعلوم الطبيعية والبالغ عددهم ٧٥٠٠ عالم .

ان المصدر الرئيسي للعلماء والمهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة الامريكية من الاقطارالعربية هو مصر حيث هاجر منها نحو ثلثي المجموع . وهناك مصادر رئيسية اخرى هي العراق ولبنان ويقدم كل منهما نسبة ١٠٪ من المجموع وسورية والاردن ويقدم كل منهما اكثر من ٥٪ من المجموع . وفلسطين التي اسهمت بنحو ٤ر٥٪ من المجموع .

وقد تجاوز متوسط عدد العلماء الذين دخلوا الولايات المتحدة كمهاجرين / ٤٨٠ / شخصا في السنة في عام ١٩٨٠ اي بزيادة تبلغ

حوالي عشرة امثال من ٦٢١ مهاجرا في عام ١٩٦٦ الى ١٢١٥ مهاجرا في عام ١٩٧٠ . وقد انخفض هذا العدد بعد ذلك الى ٢٧١ مهاجرا في عام ١٩٧٤ وعاد وارتفع قليلا الى اكثر من ٤٠٠ مهاجر في عام ١٩٧٧ ؛ وظهرت هذه الاتجاهات في كل الاقطار العربيـة التي تعتبر مصدرة رئيسية للعلماء والمهندسين المهاجرين .

تعكس الزيادة البطيئة ، لكن المستمرة ، في هجرة العلماء والمهندسين العرب زيادات مشابهة في عدد العلماء والمهندسين الذين هاجروا الى الولايات المتحدة من جميع البلدان عربية كانت أم غير عربية(١) . وفي نفس الفترة من عام ١٩٧٤ ــ ١٩٧٧ بلغت الزيادة في هجرة العلمـاء والمهندسين مـن جميـع البلدان الـى الولايـات المتحدة نحـو ٢٠٪ ولكنها بلغت ٥٠٪ من الاقطار العربية ، وتعكس نسبة الثلاثين بالمائة / ٣٠٪ / الاضافية وجود عوامل اقليمية تزيد من حصـة العلمـاء والمهندسين المهاجرين من الاقطار العربية الى الولايات المتحدة . لقـد هاجر من مصر والعراق ولبنان وسورية والاردن وفلسطين حوالي ٩٥٪ من العلماء والمهندسين المولودين في هذه الاقطار ما بين عامي ١٩٦٦ ــ ١٩٧٦ . وقد ارتفعت حصة المهاجرين المصريين بين عامي ١٩٧٦ ــ ١٩٨٠ من ٥٣٪ الى نحو ٧٥٪ . وهناك عدد غير معروف من العلماء والمهندسين العرب الموجودين حاليا في الولايات المتحدة الامريكية بصفة غير مهاجرين وهم يعتزمون على الارجح الحصول على صفة مهاجرين ، او انهم يعتزمون البقاء فيها بصورة دائمـة دون تغيير وضعهم كغير مهاجرين ، فيصبحون غرباء غير شرعيين ، والجدير بالذكر ان عـدد المهاجرين العرب من الكفاءات العالية والمقيمين حاليا في الولايات المتحدة الامريكية فقط يقدر بحوالي / ١٠٠٠٠٠ / مائة الف شخص ومع ان ظاهرة هجرة الكفاءات تختلف في نوعيتها الى حد كبير من حيث هجرة الفئات الماهرة وغير الماهرة من العمال ، فانها تظل مرتبطة بهذه الاخيرة

(١) صحيفة تشرين الصادرة في تاريخ ١٩٨١/٣/١٥ .

ارتباطا وثيقا فالسياسات الشاملة التي تؤثر على الفئات الاخيرة تؤثر عامة على الحوافز او الموانع المتعلقة بهجرة الموظفين ذوي الكفاءات العالية على حد سواء ، الا انه من الصعب وضع وبرمجة وتنفيذ سياسات لفئات محددة بعينها ، وبالتالي فمع ان الخسارة الاجتماعية الناتجة عن هجرة الكفاءات اكبر بكثير من هجرة العمال المؤهلين وغير المؤهلين « ما دامت تكاليف تعليم الكفاءات اعلى بكثير » . فان اهتمام الحكومة بكسب النقد الاجنبي يحول بينها وبين اتخاذ اجراءات شاملة لايقاف هجرة جميع الفئات والتي قد تكون الطريق الوحيدة الفعالة للحد من هجرة الكفاءات في المدى القريب . وكذلك ايضا ليس بالامكان توفير حوافز متميزة لتشجيع فئة دون الفئات الاخرى .

ومن هنا فمن الضروري ان تناقش ظاهرة الهجرة الى الخارج في اطار عام وشامل . كذلك من الصعب اعطاء الهجرة الدولية حقها من الدراسة دون الاشارة الى مظاهر الخلل الاجتماعي والثقافي والمهني والتعليمي . ولولا أن بعض البلدان قد عمل على تسهيل وتشجيع هجرة فئات معينة من الكفاءات لظلت هذه الهجرة محدودة النطاق ولهذه الظاهرة جانبان وهما :

١ ــ العوامل التي تدفع وتساهم الى مغادرة الكفاءات من بلدانها .

٢ ــ العوامل التي تضعها البلدان المستقبلة « المضيفة » كي تجذب الكفاءات .

اولا : العوامل التي تدفع الكفاءات الى مغادرة بلدانها :

اذا كانت الاحتياجات المستقبلية من القوى البشرية العاملة في مختلف المجالات يجري تحديدها في اية دولة على اساس متغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية فان من حق المرء ان يتساءل عن السبب الذي يجعل هذا البلد او ذاك ان يخرج اعدادا من الاطباء او المهندسين او

العمال الماهرين أو غير الماهرين او غيرهم دون الاخذ بعين الاعتبار لتلك المتغيرات ولا سيما للطلب الاقتصادي على خدماتهم . وبرغم انه لا يوجد تفسير معقول لهذا المسلك غير الحكيم سوى ان البلد يعاني من قضايا التخلف ومن وجهة نظر خصوصية هناك ثمة نواقص كامنة تشوب النظام الصحي والفني أو غيرهما في تلك البلدان ومنها : انعدام التخطيط الواقعي في مجال القوى البشرية وفي ميدان التخطيط التربوي او الفشل في ايجاد التكامل والتنسيق بين تلك العمليات الامر الذي يؤدي الى تطور غير متناسق بين الانظمة المختلفة او في داخل كل نظام(١) .

وفي القطر العربي السوري بلغت نسب المهاجرين في اعوام ١٩٥٦ — ١٩٦٩ كما يلي :

الاطباء ٦٥٪ ، المهندسون ٦١٪ ، علماء الطبيعة ٥٩٪ ، البيطريون ٥٠٪، الزراعيون ٣٩٪، اطباء الاسنان ٣٤٪، الصيادلة ٣٣٪

نرى من هذه النسب ان النسبة الاجمالية للمهاجرين من الكفاءات العلمية تبلغ ٥٧٪ اذا علمنا ان مجموع الكفاءات المهاجرة هي / ٨١٨٣ / كفاءة .

ان هجرة الكفاءات هي بالضرورة نتيجة ترتبت على وضع اللامساواة الحاصل في التنمية بين الدول وبين المناطق والفئات الاجتماعية داخل كل دولة واذا ما انطلقنا من مقولة ان هجرة القوى البشرية العاملة في اي ميدان هي معظمها نتيجةالسياسات او الخطط غير الواقعية المطبقة في المجالات والانظمة المختلفة .

بناء على ذلك فان عوامل الدفع تشكل الوجه الاساسي للمشكلة ويمكننا القول ان هناك عددا من العوامل الاجتماعية والسياسيةوالادارية

(١) مرجع سابق .

والثقافية والعلمية التي لا يمكن اخضاعها الى ذات النمط من التحليل في كل الظروف والتي يبدو انها دائما في بلدان العالم الثالث كافة وراء ظاهرة هجرة الكفاءات .

وبايجاز يمكننا ان نذكر عوامل الدفع هذه وهي :

١ ــ عدم الاستقرار السياسي حيث تعاني من هذه الظاهرة معظم البلدان النامية .

٢ ــ الحواجز الاقليمية بين اقطار الوطن العربي وغياب التكامل لهيئتي وتنافر برامج وخطط هذه الاقطار . والبلدان النامية بشكل عام.

٣ ــ عدم توفر التسهيلات العلمية وعدم وجود المناخ الملائم لامكانية البحث العلمي .

٤ ــ انخفاض المستوى المعيشي .

٥ ــ السياسة التعليمية فاذا عملت هذه السياسة على زيادة الخريجين من الجامعات بما لايتفق مع احتياجات التنمية كان ذلك دافعا لهجرة كفاءات واسعة .

٦ ــ عدم التوافق والمطابقة مابين التأهيل والاعداد والتدريب والحياة العملية وبذلك عدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب .

ثانيا : العوامل التي تضعها وتثبتها الدول المتقدمة لجذب الكفاءات.
في عام ١٩٧٢ كان / ١٤٠ / الف طبيب على الاقل موجودين في بلدان لم يكونوا من رعاياها او لم يولدوا فيها او يتعلموا فيها ، وكان هؤلاء الاطباء يمثلون وقتها وبصورة عامة / ٦٪ / من عدد اطباء العالم « باستثناء جمهورية الصين الشعبية » ويصل متوسط من يهاجرون سنويا الى مايعادل / ١/٨ / الحصيلة السنوية في العالم .

وقد وجد ان مايزيد على ثلاثة ارباع الاطباء المهاجرون يعيشون في ثلاثة بلدان فقط هي :

الولايات المتحدة الامريكية (كان فيها / ٦٨ / الف طبيب في عام ١٩٧٢) والمملكة المتحدة (كان فيها / ٢١.٠ / الف طبيب في عام ١٩٧٠)

وكندا (كان فيها / ٩ / الاف في عام ١٩٧١) ثم برزت كل من المانيا الاتحادية وكان فيها / ٦ / الاف في سنة ١٩٧١ واوستراليا / ٤ / الاف في سنة ١٩٧٢بوصفهما ايضا من البلدان المهمة المستقبلة للمهاجرين .

فما هي المزايا والمشجعات التي تتوفر في البلدان المتقدمة التي تجذب الكفاءات وتجعلها تترك بلدانها ؟.

يمكن ان نجيب على هذا التساؤل بالنقاط التالية وبايجاز كما يلي :

١ ـ المحيط العلمي الاكثر تقدما الذي يحفز على مواصلة البحث والتجريب وزيادة الخبرة حيث ان ظروف العمل في البلدان المتقدمة وسيلة لتحقيق الطموحات العلمية بما توفره من فرص البحث العلمي ووسائله .

٢ ـ اعتماد الترقية والترفيع بالدرجة الاولى على البحث المنتج والكفاءة الفردية .

ان الصعوبات التي تواجه من دخول مراكز المسؤولية او على الاقل المراكز التي تتلاءم مع مستوى اعدادها يخلق لديها شعورا بالكبت يتجلى سواء في اعتراضها على الاجور او بالاشمئزاز واهمال العمل والمؤسسات التي يعملون بها ، وفي هجرة عدد كبير منها في نهاية المطاف الى الخارج . وتجدر الاشارة الى ان ظاهرة الاشمئزاز من العمل ومن المؤسسات لاتقتصر على الملاكات العليا » ولكن هذه الملاكات بما لديها من اعدادتستطيع بسهولة ان تجد لنفسها ملاذا في الخارج » بل انها تتجلى على كافة

المستويات مع فارق وحيد هو ان الموظفين الاقل كفاءة لايستطيعون التعبير عن عدم رضاهم الا باعمال الرفض او المطالبة باجور ارفع (*) .

٣ ـ توفر الحرية السياسية والاجتماعية في البلدان المتقدمة الغربية اكثر منها في بلدان العالم الثالث ، ولو نسبيا .

٤ ـ المستوى المعاشي الجيد الذي يحققه الفرد والضمانات الاجتماعية وخدماتها ووسائل الاستهلاك والرفاه المادي وتسهيلاته .

ان الاعتبارات العائدة الى انخفاض الاجور لا تشكل عاملا حاسما على المستوى الاقتصادي بل انها تدخل في المعادلة من خلال عمليات اقتصادية واجتماعية اكثر تعقيدا .

نرى أن عوامل الجذب مختلفة ومنها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وغيرها . لكن تحتل العوامل الاقتصادية مكانتها المؤثرة على الكفاءات الاقتصادية والعلمية ، والاشخاص الاكثر تأثرا بهذا العامل هم الاشخاص الافضل اعدادا والاكثر كفاءة لتسيير اجهزة الانتاج والتعليم والتدريب في البلاد .

وانطلاقا من النظرة الشمولية لمشكلة هجرة الكفاءات العربية وارتباطها بالواقع العربي نرى ان هذه المشكلة لاتنفصل عن مكونات التنمية الاجتماعية والاقتصادية العربية من طموح وتحد وعجز ، وابرز هذه المكونات (*) :

١ ـ التحدي الذي يجابه نهوض الوطن العربي وتكالب عناصر العداء له وترسيخ التجزئة فيه لتجعله يعجز عن الوفاء بالاحتياجات الاساسية

(*) هجرة الكفاءات العربية ـ بحوث ومناقشات ندوة اكوا ـ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت شباط ـ ١٩٨١ .

لابنائه ويطمس روح الابداع للنابغين فيه ويسمح بالظروف الاستثنائية التي تتعرض لها حياة وعمل ابنائه بالاستمرار والتعمق وبفتح طريق النجاح المشوه امام اقل العناصر كفاءة ، واستعدادا للعطاء .

٢ ــ التبعية للبلدان المتقدمة وتاصل هذه التبعية مع اتجاهات خطط التنمية الغير مدروسة وابرز مظاهر التبعية في هذا المجال هي :

آ ــ الاعتماد على التكنولوجيا المستوردة دون النجاح في تحقيق توظيف لها في الوطن العربي ودون عناية بايجاد تكنولوجيا وسيطة او تكنولوجيا ملائمة توفق بين كثافة العمل وراس المال في البلدان العربية او تنجح في اختيار المجالات الموافقة للموارد البشرية والطبيعية في البلدان العربية لتقديم اضافة في البناء لحضاري العالمي واحتلال مركز متنام في التقييم الدولي للعمل .

ب ــ التبعية الثقافية وخاصة منها نمط الاستهلاك الغربي حين شوه مفهوم النجاح في الحياة وساعد على تهميش نخبة فقدت دورها الايجابي المنتظر منها .

٣ ــ الاندفاع في سياسات تعليمية وتربوية غير متوافقة مع خطط التنمية فضلت الكم على الكيف وانطبعت بمفاهيم تقليدية في تفضيل العمل المكتبي على العمل اليدوي وعززت عقد الحصول على الشهادات العليا ، وساعدت على تفريغ الريف من افضل عناصره وبالتالي تعميق التخلف والجهل والمرض فيه، وفي نفس الوقت تضخيم مشاكل المدينة واسر جهود التنمية للتخفيف من معاناة المدينة وفي النهاية تخريج جيش احتياطي للهجرة .

٤ ــ القوانين المتخلفة وادارة شؤون الافراد التي اعطت اولوية لعنصر الولاء ليسبق بمراحل عنصر الكفاءة ، وسخرت جزءا كبيرا من امكانيات

التنمية لفرض الراي الواحد ولاقناع المجموعات والافراد بقبول الوصاية عليها . وبذلك تم قتل روح الابداع وشوش مفهوم الولاء وعزل الانسان عن تنمية الانسان .

النتائج المترتبة على هجرة الكفاءات .... :

يمكن تحليل النتائج المترتبة على هجرة الكفاءات من الناحية الاقتصادية والناحية الثقافية والتعليمية وكذلك من ناحية اكثر شمولاً هي ناحية المجتمع النامي الذي يتأثر بها .

١ ـ النتائج الاقتصادية : تمثل هجرة الكفاءات بكل بساطة اقتطاعا من القوى العاملة الهامة المتوفرة لدى البلاد والتي تحتاج اليها البلدان النامية « بشكل عام » حاجة ماسة في الجهد التصنيفي الذي تبذله ، وينتج عن هذه الهجرة تخريب للقوى المنتجة في الاقتصاد وزيادة التوتر في سوق القوى العاملة العالية المستوى الامر الذي يؤدي بدوره الى التأثير على مستوى الاجور . ولا يمكن التعويض عن هذا الاقتطاع بالتحويلات النقدية التي تاتي نتيجة هجرة القوى العاملة العادية التي تفتقر الى المواصفات الفنية . وبقدر ما يكون مستوى كفاءة القوى العاملة العالية مرتفعا بقدر ماتكون خسارتها كبيرة بالنسبة الى الاقتصاد فبالاضافة الى تكاليف توظيف قوة العمل والاحتفاظ بها ، هناك التكاليف الباهظة للتعليم والتدريب التي تدفع في معظم الاحيان بالعملات الصعبة «كتدريب الكوارد في الخارج» وهكذا فان متوسط الكلفة السنوية لتدريب احد افراد القوى العاملة العالية المستوى في الخارج والتي تتكبدها الشركة الوطنية في الجزائر مثلا يبلغ / ٧٠ / الف دينار جزائري بالنسبة الى الدرجة الاولى من الكفاءة و / ١٦١٦٩٠ / دينار جزائري بالنسبة الى الدرجة الثالثة اي بزيادة / ٥ر٢ / و / ٧ر٣ / مرة على التوالي بالنسبة الى متوسط الكلفة السنوية للتدريب في المؤسسة ذاتها (*) وبالاضافة الى

(*) د. زهرة افريحا ، فاطمة ـ المستقبل العربي ـ العدد / ١٥/ ١٩٨٠ .

هذه التكاليف التي تمثل المدفوعات النقدية لكل شخص يرسل الى الخارج ينبغي اضافة تكاليف اخرى يصعب حسابها وهي التكاليف التي تتكبدها الاجهزة المعنية بارسال العمال الى الخارج . وتتزايد فداحة التكاليف الناشئة عن هجرة الكفاءات عندما تحدث الهجرة بين فئات السكان الافضل تدريبا واعدادا والذين استطاعوا بفضل اقدميتهم في العمل ان يكتسبوا خبرة مهنية واسعة . وبالفعل فان الخبرة (خصوصا عندما تقترن بمستوى عال من الاعداد والتدريب المهني) تشكل عاملا هاما في اغناء مواصفات القوى العاملة العالية المستوى ، شأنها بذلك شأن التعليم والتدريب المهنيين وهي تشكل عنصرا اساسيا في المجال الواسع للمعرفة والخبرة الجماعية وبدونها تتعرض كل محاولات التنمية الى الفشل .

ان الهجرة ظاهرة خطيرة بشكل عام وهجرة الكفاءات بشكل خاص تعتبر اخطر على التطور الاقتصادي والاجتماعي وتكمن الخطورة في :

١ ـ العجز الحاصل بسبب الهجرة من الكوادر العلمية اللازمة لرفع وتيرة التطور الاقتصادي والاجتماعي وهذا مايؤثر بشكل مباشر على مستوى رفاهية الشعب .

٢ ـ في عدم حصول البلاد على أي مردود لقاء ما انفقته على تعليم هؤلاء الافراد .

٢ ـ النتائج الثقافية والتعليمية : يمكن ان نوجز النتائج من هذه الوجهة بما يلي :

١ ـ تناقص قدرة الوطن في اعداد المؤهلين اللازمين لعمليات التنمية محليا حيث ان هجرة الكوادر العلمية تحرم الجامعات والمعاهدوالمؤسسات

التعليمية والتاهيلية من الاجهزة ، والكوادر التي يكون بامكانها أن تعمل على اعداد المؤهلين محليـا .

٢ ـ انخفاض المستويات التعليمية في البلد نتيجة تناقص عـدد المؤهلين من اعضاء الهيئة التدريسية بالنسـبة لعدد الطلاب في الجامعات والمعاهد والمؤسسات التعليمية مما يؤدي الى تخرج دفعات ذات كفاءة محدودة .

٣ ـ ارهاق الاجهزة الحاليةمن الفنيين والعلميين سواء فيالجامعات او المعاهد او مؤسسات الدولة بازدياد الاعباء عليهم مما يؤدي الـى ضعف الانتاجية وانخفاض المردود وانتشار روح اللامبالاة والاهتمام ، ونمو العقلية الروتينية وفتور الحماس للتجديد والتطور .

٤ ـ عدم القدرة على انشاء مراكز للابحاث العلمية او التوسـع القائم فيها ، مما يؤدي بالتالي الى عرقلة التطور والتقدم الفكري والعلمي لهؤلاء الاختصاصيين والتناقص وانخفاض قدراتهم الاساسية بحكم عدم اتاحة الفرصة لها بالممارسة والتطبيق .

٥ ـ تناقص القدرة على الربط بين التطورات الثقافية والتعليمية في البلد وبين متطلبات خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

٦ ـ اضطرار الدولة الى استيراد الخبرات العلمية الاجنبية من الخارج لتلافي النقص الحاصل في الهجرة وبالتالي الوقوع في دائـرة التبعيـة .

وبشكل عام ينبغي النظر الى ظاهرة الهجرة على اعتبار انها تشكل آفة عامة في المجتمع بكل ابعادها وتأثيراتها . وقد ركزت هذه الدراسة على مشاكل القوى العاملة الاقتصادية والعلمية العالية المستوى الا ان ظاهرة هجرة الكفاءات تصيب فئات اجتماعية اخرى ، الذين وان كانوا

غير معنيين مباشرة بعمليات التصنيع والتنمية يلعبون مع ذلك دورا هاما في التنمية الثقافية والفنية والاخلاقية للمجتمع بأسره .

ومن خلال التبعية الاقتصادية والثقافية والحضارية .... الخ التي يعاني منها الوطن العربي بشكل خاص ودول العالم الثالث بشكل عام تتولد العلاقة القوية مابين حجم « المعونة » المساعدات التي تقدمها الدول الامبريالية للدول النامية ونزيف الكفاءات العلمية والتقنية والارقام التالية تثبت ذلك :

الدولة	السنة	الربح من استجلاب الكفاءات	المساعدات للدول النامية والمنظمات الدولية	نسبة تغطية هجرة الكفاءات للمساعدات
الولايات المتحدة	١٩٦١ — ١٩٧٢	٣٠٨٣٨	٦٦١٨٦	٥٠٪
كندا	١٩٦٣ — ١٩٧٢	١٠١٠٤	٤٢٢٢	٧٢٪
بريطانيا	١٩٦٤ — ١٩٧٢	٣٥٣٤	٩٧٩٨	٥٦٪

ان الضرر الكبير الذي يلحق بالمجتمع من جراء هجرة الكفاءات لا يمكن تقديره بمعايير بحتة او بمعايير السوق وحدها ، لابد من تقويم هذا الضرر بكافة آثاره المتنوعة .

مقترحات للمساهمة في حل المشكلة

تبقى مشكلة هجرة الكفاءات بشكل عام قائمة ومتجهة ، كما رأينا ، نحو الدول المتقدمة صناعيا وخاصة الولايات المتحدة الامريكية وكندا وبريطانيا والمانيا وغيرها ، من المشاكل الرئيسية التي تعاني منها تلك

البلدان ، بل هي انعكاس لواقع التخلف والتجزئة والتبعية الموجودة في بلدان الوطن العربي وبشكل عام في بلدان العالم الثالث .

وبالتالي لا يمكن ايجاد الحلول الا اذا تم التحرر بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى من خلال النضال الدؤوب داخليا وعالميا . وبكلام آخر بازالة الاسباب التي دعت الى وجود المشكلة . ومع ذلك وضمن الواقع الموجود فبامكان الدول العربية ان تقوم باتخاذ اجراءات تخفف من دوافع هجرة الكفاءات وتقدم دافع جذب للكفاءات المهاجرة وهي كما وضعتها لجنة خبراء الكفاءات العربية المنعقدة في الفترة الواقعة بين ٢ ـ ٤ شباط ١٩٨١ .

اولا : **اقتراح الاستفادة من الكفاءات العربية المهاجرة :** ان غالبية الكفاءات المهاجرة اوجدت ظروف استقرارها في المهجر ، لذلك فعودتها تخضع لجهود منظمة طويلة المدى ، وفي انتظار العودة المحتملة ، يمكن البلدان العربية الاستفادة من هذه الكفاءات لفترات قصيرة على ان يواكب ذلك :

١ ـ جهد اعلامي موضوعي يقدم للكفاءات المهاجرة في بلاد المهجر اعلاما موضوعيا يشعرهم بمشاكل بلدانهم وبالدور المنتظر لهم .

٢ ـ اتصال مستمر ورعاية تنمي روح التعاون وتثير مشاعر الحنين للوطن .

٣ ـ تقديم خدمات ملموسة لهم ، مثل المساعدة في تعليم ابنائهم اللغة العربية ، وارسال محاضرين اكفاء وعلميين لاطلاعهم على المشاكل البحثية والفكرية والفنية في البلدان العربية وتزويد مجتمعاتهم وجمعياتهم بكل جديد من المؤلفات العربية والانتاج الفكري والعلمي العربي .

٤ ـ اتخاذ الاجراءات المناسبة لتسهيل زياراتهم للوطن من معاملات ادارية وجمركية وامنية .

وتوضع برامج للاستفادة من هذه الكفاءات المهاجرة وتتضمن :

١ ـ دعوتهم لالقاء محاضرات علمية في مجالات تخصصهم وتسهيل لقائهم مع زملائهم في التخصص وفي مراكز البحث والجامعات العربية .

٢ ـ دعوة طليعة من الكفاءات العالية المهاجرة ليكونوا اعضاء دائمين او مراسلين في مجالس البحث العلمي ولجان التخطيط للبحث العلمي .

٣ ـ دعوتهم لاستشارات فنية يربطون فيها بالمشاريع الهامة التي تقام في البلدان العربية وذلك اثناء مناقشة خطة التنمية او مناقشة دراسات الجدوى للمشاريع الهامة .

٤ ـ التعاقد معهم لفترات محددة برواتب مجزية في اطار تنفيذ مشاريع محددة .

٥ ـ تخصيص نصيب من التسهيلات السياحية ومراكز قضاء الاجازات للكفاءات المهاجرة ولعائلاتهم في بلدان عربية .

٦ ـ تقديم شركات الطيران العربية تسهيلات في السفر بين بلدان المهجر الى البلدان العربية لمن تضمن اسماؤهم دليلا معتمدا من الجامعة العربية ومنظماتها او من النقابات والجمعيات والاتحادات المهنية العربية.

٧ ـ ترجمة مؤلفات الكفاءات العربية وطباعتها وتقديم مكافآت عادلة عن ذلك .

٨ ـ اشتراك من يرغب منهم في الضمان الاجتماعي « التأمينات الاجتماعية » المعتمد في بلدانهم العربية بما في ذلك ضمان الشيخوخة والعجز والوفاة .

ان هذه المقترحات تمثل مدخلا لاعادة الكفاءات المهاجرة ، على ان تترجم الى قررات تنفيذية تلتزم بها كل المصالح المعنية في الدول العربية وتتحمل فيها البعثات الدبلوماسية في الخارج مسؤولية هامة .

ثانيا : اقتراح سبل الحد من نزيف الكفاءات العربية :

ان نزيف الكفاءات يعتبر من اخطر القضايا التي تواجه التنمية العربية وتستدعي تضافر جميع الجهود على المستويين القطري والعربي ، وتلح في بلورة رؤية جديدة للتنمية في البلدان العربية تغير من الهياكل القائمة ، ويمكن البدء بالاجراءات التالية :

١ ـ تكثيف رعاية المبعوثين للبحث والدراسة والتدريب رعاية مادية ومعنوية والتوجيه الجاد للاستفادة من طاقات البحث والدراسة والتدريب المتاحة في البلدان العربية الاخرى ، وفي اطار الرعاية تقدم المنح الدراسية وترسل اساتذة اكفاء للاتصال بالمبعوثين ويعفى المبعوثون من تكلفة عودتهم كل سنة الى عائلاتهم ووضع برامج لاشراكهم في العمل والانتاج أثناء الاجازات الدراسية .

٢ ـ اعادة النظر جذريا في سلم الاجور والرواتب التي تمنح للكفاءات العربية في بلدانهم ، وتقديم حوافز مادية تربط بالبحث والانتاج، وتقدم الاجر المتساوي مع العمل المتساوي وترفع الحدود العليا للاجور لمكافأة البارزين من ذوي الكفاءات وتقديم الحوافز التشجيعية والتسهيلات الضريبية والجمركية للوفاء بالاحتياجات الاساسية خاصة منها المساعدات التي تكفل توفير السكن المناسب وتقديم الخدمات اللازمة لقيامهم باعمالهم على أحسن وجه .

٣ ـ احترام الجانب الانساني في الكفاءات العربية وخاصة منها حرية الراي وبشكل خاص فيما يتعلق بمجالات اختصاصاتهم الفنية .

٤ ـ اعطاء المسؤوليات الفنية للفنيين ، وان يلتزم سلم الوظائف بشرط الكفاءة التي يجب ان توضع لها معايير علمية ، دقيقة ، تبعده عن النزوات والاهواء الشخصية .

٥ ـ تقليل الشعور بالغبن بالمقارنة مع زملائهم الخبراء الاجانب العاملين في بلدانهم العربية .

٦ ـ الالتزام باستراتيجية العمل الاقتصادي العربي فيما يتعلق بسياسة البحث وتخصيص / ٣٪ / من الدخل القومي لاغراض البحث العلمي وبرمجة سياسة البحث العلمي على المستوى العربي .

وباختصار ، مادامت اسباب هجرة الكفاءات العربية نتيجة حتمية للواقع العربي وما يعانيه من تجزئة وتخلف وتبعية ، تعتبر هذه الهجرة نتيجة افرازات طبيعية من البنية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية ... الناتجة عن الخلل التنموي في هذه الاقطار العربية . ويجب ان ترتكز الحلول على الاسس التي من شأنها ان تخلق التوازن التنموي في المجتمع العربي والذي يؤدي بدوره الى الاخذ بالتخطيط العلمي ، الدقيق ، للموارد البشرية الموجودة والتي تعتبر بحق الركن الاساسي في التنمية . كذلك الاهتمام بالتفرغ العلمي والبحث العلمي المفيد واغناء المكتبات وتحديثها والعمل على الاستقرار السياسي والفكري والاجتماعي وتحسين الاوضاع المادية بحيث تتلاءم مع الجهد المبذول وحاجة المجتمع اليه .

ولا يخفى على احد من ان القاعدة الاقتصادية ، المتينة هي الدرع الواقي من الضغوط الخارجية وهي الوسيلة الاساسية ، للحفاظ على المكتسبات لاي بلد من البلدان يريد النهوض والتطور والضمانة الاكيدة لنجاح الخط الاشتراكي الذي تسلكه القيادة السياسية ، وخاصة في مرحلة التحويل الاشتراكي .

المراجـع :

١ ـ هجرة الكفاءات العربية « بحوث ومناقشات ندوة اكوا » مركز دراسات الوحدة العربية بيروت شباط ١٩٨١ .
٢ ـ مجلة الاقتصاد العدد ٢٠٦ آذار ١٩٨١ .
٣ ـ اعداد من صحيفة تشرين .
٤ ـ مجلة المستقبل العربي ١٩٨٠ العدد ١٥ .

الواقع الثقافي المصري
في زمن التطبيع

د. أحمد أبو مطر

عقب اتفاقيتي كامب ديفيد ، طرحت القيادة الاسرائيلية ، ما عرف باسم « تطبيع العلاقات » بين الطرفين المصري والاسرائيلي ، أي الانتقال بها من مرحلة العداء الى مرحلة طبيعية ، كتلك التي تحكم العلاقات بين اية دولتين متجاورتين ، تقوم بينهما علاقات طبيعية عادية ، منذ سنوات بعيدة . ولقد كانت سياسة التطبيع هذه من الامور التي نصت عليها الاتفاقيات المذكورة ، ودلل الكيان الصهيوني ، من خلال اصراره على الركض السريع في تطبيقها ، على انه يدرك النواحي التي يمكنه من خلالها احداث الخلل والازدواجية في وجدان المواطن العربي في مصر ، ومن ثم الوصول الى المواطن العربي في الساحات الاخرى ، خاصة وان عشرات الالوف من العرب يزورون مصر سنويا ، ويحتكون بالتالي بالمواطن المصري ، وربما ـ مستقبلا ـ اليهودي الذي يفترض فيه انه سيوجد في مصر يوميا .

لقد كان تبادل السفراء بين القاهرة وتل ابيب في ١٩٨٠/٢/٢٦ ، أولى الخطوات التي حققها العدو الصهيوني ، وكان رفع العلم الاسرائيلي في سماء القاهرة انتكاسة لا مثيل لها ، قابلها الشعب العربي في مصر بالشجب والاستنكار ، وكان يعبر من خلال ذلك عن اصالة انتمائه العربي، هذا الانتماء الذي تمكنت قيادة عبد الناصر ان تجيره لصالح انضاج الوعي القومي في العالم العربي ، الذي عبر عن نفسه بشكل جماهيري في العديد من المناسبات القومية . لقد كانت ردود الفعل المصرية ، في الجانب الجماهيري ، تثبت ان هذا التطبيع امر يخالف المجرى الطبيعي لحركة التاريخ العربي ، وهو امر لا يمكن ان يعترف به الوجدان المصري ، أيا كان حجم التآمر ، والكيفية التي يحاولون ان يتسللوا من خلالها ، لاشاعة ثقافة لا وطنية بين الجماهير العربية في مصر ، وقد كانت ردة الفعل الجماهيرية مضادة وعنيفة :

■ وزع حزب العمل الاشتراكي الاعلام الفلسطينية على عناصره ، في مختلف المحافظات المصرية ، ورفع شعار « مليون علم فلسطيني مقابل كل علم اسرائيلي » . وبالفعل ، قام اعضاء الحزب وانصاره والمواطنون المصريون من مختلف الفئات والطوائف ، بالصاق الاعلام الفلسطينية على الجدران ، ورفعها في الساحات والميادين ، في عمل جماهيري ، دلل على أن حركة التاريخ لا يمكن ان تتمكن قوة مهما كان حجمها ، ان تلوي عنقها.

■ « لا تتعاملوا مع الاسرائيليين » . كان عنوان البيان الذي وزعته السكرتارية العامة لحزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، يوم ١٧ فبراير ١٩٨٠ ، قبل تبادل السفراء بأيام قليلة . وقد طرح الحزب في هذا البيان عملية التزييف والخيانة التي تتم باسم السلام ، موجهة النداء للجماهير المصرية ، كي تتوقف عن كافة أشكال التعامل مع العدو الاسرائيلي .. « .. في هذه الظروف يفتح الباب للسياحة الاسرائيلية للدخول الى سوقنا ومعها الثقافة الصهيونية المدعومة،في ذلك كله بالاحتلال الاسرائيلي للارض المصرية والعربية ، في الوقت الذي تتخلى فيه اجهزة

الثقافة الرسمية عن مواجهة الغزوة الصهيونية القادمة التي تعلن صراحة عداءها لمقدساتنا الروحية والدينية .. كل هذا يتم وبلدنا مقطوعة علاقاتها مع امتنا العربية ، ونحن في شبه عزلة عنها وعن الشعوب الاسلامية وبلدان عدم الانحياز ، وهذا يفتح الطريق ليجعلنا تحت رحمة القوة الامريكية والاسرائيلية ، وانهاء دور مصر التاريخي القيادي في المنطقة ، ويهدد امن مصر المستقبلي ... ان هذا لن يقبله شعب مصر ، لانه يمس مستقبله ومصيره ومصير الاجيال القادمة ، وسوف يرفضه ويقاطعه . فلنوقف التعامل مع كل ما هو اسرائيلي : السفارة الاسرائيلية، البضائع الاسرائيلية ، السياحة الاسرائيلية ، الصحف والكتب الاسرائيلية .. وكل اوجه التعامل مع اسرائيل . ولنوقف التعامل مع كل من يتعامل مع الاسرائيليين من المصريين ، ولنعتبرهم خارجين عن الاجماع الوطني القومي لاذا لم يستمعوا الى صوت الضمير والعقل .. انها قضية مصير وضمير لكل المصريين اجمعين .. فلنوقف التعامل مع كل ما هو اسرائيلي» ــ من بيان حزب التجمع في ١٧ فبراير ١٩٨٠ .

ازاء ردات الفعل هذه ، ادرك العدو الصهيوني ، ان ابواب المواطن المصري لن تكون مشرعة امام افكاره وثقافته ، فكان لابد من سياسة النفس الطويل ، والتجوء الى سلطة النظام الحاكم ، كي يفرض بقوة القوانين ، والاجراءات التعسفية ، ما يفهمه من امور التطبيع ، وكان دوما يذكر بما نصت عليه اتفاقيات كامب ديفيد ، خاصة في المادة الثالثة تحت عنوان « العلاقات الثقافية » :

١ ــ يتفق الطرفان على اقامة علاقات ثقافية عادية بعد اتمام الانسحاب المرحلي .

٢ ــ يتفق الطرفان على ان التبادل الثقافي في كافة الميادين امر مرغوب فيه ، وعلى ان يدخلا في مفاوضات في اقرب وقت ممكن ، وفي موعد لا يتجاوز ستة اشهر بعد الانسحاب المرحلي ، بغية عقد اتفاق ثقافي .

كما نصت المادة الخامسة ، في البند الثالث على ان « يعمل الطرفان على تشجيع التفاهم المتبادل والتسامح ، ويمتنع كل طرف عن الدعاية المعادية تجاه الطرف الاخر ...» . ويتضح حجم الاجحاف ، بحق المواطن المصري ، الذي تنص عليه هذه البنود ، اذ انه من الامور غير المنطقية ان تقام علاقات ثقافية ، وتمثيل دبلوماسي بين قطرين ، يحتل احدهما أراضي القطر الاخر ، في حين ان القطر الذي يقوم بالاحتلال ، وهو الكيان الاسرائيلي ، لا يتمتع بمشروعية قانونية او تاريخية ، في وجوده المزروع عنوة في داخل الوطن العربي .

ورغم مرور اكثر من عام على فتح السفارة الاسرائيلية في القاهرة ، الا ان هذا التطبيع في العلاقات الثقافية بالذات ، مايزال يواجه بالرفض الكامل من المثقفين المصريين ، اذ يتولى المثقفون الديمقراطيون الوطنيون ، من خلال « لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية » التصدي لكافة محاولات التسلل الثقافي التي يقوم بها العدو الصهيوني ، وقد استطاعوا اقامة حركة تنوير ووعي حقيقيين ، ازاء اخطار الغزو الثقافي الاسرائيلي ، التي تهدد المستقبل الثقافي الوطني في مصر .

التطبيع الثقافي . . لماذا ؟

ان اصرار العدو الصهيوني على التطبيع في المجالات الثقافية بالذات ، ينبع من ادراكه ان المجال الثقافي ، هو المؤهل والقادر على غسل دماغ المواطن ، وتسريب الافكار والثقافة اللاوطنية الى عقله ونفسه . لذلك لا نستغرب ان يكون العمل الاول الذي قام به السفير الاسرائيلي ، عقب تسلم عمله في ١٧ فبراير ١٩٨٠ ، أن قدم شيكا لتوفيق الحكيم ، على انه قيمة حقوقه المادية العائدة اليه ، من ترجمة كتبه وطبعها في دولة الكيان الاسرائيلي ، محاولا من خلال هذا العمل فتح ثغرة في صفوف الكتاب المصريين . ورغم ذلك ، فان هذه المحاولات لم تسفر عن كسب الا توفيق وحفنة قليلة جدا من الكتاب الانتهازيين الذي عرفوا دوما بالوقوف مع

المواقف الارتزاقية ، والذين لهم ماض طويل في الانحرافات الفكرية امثال حسين فوزي ، والقليل من صغار الصحفيين الذين وجدوا ان هذا الظرف هو الوحيد الذي يوصلهم الى المناصب العليا ، من خلال التطبيل الاعمى لسياسة النظام ، امثال ابراهيم سعده ، الذي كان محررا مجهولا في جريدة « اخبار اليوم » فاذا هو رئيس لتحرير جريدة « مايو » ، التي اصدرها السادات لتنطق باسم حزبه المسمى « الحزب الوطني الديمقراطي » .

ان التطبيع في الميدان الثقافي ، كما تفهمه دولة الكيان الاسرائيلي ، وانسجاما مع البنود السابقة من اتفاقيات كامب ديفيد ، تعني في التطبيق العملي :

١ ـ اعادة كتابة التاريخ العربي ، لتزييف العديد من الحقائق والبديهيات التاريخية المتعلقة بالطريقة الاستعمارية الاستيطانية التي اقحمت الكيان الصهيوني في الوطن العربي ، حيث اقامت دولته اسرائيل على الارض العربية في فلسطين ، بعد تشريد اغلبية شعبها .

٢ ـ التوقف عن تدريس الادبيات والوثائق والنصوص المعادية لليهود والصهيونية ودولة اسرائيل ، حتى الوارد منها في بعض الكتب المقدسة كالقرآن الكريم ، وذلك انسجاما مع المادة الخامسة من مواد اتفاقيات كامب ديفيد ، التي تنص في بندها الثالث على ان « يسعى الطرفان الى تطوير تفاهم وتسامح متبادلين ووفقا لذلك يمتنعان عن تقديم الاعلام المعادي كل للاخر » .

ان هذه الامور تبدو من وجهة النظر الاسرائيلية في غاية الاهمية ، ويجب البدء بتنفيذها فورا ، لانها ترتبط بمواد اخرى من الاتفاقية ، سبق الاشارة اليها ، وهي المتعلقة بابرام معاهدات ثقافية ، واقامة تبادل ثقافي بينهما . اذ من غير المعقول ان يقوم تبادل ثقافي بين ثقافتين ، تنظر احداهما للاخرى على انها ثقافة تخريبية ومعادية . لذلك يتوقع ـ في حال

استمرار هذه الظروف التطبيعية ــ ان يبدأ النظام المصري ، حملة تمشيط لكافة البرامج التعليمية ، والمؤلفات المدرسية والجامعية ، كي يعاد توليفها بطريقة تصبح منسجمة مع روح اتفاقية الكامب اللاوطنية، وقد بدأت اجهزة الاعلام الرسمية بالكف عن استعمال كلمتي « العدو الصهيوني » و « العدو الاسرائيلي » ، وحل محلهما ما يسمى « دولة اسرائيل » و « حكومة اسرائيل » . كما بدأت الصحف والمطبوعات الاسرائيلية ، تدخل القاهرة ، وتوزع يوميا في اغلب المحافظات ، خاصة الاسكندرية والقاهرة .

الخطورة المستقبلية

ان هذه الامور الطارئة في الساحة المصرية ، تشكل ــ في مجمل توجهاتها ــ خطورة كبيرة ، وهي لذلك تحتاج الى دراسات اجتماعية ونفسية ، لانها ليست من الامور السطحية العابرة ، ولكنها تتعلق بكيفية تشكيل وجدان الطفل والطالب المصري ، وتحدد بالتالي انتماءاته وتوجهاته . ان دراسة اولية لهذه الترتيبات الطارئة ، تنفيذا للاتفاقيات المعقودة ، تشير الى امور خطيرة ، اذا ما استمرت سياسة التطبيع ، وفق المفاهيم الاسرائيلية ، التي تضغط بكل قواها ، وبشكل ابتزازي .

١ ــ البدء بتلقين الاطفال والطلاب المصريين ثقافة لا وطنية ، تتعامل مع العدو الصهيوني ، على اعتبار كونه جارا طبيعيا ، وهذا يعني أنه يتمتع بوجود شرعي في المنطقة العربية ، سكانا وارضا ، له ما للجار من حقوق وواجبات . ان هذا الامر يعني ظهور جيل عربي ــ في مصر ــ ممسوخ الهوية ، فاقد الانتماء الحقيقي ، مضلل الاراء والتوجهات .

٢ ــ ظهور الانقسام في الراي ، والازدواجية في الموقف ؛ بين هذا الجيل من الاطفال والطلاب المصريين ، والجيل السابق له الذي تربى وترعرع في ظل المد الناصري ، حيث تشبع بالمفاهيم القومية التي كان

المحور الاساس في استراتيجيتها يقوم على تحرير الوطن العربي من كافة اشكال النفوذ الاجنبي ، بما فيه الاستعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين . كيف يتعايش هذا الجيلان ، وهما يحملان فكرا متناقضا ؟ . الجيل الحالي الذي يتلقى تربيته وتعليمه في ظل المفاهيم اللاوطنية ، سوف يتعلم النظر الى دولة اسرائيل على انها جارة طبيعية ، لها شرعية باقي دول المنطقة ، في حين ان الجيل الذي سبقه ، ومايزال يعيش معه، تلقى ثقافة وتربية وطنيتين ، ينظر من خلالهما لهذه الدولة على انها غازية محتلة ، يجب اقتلاعها وتصفية وجودها الاستيطاني .

٣ ـ ان خطر هذه المفاهيم اللاوطنية ؛ لا يقتصر على القطر المصري وحده ، بل ان بقية الساحات العربية مهددة بتسلل هذه المفاهيم ، وما يتبعها من ممارسات ومواقف ، وذلك من خلال الاحتكاك والتعايش مع المواطنين المصريين في الساحة المصرية ، عبر الزيارات وحركة السياحة الى مصر . ان السائح العربي ، سوف يألف مرة واخرى منظر اليهودي في القاهرة ، ويبدو الامر عاديا مع تكراره ، وهذا من شأنه تخفيف حدة التعبئة المعنوية التي تحفز لتوجيه الطاقات العربية نحو خدمة القضية المركزية للامة العربية . ان هذا الامر تعيه الادارة الاسرائيلية ، لذلك حظيت حركة السياحة والانتقال بين مصر ودولة اسرائيل ، بقسط ملموس من بنود اتفاقيتي كامب ديفيد ، وهي بنود تسعى الى تحقيق التعايش الطبيعي ، والنظرة العادية للمواطن الاسرائيلي في مصر ... فقد نصت بعض هذه البنود على ما يلي :

■ **الفقرة (جـ) من البند الثالث :**

« يتفق الطرفان بأن شبكة العلاقات العادية التي سوف تقوم بينهما ، ستتضمن اعترافا كاملا ، وعلاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية ، ووضع حد للمقاطعات الاقتصادية ولحواجز التفرقة والتمييز ، التي تعترض تنقل الاشخاص والبضائع ، وتضمن التنفيذ المتبادل لاجراءات قانونية منطقية لمواطنيها ولرعايا الجانب الثاني ،والمسيرة التي بواسطتها يتعهد الطرفان بتطبيق شبكة العلاقات هذه » .

■ البند الرابع من الملحق رقم (٣) ــ الفقرة (آ)

« مع استكمال الانسحاب المرحلي ، يسمح كل طرف بحركة تنقل حرة لرعايا وآليات الطرف الثاني الى اراضيه وفي اراضيه وفقا للقوانين المرعية ازاء رعايا وآليات الدول الاخرى . ولا يقوم اي طرف بفرض قيود مميزة على حرية تنقل الاشخاص والآليات من اراضيه الى اراضي الجانب الاخر » .

■ البند السادس من الملحق (٣) ــ الفقرة (هـ)

« يفتح الطرفان من جديد ويشقان طرقا وسككا حديدية بين بلديهما، ويفحصان امكانية اقامة اتصالات طرق وسكك حديدية اضافية بينهما » .

■ البند السادس من الملحق رقم (٣) ــ الفقرة (و)

« مع استكمال الانسحاب المرحلي تقام بين الاطراف اتصالات عادية بريدية وهاتفية وتلكس ، ولنقل معطيات وخدمات لاسلكية وكابلات ، ومحطات ارسال تلفزيوني بواسطة كابلات وراديو واقمار صناعية . وفقا للمعاهدات والقوانين الدولية ذات العلاقة بالامر » .

هذا بالاضافة الى بنود وفقرات اخرى ، تضمنتها الاتفاقية وملاحقها تهدف الى تسهيل وتسريع التسلل الى الشارع العربي في مصر ، بشكل يجعل الوجود اليهودي في المنطقة طبيعيا وشرعيا ، ومألوفا من المواطن المصري ، ومن بعده المواطن العربي القادم للسياحة او الاقامة في مصر .

جدوى المقاطعة العربية

ان هذه الامور ، تطرح للمناقشة بشكل جدي ، موضوع المقاطعة العربية لمصر ، تلك المقاطعة التي صدرت بشأنها قرارات من مؤتمر قمة بغداد عام ١٩٧٩ . لقد اتفق على مقاطعة النظام المصري ، بسبب اعترافه

بالعدو الاسرائيلي ؛ وبالتالي مقاطعة الشركات والافراد الذين يتعاملون معه . ان المقاطعة وعدمها من السلبيات ، ما يجعلها بحاجة لدراسة متأنية للاخذ بالجانب الاقل في السلبيات . ان عدم مقاطعة النظام جريمة لا يمكن السكوت عليها ، لانها تسوغ العمل الخياني الذي قام به ، وهذا من شأنه ان يشجع انظمة اخرى ، للالتحاق بنفس المسيرة الخيانية ، ويؤيد هذا الافتراض ان بعض الانظمة العربية قد ايدت النظام المصري في هذه الخطوات ،ودافعت عنه ،وسارت عمليا في نفس المسار ،خاصة. فيما يتعلق باعطاء التسهيلات للوجود العسكري الامريكي في المنطقة العربية

اما المقاطعة الشاملة للنظام المصري ؛ فهي تحمل بعض السلبيات التي تخدم المخطط الامبريالي المرسوم لمستقبل مصر ، لان هذه المقاطعة تعني ترك الساحة المصرية تعيش في فراغ عربي ،وتصبح مرتعا اقتصاديا وثقافيا للادوات الامبريالية ، التي تحلم بسلخ مصر ــ بشكل نهائي ــ عن امتدادها العربي . ان خلو الساحة المصرية من الوجود العربي ، بأشكاله المختلفة ، يخدم هذا المخطط ، ويترك المواطن المصري تحت تأثير وجهة نظر واحدة ؛ في وقت تسيطر اجهزة الاعلام الرسمية ، على كل القنوات الاعلامية والثقافية . انه من الخطورة ان يترك المواطن المصري لتأثيرات اكاذيب وتضليلات الصحافة الرسمية كجريدتي « الاهرام » و « مايو » وجريدة « الانباء » الاسرائيلية بالعربية ، رغم ان كافة المصادر الوطنية تؤكد ــ حتى الان ــ العزوف الكامل للقارىء المصري عن شرائها .

دور القوانين والتشريعات التعسفية

ان البنود والفقرات التي سبق ذكرها ـ من اتفاقيتي كامب ديفيد وملاحقهما ، ليس من السهل تطبيقها وتحقيقها في الشارع المصري ، لان عمق الوجود العربي والانتماء القومي لدى المواطن المصري ، وبالذات طلائعه المثقفة ؛ لا يمكن التغلب عليه ونقله الى النقيض بسهولة . لذلك يلجأ النظام المصري الى سن القوانين والتشريعات التعسفية الجائرة ، التي تسهم في خدمة هذا المخطط . عن طريق تقييد حرية الصحافة والحد

من الاعمال الجماهيرية والنشاطات السياسية المعارضة ، ويتم ذلك بقوانين تشرع باسم « الديمقراطية » ، وتطبق بطريقة تجعلها ديمقراطية النظام ورموزه ، ومن يدور في جاذبيتهم ، اما اشخاص المعارضة ، فعند تطبيق هذه الديمقراطية عليهم ، يتضح لنا ان الامر مختلف ، واننا بها ديمقراطية « المفرمة » كما يقولون. ان مناقشة هذه القوانين امر ضروري، كي ندرك صعوبة الاوضاع التي يعيشها المواطن المصري ، وحجم المعاناة والتضييق اللذين تتحرك من خلالهما حركة المعارضة بشقيها السياسي والثقافي .

١ ــ القرار الجمهوري رقم (٢) لسنة ١٩٧٧ :

وهو القرار الذي صدر في ٣ فبراير ١٩٧٧ ، في اعقاب الانتفاضة الجماهيرية التي شهدتها مصر في ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧(١) . وهذا يعني انه جاء ليحاكم الحالات المشابهة لتلك الانتفاضة ، والحد منها ، عن

(١) من المفيد ان نذكر ان النظام المصري اطلق على هذه الانتفاضة الجماهيرية اسم « انتفاضة الحرامية » مذكرا بما صاحبها من عمليات تخريب وحرائق ، اثبتت تحريات المعارضة ، انها كانت من فعل اجهزة النظام ، كي يجد المبرر لقمع هذه الانتفاضة . وقد جاء حكم محكمة امن الدولة الصادر في ١٩ ابريل سنة ١٩٨٠ [امن الدائرة التي يراسها المستشار منير صليب] ليكذب اقاويل وتسميات النظام ، فقد تحدث هذا الحكم بالتفصيل عن المتاعب والمعاناة التي كانت تطحن الشعب ، وشكلت ــ في راي المحكمة ــ السبب المباشر لحوادث هذين اليومين . لذلك قضى الحكم ببراءة كل المتهمين في القضية ، فيما عدا (١٩) منهم ، تراوحت الاحكام الصادرة بحقهم بين سنة وثلاث سنوات . وقد شملت احكام البراءة الكتاب والشعراء والصحفيين المتهمين في القضية وهم : عزت عامر ، محمود الشاذلي ، فريد زهران ، هشام عبد الفتاح ، محمود توفيق ، عبد القادر شهيب ، رشدي ابو الحسن ، عريان نصيف ، زهدي العدوي ، سمير عبد الباقي ، حسين عبد الرازق ، زين العابدين فؤاد ، صلاح عيسى ، احمد فؤاد نجم ، وحكم على الشاعر حمدي عبيد بالحبس لمدة سنة . وقد تضمنت اسباب الحكم عددا من المبادىء القانونية الهامة ،
←

طريق العقوبات الصارمة المشددة،وكي يعطي هذاالرقار طابعا جماهيريا، اجري حوله لاستفتاء المشهور في ١٠ فبراير ١٩٧٧ ، الذي كان فاتحة سلسلة من الاستفتاءات ، ما انفك النظام يلفقها ، كلما وجد نفسه امام

→

= كما تضمنت تقييما لاحداث ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، حيث خلصت المحكمة من دراسة الظروف التي احاطت بهذه الاحداث ، الى انها كانت نتيجة مباشرة لقرارات رفع الأسعار ، وحدثت بصورة تلقائية دون تحريض او استغلال للموقف . كما استندت المحكمة الى عدم توافر ركن العنف ، للحكم ببراءة كل المتهمين بعضوية التنظيمين السريين اللذين كانا موضع الاتهام وهما : الحزب الشيوعي المصري وحزب العمال الشيوعي . وقد وجهت المحكمة في أسباب حكمها نقدا حادا لاجهزة جمع الإستدلالات ، لما شاب عملها من قصور ، وقال ان التحريات المتبعة من مباحث أمن الدولة تنتمي الى مصادر مجهولة ، مما يجعلها موضعا للظن . واشارت أسباب الحكم ايضا ، الى أن محاضر تحريات المباحث قد طلبت الإذن بالقبض على اشخاص باعتبارهم مشاركين في الاحداث المذكورة ، لم اتضح انهم توفوا او بالخارج ، بل استصدرت أوامر بالقبض على اشخاص ثم طلبت الافراج عنهم ، بعد ان اتضح لها انهم من مصادرها السرية .

ومن الامور الطريفة في هذا الحكم تلك الحيثيات التي استندت اليها المحكمة لتبرئة الشاعر احمد فؤاد نجم ، فقد ذكر الحكم أنه لم يقم دليل من الأوراق تطمئن اليه المحكمة على أن الأقوال التي رددها المتهم قد تضمنت أخبارا كاذبة او اشاعات مغرضة ، أو حضا على كراهية النظام القائم او الازدراء به ، وفضلا عن ذلك فان كلمات القصائد المنسوبة الى المتهم ، وطبقا لما هو وارد في اوراق الدعوى ، حافلة بالتشبيهات والرمزيات لدرجة أن النيابة العامة قد وصفت واحدة من هذه القصائد بالغموض ... وما دامت قصائد المتهم على هذا الحال من النسيج اللفظي ، فلا ينبغي بحال اعتصار كلماتها لانتزاع دليل منها على مناهضة النظام القائم وعلى قيام المتهم بالتحريض على كراهيته والازدراء به ، وينبغي حملها على حقيقتها باعتبارها كلمات لشاعر اتسم بجموح الخيال ، ولاعجب في ذلك ، فالشعراء في كل واد يهيمون ، والظاهر ان المتهم من قبيل هؤلاء الشعراء ، مما يجعل المحكمة تضرب الذكر صفحا عما اسند اليه ، اذ لا جريمة فيه

راجع مناقشة بعض فقرات هذا الحكم في مجلة « الثقافة الوطنية » المصرية ، الجزء الثاني ، يناير ١٩٨١] .

مأزق معين ، وانفضاض الجماهير من حوله(٢) . وقد اطلق على هذا القرار أسم « قانون حماية أمن الوطن والمواطنين » ، وجاء متضمنا من المواد ما يعطي الدولة واجهزتها حق القمع باسم « حماية الوطن » . واخطر ما فيه المواد التالية التي تشكل الغرض الذي جاء القانون من اجله ، وهو ضمان عدم تكرار الانتفاضة الجماهيرية المذكورة ، وردع القائمين بها اذا تكرر حدوثها ... هذه المواد هي :

المادة (٦) : يعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة كل من دبر او شارك في تجمهر يؤدي الى اثارة الجماهير بدعواتهم الى تعطيل تنفيذ القوانين واللوائح ، بهدف التأثر على ممارسة السلطات الدستورية لاعمالها او منع الهيئات الحكومية او مؤسسات القطاع العام او الخاص او معاهد العلم من ممارسة عملها باستعمال القوة او التهديد باستعمالها . وتطبق العقوبة على مدبري التجمهر ، ولو لم يكونوا مشتركين فيه وعلى المحرضين والمشجعين .

المادة (٧) : يعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة العاملون الذين يضربون عن عملهم عمدا متفقين في ذلك او مبتغين تحقيق غرض مشترك ، اذا كان من شأن هذا الاضراب تهديد الاقتصاد القومي .

(٢) « رغم ان الاستفتاء مفروض فيه ان يكون ارقى شكل من اشكال المشاركة الشعبية ، الا انه بالطريقة التي يتم بها في مصر ، عدوان سافر على حق الشعب في المشاركة الديمقراطية ... فبالاضافة الى التدخل الاداري السافر ، فالاستفتاءات اتتم في كل مرة حول موضوعات مختلفة متناقضة يستحيل الاجابة عليها كلها بنعم او لا ... وتتم دون اي حوار حولها ، بل تكرس اجهزة الدعاية والاعلام لفرض راي الحكومة واجبار المواطنين على التصويت بنعم » جريدة الوطن الكويتية ١٩٨٠/٦/١ . كما ان « العالم كله ـ وليس المصريين وحدهم ـ اصبح يعرف كيف يزور الاستفتاءات بطريقة فجة ومفضوحة ، فنسبة الذين يدلون باصواتهم عادة لا يتجاوز ١٢٪ من الذين يحق لهم التصويت . والصناديق تملأ بالاصوات المزورة علنا ، والنتيجة دائما ٩ر٩٩٪ » مجلة دراسات عربية ، العدد (١١) سبتمبر ١٩٨٠ ص ٥٢ .

المادة (٨) : يعاقب بالاشغال الشاقة المؤبدة كل من دبر او شارك في تجمهر او اعتصام من شأنه ان يعرض السلم العام للخطر .

ان هذه المواد الثلاث ، لا تحتاج الى مناقشة ، فنصوصها تكشف المراد منها ، رغم الصياغة الضبابية التي توهم انها جاءت من اجل الصالح العام ، في حين انها جاءت لتكبح ولتحاكم جماح الصالح العام (الجماهير) اذا ما فكرت في التحرك ضد النظام الذي يصادر حريتها ويستولي على مصالحها لحساب رموزه .

٢ ــ قانون العيب :

لم يثر قانون او قرار في مصر ، ما اثاره قانون « حماية القيم من العيب » من مناقشات حامية ، اتفقت في مجملها ــ على اختلاف مواقف اصحابها وانتماءاتهم ــ على رفض هذا القانون ، وقد كان هذا الرفض الجماعي دليلا واضحا على ماشعر به الجميع من خطورة هذا القانون ، وبالذات لانه جاء في فترة يعاني فيها النظام من مأزق متعددة في المجالات الداخلية والخارجية . من الداخل ، تفاقمت الازمة الاقتصادية بشكل واضح ، ادرك معه الشعب استحالة الوصول الى الرخاء المزعوم ، الذي يعد به النظام ، رغم توفر دخول مالية جديدة ، وظروف تمكنه من تحقيق هذا الرخاء ، واهمها :

١ ــ توقف الحرب منذ تسع سنوات تقريبا ، بمعنى ان النظام لم ينفق خلال هذه الفترة اية اموال على التسليح ، ولم تتحمل الخزينة مصاريف حربية طارئة ، دون ان تتحسن ظروف المواطن الحياتية . وتعود اهمية هذا الظرف الى ان النظام كان يدعي دوما ان سوء الوضع الاقتصادي في البلاد ، يعود الى الحرب المتصلة ضد اسرائيل طيلة ثلاثين عاما ، واوهم الجماهير المصرية ان السلام مع اسرائيل هو المدخل للرخاء الاقتصادي والاجتماعي ، ادراكا منه للضغوطات التي يشكلها العامل الاقتصادي على نفسية المواطن المصري . ان مرور تسع سنوات على توقف الحرب مع

اسرائيل ، واربع سنوات على قيام الصلح والسلام معها ، دون تحسن الوضع الاقتصادي للمواطن ، في فترة ما سمي « الانفتاح » بالذات ، جعله يدرك عمليا كذب وعود النظام ، خاصة رؤيته لظهور طبقات طفيلية جديدة، تمكنت من تكوين ثرواتطائلة على حسابالقوت اليومي للمواطن والبناء الاقتصادي العام للدولة ، وهي الطبقة التي اطلقت عليهاالصحافة « القطط السمان » .

٢ ـ اعادة فتح قناة السويس منذ تسع سنوات ، واصبح دخلها الذي يزيد عن الف مليون دولار سنويا ، مبلغا مضافا للدخل القوميالعام، وهو مبلغ لايستهان به في خطط التنمية الاقتصادية .

٣ ـ عودة آبار النفط المصرية في سيناء الى الملكية المصرية ، بعد توقيع معاهدتي كامب ديفيد ، وهذا يعني ان هذه الابار العائدة ، اراحت الخزينة المصرية من الاموال التي كانت تنفق لاستيراد الحاجات النفطية ، وبدات توفير كميات التصدير ، نصت ملاحق الاتفاقيات المذكورة ، على اولوية اسرائيل في شرائها بالاسعار التجارية (٣) .

ان توفر هذه الظروف الثلاثة ، كان يجب ان يسهم بشكل سريع وواضح في تحسين احوال الاقتصاد المصري بشكل ينعكس على الحياة اليومية للمواطن ، الا انه لاحظ الارتفاع الهائل لاسعار كافة الموادالتموينية ورفع الدعم الحكومي عن اغلبها ، مما جعله يتأكد ان مايقال في اجهزة

(٣) نصت مذكرة ملحقة باتفاقيتي كامب ديفيد على انه وفقا للعلاقات الاقتصادية المنصوص عليها في الملحق رقم (٣) .. « يتفق الطرفان على ان هذه العلاقات تتضمن مبيعات تجارية عادية للنفط من جانب مصر لاسرائيل ، ويكون لاسرائيل الحق بان تقدم عروض شراء نفط مصدرة من مصر ، على ان لا يكون مطلوبا لاستهلاك داخلي في مصر ، ويمكن لمصر ولاصحاب امتيازات النفط في مصر ان يدرسوا الاقتراحات التي تقدمها اسرائيل ، على نفس الاساس وبنفس الشروط التي تنطبق على اصحاب العروض الاخرين لشراء نفس النفط » .

الاعلام الرسمية ، وعلى السنة المسؤولين الحكوميين ، عن الرخاء القادم، مجرد اكاذيب للاستهلاك المحلي ، يقصد منها تخدير المواطن ، ونزع فتيل الغضب والانفجار من نفسيته التي بدأ نقدها واحتجاجها ، يصل الـى الشارع عبر النكتة المشهورة بأنها التعبير الجماهيري عن احوال البلاد ، من نواحيها كافة ، ومن خلال عشرات الدوريات والنشرات التي بدأت تجمعات الشباب ، تصدرها في اغلب المحافظات (٤) ، لذلك كان رئيس النظام السادات [تم اغتياله في ٦ اكتوبر ١٩٨١] يؤجل موعد الرخاءالمنتظر من عام الى آخر .

اما في الخارج ، فقد وقع النظام المصري في عزلة عربية واسلامية ، وانتقادات عديدة من اطراف دولية ، لان اقدامه على توقيع الاتفاقية الاستسلامية مع العدو الصهيوني ، ثم على حساب التفريط بحقوق الشعب الفلسطيني . وبدا للجميع في مصر وخارجها ، ان النظام الحاكم قد اعطى للحركة الصهيونية اكثر مما كانت تتوقعه ، لان ماحدث كـان مغايرا لمجرى حركة التاريخ ، اياً كانت وجهة النظر التي يتبناها المحلل والدارس . وقد تمثلت عزلة النظام ، وفداحة الجريمة التي ارتكبها ، عندما تم طرده من الجامعة العربية ، ونقل مقرها الى تونس ، وطرده من منظمة المؤتمر الاسلامي ، ورفض وصول وفده الى مؤتمرها الاول الذي عقد بعد توقيع الاتفاقيات الخيانية ، ذلك المؤتمر الذي انعقد في المغرب في بداية العام ١٩٧٨ ، وقد حاول النظام التسلل الى اوساط المؤتمـر عبر ممثله حسن التهامي ، الذي اثبتت الوقائـع انـه كان وراء اغلب الاتصالات التمهيدية ، التي ادت الى زيارة السادات لفلسطين المحتلة ، وما اعقبها من صفقات خيانية .

لقد وضعت هذه الظروف الداخلية والخارجية ، في موقف حرج ، جعله يقدم منذ فبراير ١٩٧٧ على سن مجموعة من القوانين والقرارات،

(٤) تحتاج دراسة هذه الظاهرة وقفة اخرى طويلة ، نامل ان نقدم خلالها وجها وطنيا مشرقا للثقافة المصرية غير الرسمية .

تهدف اساسا الى تضيق نطاق الحريات ، وقمع الاصوات المعارضة ، سواء كانت لافراد ام لنقابات ام لاحزاب سياسية . وقد كان اخطرها « قانون العيب » الذي يتكون من (٤٤) مادة ، تتعلق بمسؤولية المدعى الاشتراكي عن تامين حقوق الشعب وسلامة المجتمع ونظامه السياسي ، وامور اخرى ، تدور كلها حول كيفية حماية نظام الحكم واطالة عمره ، عن طريق خنق المعارضة بكافة اشكالها ، وتجريم اعمالها ومواقفها باسم القانون . ولقد تعمد واضعو القانون ان تأتي صياغته في عبارات غامضة، والفاظ مطاطية ، بحيث تسمح بنوده باستيعاب كافة الامور والحالات المعارضة لسياسة النظام ، ووضعها تحت طائلة العقوبة الصارمة . كما ان العديد من هذه الامور والحالات التي حددها القانون ، هي نسبية ، تختلف النظرة اليها من فرد الى آخر ، لانها تتعلق بالقيم والاخلاق ،التي هي في الاساس ــ ومنذ القديم ــ امور تختلف مقاييسها باختلاف نزعات الافراد وميولهم ومعتقداتهم ، بالاضافة الى عوامل الزمان والمكان ، المتغيرة دوما .

ان المادة الثالثة من هذا القانون ، تبين سوء النية المسبق لدى واضعه وقصده المتعمد في صياغة ضبابية فضفاضة ، تكون قادرة على استيعاب ومحاكمة كل اقوال المعارضة وافعالها . فقد نصت هذه المادة على مايلي : « يسأل كل مواطن ارتكب احد الافعال الاتية :

١ ــ الدعوة الى اي من المذاهب التي تنطوي على انكار للشرائع السماوية او تتنافى مع احكامها .

٢ ــ الدعوة الى مناهضة قيم الدولة السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية او الى كراهيتها او الازدراء بها او الى سيطرة طبقة اجتماعية على غيرها من الطبقات او الى القضاء على طبقة اجتماعية .

٣ ــ تحريض النشء او الشباب للانحراف نتيجة للدعوة الى التخلي عن القيم الدينية او الخلقية او الوطنية او القدرة السيئة في المجالات العامة .

٤ ــ اذاعة او نشر اخبار او بيانات كاذبة او محرضة من شأنها اثارة الرأي العام او بث الحقد والكراهية او تهديد الوحدة الوطنية او السلام الاجتماعي .

٥ ــ اذاعة او نشر عبارات او رسوم شائنة او متطرفة من شأنها خدش الشعور العام او النيل من هيبة الدولة او مؤسساتها الدستورية

٦ ــ تكوين تنظيم غير مصرح به قانونا او الدعوة له او الانضمام اليه او التخفي وراء تنظيم متى كان الهدف من ذلك كله تهديد الوحدة الوطنية او السلام الاجتماعي .

٧ ــ الاذاعة او النشر في الخارج لاخبار او بيانات كاذبة او مغرضة من شأنها الاساءة الى النظام السياسي للدولة او وضعها الاقتصادي او التاثير في علاقاتها بغيرها من الدول » .

ويتضح من هذه البنود الواردة في المادة الثالثة ، عدم تحديدها الدقيق الواضح للامور التي يسأل عنها المواطن ، ويحاسب عليها ، بالاضافة الى عموميتها ، التي يمكن ان تحشر فيها كافة الاعمال المعارضة تحت طائلة هذا القانون . فاذا توقفنا امام البند الثاني فقط ، ظهر لنا سوء القصد المسبق من وضع هذا القانون . يقول هذا البند عن امر من الامور التي يعاقب عليها المواطن : « الدعوة الى مناهضة قيم الدولة السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية او الى كراهيتها او الازدراء بها .. » . ان هذا يعني تجريم اي نقد لسياسة الدولة في المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، لان اي نقد او تفنيد لاوجه الاهمال والقصور والتبديد الحكومّي غير المشروع ، ينطبق عليه هذا البند . وفي المستوى التطبيقي العملي ، تعني هذه المادة بنصها الوارد في القانون ، انه ليس من حق اي مواطن او هيئة نقابية او تجمع حزبي ، ان يرد على بيانات الحكومة ، ويفند مواقفها واعمالها ، لان هذا معناه « مناهضة قيم الدولة » و « ازدرائها » . ان بنود المادة

الثالثة منافية للقيم كافة ، وعدوان صارخ على الحقوق الاساسية للمواطـن .

اما العقوبات التي وضعها قانون العيب ، لمن يقع تحت طائلة بنوده : فهي عقوبات تعيد الى الاذهان احكام القرون الوسطى ، وقوانين الاحتلال البريطاني . فقد نصت المادة التاسعة ، على ان من تثبت مسؤوليته وفقا لمادة من مواد هذا القانون ، يحكم عليه بتدبير او اكثر من التدابير التالية :

١ ــ الحرمان مدة لا تجاوز خمس سنوات من كل او بعض الحقوق الآتيـة :

آ ــ الترشيح لعضوية المجالس النيابية العامة او الشعبية او المحلية

ب ــ الترشيح لرئاسة او عضوية مجالس ادارة التنظيمات النقابية او الاتحادات او الاندية او الهيئات او الشركات المساهمة او المؤسسات الصحفية او الجمعيات التعاونية او الاستمرار فيها .

جـ ــ تأسيس الاحزاب السياسية او الاشتراك في ادارتها او عضويتها.

د ــ مزاولة النشاط الاقتصادي الذي وقع الفعل بمناسبته : او الاشتغال بالمهن الحرة المنظمة بقوانين ، والتي لها تأثير في تكوين الراي العام او تربية النشء او الاقتصاد القومي .

١ ــ المنع من الوظيفة العامة مدة لا تجاوز خمس سنوات .

٣ ــ المنع من مغادرة البلاد مدة لا تجاوز خمس سنوات .

٤ ــ الزام الشخص بالاقامة في مكان معين او جهة معينة او حصر اقامته او تواجده بها مدة لا تجاوز خمس سنوات .

٥ ــ منع الشخص من التصرف في امواله كلها او بعضها او ادارتها مدة لا تجاوز خمس سنوات .

ان هذه الاجراءات والعقوبات التي جاء بها قانون العيب ، رغم مخالفتها الاولية الواضحة ، لابسط مبادىء حقوق الانسان ، الا انها تصر على الامعان في القمع والاضطهاد وكبت الحريات ، خدمة لمصالح النظام الحاكم وبقائه ، فهي تضيف الى ما سبق جواز « مضاعفة الحد الاقصى لمدة التدابير المنصوص عليها في البنود السابقة ، وذلك في حالة العود او اذا ترتب على الفعل الموجب للمسؤولية إضرار بمصلحة قومية البلاد ، ويعتبر عائدا كل من ارتكب فعلا مما يترتب المسؤولية لاحكام هذا القانون بعد الحكم عليه في المرة الاولى » . ويكفي لبيان ارهاب هذا القانون ، ان نتوقفامام ما يسميه « الاضرار بمصلحة قومية البلاد » والذي يستوجب مضاعفة العقوبة المذكورة . ما الموقف من قضية « الصلح مع العدو الاسرائيلي » ؟ . يرى النظام الحاكم ، ان هذا الصلح يحقق المصلحةالقومية البلاد ؛ في حين ان افراد وهيئات واحزاب المعارضة ، ترى في هذا الصلح تفريطا بالحقوق والسيادة المصرية ، وتنكرا للحقوق التاريخية المشروعة للشعب الفلسطيني ، لذلك فهي ترفضه وتقاومه . ان هذا يعني ـــ في مفهوم القانون المذكور ـــ ان كل من يخالف ويناوىء الصلح مع العدو الاسرائيلي ، سيجد نفسه تحت طائلة عقوبات هذا القانون المشددة والمضاعفة . انه قانون يجرم ويحرم ويمنع ويقمع كل انواع النشاط ، وكما قال بيان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي: « انالافعال المحرمة في مشروع هذا القانون، حسب النصوص الفضفاضة الواردة فيه ، يندرج تحتها كل نشاط فكري وفني وادبي وعلمي وسياسي ، يقوم به المواطنون المهتمون بالشؤون العامة . والهدف منه هو قتل كل تحرك ومبادرة لا يوافق عليها الحزب الحاكم (النظام) . كما ان العقوبات الواردة بمشروع هذا القانون تحرم المواطن من اهليته السياسية بمنعه من الانضمام للاحزاب وحق الترشيح للمجالس النيابية والمحلية والنقابات والهيئات وتحرم المواطن من اهليته المدنية وحقه في ادارة امواله وفي بعضالاحوال مصادرتها ، ثم حرمان المواطن من حقوق الانسان الطبيعية بمنعه من السفر الى خارج البلاد وتحديد اقامته في منطقة معينة او منعه من

الاقامة في منطقة معينة ... وكل هذه العقوبات تخالف الشرائع السماوية والميثاق العالمي لحقوق الانسان ودستور ١٩٧١ . وهذه العقوبات موجهة ليس فقط للمعارضين السياسيين ، بل موجهة ضد كل من تتعارض مصالحه الاقتصادية ونشاطه الاقتصادي مع رجال الحزب الحاكم وقيادته » — من بيان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي حول هذا القانون —

لذلك قوبل هذا القانون بمقاومة شديدة من الافراد والهيئات النقابية وغالبية اعضاء مجلس الشعب ، ومن بينهم اعضاء من حزب الحكومة ، اذ ادرك الجميع خطورة هذا القانون ، وقصده المسبق المتعمد خنق الحريات وارهاب كل الاصوات المعارضة لسياسة النظام الحاكم ، وهذا دليل واضح على مأزق النظام الخانق ، وعزلته داخليا وعربيا ، ومدى تخوف الافراد والهيئات والنقابات والاحزاب المصرية من جور هذا القانون وظلمه الواضحين :

■ كان اشد هجوم عليه ، وتفنيد له ، تلك الحملة الواسعة في الصحافة وبين الجماهير ، التي نظمها وقام بها « حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي » .. ومما جاء في بيان الحزب السابق الذكر .. « ان الحكومة كلما اشتدت عزلتها عربيا وعالميا ، وكلما تعقدت امامها المشاكل الداخلية — نتيجة ما تتبعه من سياسات اقتصادية — لجأت الى مزيد من التشريعات المقيدة للحرية . وقد ازدادت عزلة مصر عربيا واسلاميا وفي العالم الثالث ، بعد ان انتهجت السياسة الجديدة التي جعلتها منحازة تماما الى المعسكر الامريكي والصهيونية العالمية . وقد بدأت في الداخل ايضا موجة التأييد لسياسة الحكم فيما يقال له السلام مع اسرائيل تنحسر ، وبدأت الشكوك حول نتائج هذه السياسة تتزايد ، وبدأت الاصوات المعارضة من اتجاهات كثيرة تتصاعد ، في الوقت الذي تستمر فيه الحكومة وباصرار في دفع ما يقال له تطبيع العلاقات مع اسرائيل دفعا الى مراحل من التنفيذ غير المتأني ، على حين ان اجزاء

من ارض الوطن مازالت محتلة وما تم عنه الجلاء من سيناء مازال عاريا من الحماية الحقيقية ، ومازالت السيادة عليه منقوصة . وفي مواجهة ذلك كله وجدت الحكومة نفسها مرغمة على مزيد من اجراءات قمـع الحريات وتكميم الافواه ، بل والتفتيش في المعتقدات والاراء والضمائر بغية تجريمها .. ومن ثم تفتق ذهنها عن مشروع القانون الذي اطلـق عليه اسم « حماية القيم من العيب » .

■ الدكتور حلمي مراد(٤) ، كتب مقالا في صحيفة « الشعب » الناطقة باسم حزب العمل الاشتراكي ، نقد فيه القانون ، واعتبـر الاساس الذي يقوم عليه مشروع القانون ، هو مؤاخذة المواطنين عـن قيم غير محددة ، كاتيان افعال ماسة بالمصالح القومية العليا او بالوحدة الوطنية اوالسلام الاجتماعي ... وهي عبارات مطاطية هلامية ، يمكن تطويع كلام اي انسان لاخضاعه لها ... فاي بحث عن المتاعب الاقتصاديةالتي يشكو منها المواطن ، يمكن اعتباره ضارا بسمعة البلاد الاقتصادية او متاجرة بمعاناة المواطنين ... واي مقارنة بين اوضاع سكان القاهـرة واهل الريف ، يمكن ان يعتبر مخلا بالسلام الاجتماعي ، لما يمكن ان يؤدي اليه من اثارة الريفيين ضد المثقفين في العاصمة .. الخ » .

■ اما كامل زهيري نقيب الصحفيين السابق(٥) ، فقد اعتبر القانون مخلابكل القيم والمبادىء ، لان ما يقال « مـن ان العقوبات التي ينص عليها القانون لن تكون سوى تدابير مثل الحرمان من الحقوق السياسية او الترشيح الى مجلس الشعب او النقابات ، وكان هذه العقوبة مسالة يمكن التغاضي عنها ... مع ان الشخصيات العامة ليس لها من راسمال في حياتها سوى سمعتها في المجتمع . وقد يكون الحرمان من الحقوق

(٤) كان ممن شملتهم حملة الاعتقالات الاخيرة قبل اغتيال السادات بايام قليلة .

(٥) كان ايضا من بين المعتقلين في الحملة الاخيرة .

السياسية أشد من السجن الانفرادي ، لانها نوع من السجن المعنوي، الذي لايقل ابلاما عن السجن المادي ... ان سجن الاذهان لا يقل خطرا عن سجن الابدان » .

■ اما نقابة المحامين ، فقد عقدت ندوة ، تحدث فيها الدكتور محمد حلمي مراد والدكتور محمد عصفور والاستاذ احمد الخواجة نقيب المحامين السابق(٦) ، فندوا فيها القانون مادة مادة . كما عقد مجلس النقابة ــ قبل حله الاخير(٧) ــ اجتماعا اتخذ فيه عدة قرارات مترابطة ، تبدأ بمقاطعة التطبيع حتى رفض مشروع القانون ، لما يتضمنه من عدوان على الحقوق الاساسية للانسان المصري ومخالفة للدستور القائم. كما عقد مجلس النقابة ــ قبل حله ــ اجتماعا طارئا ، اتخذ فيه عدة قرارات حول الوضع الديمقراطي في مصر ، ودارت اغلب القرارات حول قانون العيب والقوانين الاخرى المقيدة للحريات ، ومن هذه القرارات ما يلي :

١ ــ تعديل الدستور بالغاء منصب المدعي العام الاشتراكي .

٢ ــ رفض مشروع قانون حماية القيم لما يتضمنه من عدوان على الحقوق الاساسية للانسان المصري ومخالفا لنصوص الدستور القائم .

٣ ــ المطالبة بالغاء حالة الطوارىء لزوال اسبابها .

٤ ــ المطالبة باقامة ديمقراطية سليمة واطلاق حرية تكوين الاحزاب دون قيود وموانع ، والغاء العزل السياسي .

---

(٦) كانوا كذلك من بين المعتقلين في الحملة الاخيرة .

(٧) ان الطريقة التي التف بها النظام ضد مجلس نقابة المحامين برئاسة احمد الخواجة، وتعيين مجلس من صغار المحامين الموالين ، يستحق التتبع بكامل وقائعه ، لانه يبين الطريقة القمعية اللاقانونية التي يتعامل بها النظام مع حركة المعارضة .

٥ ـ الغاء كافة التشريعات المقيدة للحريات .

٦ ـ تشكيل لجنة لاعداد بيان في القضايا العامة للعمل الوطني ، وينشر بمجلة المحاماة ويتم توزيعه .

٧ ـ اتخاذ موقف وطني صلب في هذه القضايا .

* * *

من الامور الخطيرة التي تضمنها قانون العيب محاولته الالتفاف على القضاء المصري ، الذي اثبت نزاهة وصلابة منقطعة النظير ، وكان في حالات عديدة سندا شرعيا ، يلجأ اليه كل من ترج بهم اجهزة الدولة في قضايا باطلة ، كما لاحظنا موقفه الصلب ، الوطني الواضح ، في قضية المتهمين باحداث يومي ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، فمن المؤكد ان حكم محكمة امن الدولة الذي سبقت الاشارة اليه ، شكل صدمة كبيرة ، لاجهزة النظام التي لفقت هذه القضية ، وتوقعت ان تحصل من المحكمة على ادانة للاشخاص الذين تم ضبطهم في هذه الاحداث ، وقد بلغ عددهم (١٧٦) شخصا . وقد جاءت محاولة الالتفاف على القضاء المصري ، عن طريق سلبه بعض صلاحياته ، واحالتها الى ما عرف في القانون باسم « محكمة القيم » ، وبالذات القضايا التي يرى المدعي العام الاشتراكي انها مخالفة للقيم . وموضوعة القيم ـ كما قلنا ـ نسبية ، وبامكان المدعي العام الاشتراكي أن يحشر فيها كافة الامور التي تتعرض لنقد خطط النظام ومواقفه .

لقد نصت المادة (٥٦) من القانون المذكور على تشكيل هذه المحكمة من سبعة اعضاء : اربعةمن اعضاء مجلس الشعب ، وثلاثة من مستشاري محكمة النقض ، وتصدر المحكمة احكامها بالاغلبية المطلقة ، ويكون الحكم نهائيا غير قابل للطعن بأي طريقة من طرق الطعن . وقد شكك الدكتور حلمي مراد في شرعيتها القضائية لانها تضم افرادا من خارج الهيئة القضائية ، وهم افراد مجلس الشعب ، لذلك فهي لاتعتبر

هيئة قضائية ، انما تعتبر من الناحية القانونية لجنــة ادارية ذات اختصاص قضائي ، يجوز الطعن في قراراتها امام القضاء الاداري ... بل انها هيئة غير دستورية ، لان مجلس الشعب ليس له ولاية قضائية طبقا للدستور الذي حدد اختصاصاته ، وليس من بينها اصــدار قرارات جزائية على المواطنين ، ويعتبر هذا عدوانا علـى اختصاص السلطة القضائية وهي سلطة مستقلة .. فضلا عن ان اعضاء مجلس الشعب الذين سيجلسون بمجلس القضاء ، في هــذه المحكمة الخاصة ، سيختارون في غالبيتهم أن لم يكونوا كلهم من حزب الاغلبية الحاكم ، فكيف يتولون محاكمة المواطنين من خصومهم السياسيين ، فيكــونون بذلك خصما وحكما ، وهو ما يخالف الاصول المرعية في المحاكمات ، بل يعد انتهاكا لحقوق الانسان التي نص عليها الاعلان العالمي الصادر عن الامم المتحدة ، والذي يقضي بأن من حق كل انسان ان توفر له محاكمة محايدة نزيهة . أما بيان حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، فقد اعتبر تشكيل المحكمة ، بهذه الطريقة ، التي احالــت اليهــا بعض اختصاصات القضاء ، عقابا للقضاء المصري ، لانه وقف في جملة مواقف تحمي الحرية وتحافظ على الدستور وترعى حدود القانون ، لذلك يراد له ان يعاقب وأن يحرم من بعض وظيفته في اخطر مجالاتها وهــو مجال حماية حريات الناس وحقهم الدستوري في التعبير .

ان المتتبع لمسيرة النظام الحاكم في مصر ، يلاحظ انه منذ وصولــه للسلطة في مايو ١٩٧١ ، كان يعمد دوما الى سن القوانين والتشريعات ، التي تحاكم وتضبط الاتجاهات المناوئة له ولمواقفه . بمعنى انه يضيق على الحريات ، ويقمع الاتجاهات الكاشفة لفساده واخطائه ، باسم القانون ، وفي مرات عديدة ، يضفي على هذه القوانين ، صفة الجماهيرية عن طريق الاستفتاءات الشعبية ، مع « تجاهل كل الاصول الدستورية والفنية التي ولابد ان تصاحب الاستفتاءات سواء من حيث الموضوع او من حيث الشكل » ، كما لاحظ بيان لحزب التجمع . ويكفي في مجال مصادرة الحريات واشكال التعبير باسم القانون ، ان نذكر المسلسل

القوانين والقرارات لشلها ، يدلل على ان خطواته ومواقفه تسير بشكل معارض للمواقف التي يؤيدها شعبه ، كما ان هذا النظام يكون قد وصل الى قمة ضعفه ، بحيث اصبحت الكلمة تؤثر في جداره ، وتبدو بأنها سلاح فعال من اسلحة هدمه وتقويضه . ويبدو ذلك من دراسة بعض النواحي في قانون الصحافة الجديد :

اولا : يهدف قانون الصحافة الجديد الى تطويق كافة انـواع النقد لسياسة النظام عن طريق وضع الصحافة في قيود لا تمكنها من القيام بدور الناقد والمفند لخطوات النظام وسياساته ، وذلك بتضييق حاسم محدد على حرية الصحفي . لذلك فان اول ما يلاحظ على القانون ، هو انهاء حرية الصحافة ، وضعها في القالب الذي يناسب سياسة النظام . وتقييد حرية الصحافة ، بوسائل متعددة ، عبر مـواد مختلفة تضمنها . فقد نصت المادة الثالثة منه على ... « الصحفيون مستقلون ولا سلطان عليهم في اعمالهم لغير القانون » . ان الاستقلال الذي نص عليه في هذه المادة استقلال شكلي ، لان القانون الذي اعتبرته المادة السلطان الوحيد على هذا الاستقلال ، يقيد الحرية الصحفية ، وهي السمة الاساسية للاستقلالية المنصوص عليها . فحسـب المادة المذكورة ، يتوجب على الصحفي المصري ان يمارس استقلالية في حدود القانون ، وقد كان النظام يعرف ان القوانين القديمة والجديدة كفيلة بان تضيق الخناق على حريته ، وتحد من هذه الحرية بطريقة تجعلـه لا يجرؤ على نقد النظام وممارساته والا فسوف يقع تحت طائلة هـذه القوانين ، التي درسنا بعضها ، ورأينا ما فيها من جبروت وطغيان . ويكفي لبيان هذه الاستقلالية المزعومة ، التي تقيدها القوانين ، وتقمع صاحبها القرارات ، ان نذكر بعض مواد هذه القوانين ، التي تتربص بالصحفي ، ان هو فكر في استخدام حقه في « الاستقلالية » .

■ تنص المادة الرابعة من قانون رقم (٣٤) لسنة ١٩٧٢ بشأن الوحدة الوطنية على ان « يعاقب بالحبس كل من عرض الوحدة الوطنية للخطر » ، بأن لجأ الى العنف ، او التهديد ، او اية وسيلة اخرى غير مشروعة

لمناهضة السياسة العامة المعلنة للدولة ، او للتأثير على مؤسساتها السياسية والدستورية في اتخاذ قرار بشأنها » .

ان هذه المادة تعني ان اي انتقاد لاتفاقيتي كامب ديفيد ، اللتين وقعهما السادات ونظامه مع العدو الصهيوني ، يعتبر مناهضة لسياسة الدولة العامة المعلنة ، وهو بالتالي يهدد الوحدة الوطنية ، ويعرضها للخطر . لان مجرد النقد والهجوم على هذه الصفقات غير المشروعة الممتدة من محادثات الكيلو (١٠١) حتى الاتفاقيات الاخيرة ، يعتبر من الوسائل التي يقع صاحبها تحت طائلة المادة السابقة .

■ اكد قانون الجبهة الداخلية والسلام الاجتماعي (قانون رقم ٣٣ لسنة ١٩٧٨) ما سبق ان ادانته المادة السابقة ، فقد تناولت المادة التاسعة منه العقوبات الخاصة بالجنح التي تقع بواسطة الصحفي على ما ينشره 'و يذيعه اي مصري في الخارج ، اذا كان من شأنه المساس بالمصالح القومية العليا للبلاد ، او فساد الحياة السياسية ، او تعريض الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي للخطر .

ان هذه المادة من قانون (٣٣) لسنة ١٩٧٨ ، بالاضافة الى تأكيدها على ما تدينه مواد قانون رقم (٣٤) لسنة ١٩٧٢ ، فانها تأتي في صياغة ضبابية غير محددة ، كي تتمكن اجهزة النظام من حشر كافة اعمال المعارضة واقوالها . تحت طائلة العقوبات المنصوص عليها ، فهي لم تحدد المقصود بـ « المصالح القومية العليا للبلاد » ، وبالتالي فان هذه العمومية غير المحددة ، تفرض تساؤلات عديدة ، منها :

آ ــ هل اعطاء الولايات المتحدة الامريكية تسهيلات عسكرية في الاراضي المصرية ، ينسجم مع المصالح القومية العليا للبلاد ؟

ب ــ هل كشف الطبقات الطفيلية التي افرزتها مرحلة الانفتاح عقب حرب اكتوبر ، وبيان كيفية ثرائها غير المشروع ، يعرض الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي للخطر ؟

جـ ـ هل عزل بعض الافراد المعارضين للسلطة من العمل السياسي ينسجم مع مفهوم الوحدة الوطنية ؟ الا يعرض هذا العزل السلام الاجتماعي للخطر ؟ .

وتساؤلات اخرى عديدة ، تبين بوضوح ان كافة الامور التي هي من صميم عمل الصحفي ومسؤوليته تجاه وطنه ومواطنيه ، لا يمكن له بحال من الاحوال ، ان يعطي رايه فيها ، لان مواد القوانين ، تجرمه ، وتضعه في موقف مناوىء لمصلحة البلاد العليا . وهكذا فان ما يمثل مصلحة البلاد من وجهة نظر الصحفي الوطني ، يعتبر من وجهة نظر النظام واجهزته ، اخلالا وتفريطا بهذه المصلحة ، يستحق عليها العقوبات الشديدة . لذلك ، فان حرية الصحفي واستقلاليته مرهونة بأفق النظام وقوانينه .

ثانيـا : يتناول قانون الصحافة الجديدة ناحية مهمة ، تتعلق بحياة المواطن والضمانات المتوفرة له ، فيضمها ضمن المحظورات التي لا يسمح للصحافة بتناولها ، فقد نصت المادة الثامنة على انه « يحظر على الصحيفة تناول ماتتولاه سلطات التحقيق او المحاكمة بما يؤثر على صالح التحقيق او المحاكمة او بما يؤثر على مراكز من يتناولهم التحقيق او المحاكمة » . يتضح من هذه المادة ، ان النظام الحاكم قصد منها عدم تدخل الصحافة في معالجة القضايا ذات الطابع السياسي والجماهيري ، التي تكون قيد التحقيق او في المحكمة، بحجة عدم التاثير في سير المحاكمة، في حين ان الغرض هو ضمان عدم تأليب الجماهير وتوعيتها ازاء مثل هذه القضايا ، خاصة ان المعارضة السياسية ، تحاول دوما اللجوء الى القضاء المصري ، ازاء مخالفات النظام ، وما يلحق عناصرها من غبن وظلم . بالاضافة الى هذا تنص المادة المذكورة على « تلتزم الصحيفة بنشر بيانات النيابة العامة » . والمعروف ان بيانات النيابة العامة لا ترقى الى مستوى الاحكام القضائية . ما الذي قصده النظام من حظره على الصحف تناول القضايا التي قيد التحقيق او في المحكمة ، مع الزام الصحف بنشر بيانات النيابة العامة ؟ . ان هذا يعني نشر الراي الذي

تتبناه الحكومة واجهزتها الامنية ، فالنيابة العامة تمثل تصور الدولة ؛ وبياناتها تعكس رأيها في القضايا المطروحة ، في حين ان الصحافة الحرة مفتوحة لكافة الآراء ، وبالذات الاشخاص او الهيئات التي لها علاقة بالقضايا المطروحة في المحاكم . وبالامكان تصور الفرق الكبير بين راي النيابة العامة وراي الصحافة الحرة في قضية محددة ، هي انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ . لقد تم القاء القبض على (١٧٦) شخصا ، اتهمتهم نيابة امن الدولة بأنهم كانوا وراء حوادث هذه الانتفاضة ، من خلال انتماء غالبيتهم الى الحزب الشيوعي المصري وحزب العمال الشيوعي ، وتوالت بيانات النيابة العامة ، تزج بالعديد من التهم حولهم ، وتحرض الراي العام ضدهم ، مؤكدة انها امسكت معهم الاوراق والمنشورات التي تثبت ادانتهم بافتعال الحوادث خدمة لمصالح جهات اجنبية . هذا في حين تصدت صحيفة « الاهالي » الناطقة بلسان حزب التجمع التقدمي الوحدوي(٨) ، لتلك الافتراءات ، مركزة على الاسباب الاقتصادية التي حركت انتفاضة الجماهير بشكل عفوي ، بعيدا عن اي تخطيط مسبق ، وقد اثبتت افتعال اجهزة امن الدولة للعديد من حوادث التخريب ، لتبرر قمع الانتفاضة بالقوة . وقد استمر الحال على هذا الوضع : النيابة العامة تصر على التهم المنسوبة للمعتقلين ، وحركة المعارضة تؤكد براءتهم ، حتى جاء حكم المحكمة في ١٩ ابريل ١٩٨٠ ، وقضى ببراءة كل المتهمين ما عدا (١٩) منهم ، تراوحت الاحكام الصادرة بحقهم بين سنة وثلاث سنوات .

ان هذه البراءة الجماعية للمعتقلين في هذه القضية ، يثبت خطورة الامر ، عندما يقتصر في بيان حقيقة قضية ما ، على بيانات النيابة العامة ، لانها تعرض الموقف والراي الذي يخدم سياسة الدولة ووجهة نظرها ، حتى لو كان ذلك على حساب تزييف الوقائع والحوادث . في هذه القضية ، نرى انه لواقتصر في بيان الحقيقة على بيانات النيابة

(٨) لم تكن الصحيفة قد اوقفت آنذاك .

العامة ، دون الرد عليها وتفنيدها ، في صحف المعارضة ، لكان الحكم مختلفا ، لان وجهة النظر الاخرى التي بسطتها المعارضة ، واصرارها على التحري الدقيق ، والتحقيق العادل ، هما اللذان اوحيا الى هيئة المحكمة بسماع أكبر عدد من الشهود ، والتدقيق في اقوالهم بشكل يخدم معرفة الحقيقة ، وقد اوصل هذا الامر هيئة المحكمة الى حقائق وحيثيات لا تختلف كثيرا عما كانت تعرضه حركة المعارضة ، فقد اكد الحكم المذكور عدة امور :

ا ــ انتهاء المحكمة من دراسة الظروف التي احاطت باحداث هذين اليومين الى انها كانت نتيجة مباشرة لقرارات رفع الاسعار ، وحدثت بصورة تلقائية دون تحريض او استغلال للموقف .

ب ــ تعمد اجهزة الدولة الباحثية التضليل والزج بالعشرات في هذه القضية ، دون الاعتماد على معلومات دقيقة ممحصة ، كما اكد حكم المحكمة على ان التحريات المقدمة من مباحث امن الدولة ، تنتمي الى مصادر مجهولة مما يجعلها موضعا للظن ، وقد اتسمت بطابع العجلة التي افقدتها ما ينبغي لها من دقة وتمحيص ، ثم انه قد عراها التناقض والتضارب والغموض ، بدليل ان اذون الضبط والتفتيش شملت المئات من الاشخاص ، واذا بالنيابة العامة تستبعد جل هؤلاء الاشخاص ، فلم تستبق منهم في مجال الاتهام الا (١٧٦) شخصا .

حـ ــ وجهت حيثيات الحكم نقدا حادا للنيابة العامة لقيامها في كثير من الاحيان باجراء التحقيق خارج مبنى النيابة ، سواء في مبنى هيئة الامن القومي أو في مبنى مباحث امن الدولة او في سجن القلعة وغيره من السجون ، مما لا يشعر المتهمين بالطمأنينة عند مباشرة التحقيق معهم .

د ــ اشارت حيثيات الحكم الى ان الكمية الهائلة من الكتب والصحف والنشرات المضبوطة مع المتهمين ، والمقدمة على انها وثائق ادانة لهم ؛

اسفر فحصها عن انها كتب يتم عرضها للبيع والشراء بالاسواق ، كما يتم تداولها بين الناس ، فهي اذن كتب مباح شراؤها واقتناؤها لمن يريد من الافراد دون قيود ، اذ ليس بالاوراق دليل على منعها من التداول ، وبالتالي فان حيازتها لا تشكل جريمة .

هـ ـ هاجمت حيثيات الحكم شاهد الاتهام الرئيسي محمد حاتم زهران ، رئيس قسم الحركة بسنترال شبرا ، ووصفته بأنه شاهد متلون ، لا يستقر على حال ولا يثبت على راي ، واستعرضت تناقض اقواله وعدوله المستمر عنها ، وقالت ان ما فعله (اجتراء على اخلاقيات الشهادة امام جهات التحقيق) ووصفت موقفه بانه (مثال للعبث وصورة شائنة لمن يتجرد مما تفرضه آداب واخلاقيات ونزاهة الشهادة امام جهات القضاء ..) .

ان هذه الحيثيات الواردة في حكم محكمة امن الدولة العليا ، بصدد قضية المتهمين في احداث انتفاضة ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ ، واغلبها يفند ما جاء في بيانات النيابة العامة وتحريات مباحث امن الدولة ، ويطابق تماما وجهة نظر المعارضة ، يوضح خطورة الاقتصار في مثل هذه القضايا على بيانات النيابة العامة . لذلك فان قانون الصحافة الجديد ، عندما حظر على « الصحيفة تناول ما تتولاه سلطات التحقيق » قد كان يقصد خدمة الحيثيات التي تقدمها اجهزة الدولة في القضايا المعروضة على سلطات التحقيق والمحاكم ، وحرمان الراي العام المحلي من سماع وجهات النظر المعارضة لراي الحكومة ونيابتها .

ثالثا : يتولى قانون الصحافة الجديد التطويق المسبق لصحافة المعارضة ، اذ يضع القيود التي تحول دون تمكن المعارضة السياسية من اصدار الصحف المعبرة عن وجهة نظرها ، وذلك من خلال وُضع العوائق المالية والاعتبارية . فقد نصت المادة (٩١) على « الا يقل راسمال الشركة المدفوع عن مائتين وخمسين الف جنيه اذا كانت (الصحيفة) يومية ومائة الف جنيه اذا كانت اسبوعية ، يودع بالكامل قبل اصدار

الصحيفة في احد البنوك المصرية » . ان هذا الشرط المالي ، يعتبر في اغلب الاحوال تعجيزيا لا يتوفر لافراد المعارضة ، في حين أن القانون يعتبره شرطا أساسيا لاصدار الصحيفة . اما الناحية الثانية من التطويق المسبق ، فهي الجانب الاعتباري ــ الشخصي ، الذي حددت المادة (١٨) من خلاله الفئات التي يحظر عليهـا اصـدار الصحف او الاشتراك في اصدارها او ملكيتها بأية صورة من الصور ، وهي :

أ ــ الممنوعون عن مزاولة الحقوق السياسية .

ب ــ الممنوعون من تشكيل الاحزاب السياسية أو الاشتراك فيها.

حـ ــ الذين ينادون بمبادىء تنطوي على انكار الشرائع السماوية .

د ــ المحكوم عليهم من محكمة القيم .

فالشرطان الاول والثاني ، يعزلان كافة افـراد وجهات المعارضة ، ويحولان دون اصدارهما أو اشتراكهما في اصدار وملكية الصحف . اما الشرط الثالث فهو للاستهلاك المحلي ، ولبيان غيرة النظام على الدين ، اذ ليس هناك من ينادي بانكار الشرائع السماوية ، ومنذ عرفت مصر الطباعة والصحافة لم نسمع عن صحيفة تصدر لتنادي بانكار الشرائع السماوية ، لان الجميع ــ وبالذات الكتاب والصحفيون ــ يدركون ان مجتمعنا العربي ، لا يتقبل هذه الدعوات ، ولا يرحب باصحابها . امـا الشرط الرابع فهو لزيادة المساحة التي يشملها حظر اصدار الصحف ، لان الاشخاص المحكوم عليهم من محكمة القيم ، هم الاشخاص الذين جاء (قانون العيب) لمحاصرة اقوالهم وافعالهم ، ورأينا مدى تعسف هذا القانون ، وتعمده المسبق لسد كل الثغرات التي يمكن النفاذ منهـا لنقد سياسة الحكم ومواقفه ، وبالذات في مرحلة ما بعد كامب ديفيد.

رابعـا : اما فيما يتعلق بالصحف القائمة فعـلا ، والتي أسماها قانون الصحافة الجديد (الصحف القومية) و « يقصد بها المؤسسات الصحفية المملوكة ملكية عامة » وهي « الجمهورية والمساء والاخبـار

والاهرام » ، فقد نقل القانون ملكيتها من الاتحاد الاشتراكي الى مجلس الشورى ، الذي تشكل ليتولى الاشراف على الصحافة القومية ، حسب المادة (٢٣) التي نصت على « ان المؤسسة الصحفية القومية مملوكة ملكية عامة ويمارس حقوق الملكية عليها مجلس الشورى » - ويضمن النظام ، بهذه الملكية الجديدة ، السيطرة الكاملة على هذه الصحف ، وتجييرها لخدمة وجهات نظره ، لان مجلس الشورى تـم تشكيله عن طريق انتخاب ثلثي اعضائه وتعيين الثلث الآخر ، وهو « بحكم هـذا الوضع مجلس تابع للحزب الحاكم ـ وهو منشأ بالاساس حيث لا قرار له ليتولى ملكية الصحافة القومية »(٩) . ومن المفيد ان نذكر ان بعض احزاب المعارضة قاطعت انتخابات هـذا المجلس . ولضمان السيطرة الحكومية الكاملة على هذه الصحف ، حدد القانون الجديد تشكيل مجلس ادارة الصحيفة القومية ، بطريقة تجعل للدولة الاشراف الكامل على كل ما يجري في (الادارة والتحرير) ، اذ نصت المادة (٣٠) على ان يشكل مجلس الادارة من (١٥) عضوا على الوجه التالي :

أ ـ رئيس مجلس الادارة ويختاره مجلس الشورى .

ب ـ ستة مـن العاملين بالمؤسسة يتـم انتخابهم بالاقتراع السري المباشر على أن يكون اثنان من الصحفيين واثنان من الاداريين واثنان من العمال ، وتنتخب كل فئة ممثليها .

حـ ـ ثمانية أعضـاء يختارهم مجلس الشورى على أن يكون من بينهم اربعة اعضاء على الاقل من ذات المؤسسة الصحفية .

ويتضح من هذا ، ان تسعة اعضاء من مجلس ادارة الصحيفة المكونة من خمسة عشر عضوا ، يختارهم مجلس الشورى ، في الوقت الذي

(٩) عبد المنعم الغزالي ـ "قانون صحافة كامب ديفيد ، بحث من بحوث المؤتمر التضامني مع الصحفيين المصريين الذي عقد في باريس في اغسطس ١٩٨٠ ، ونشرت بحوثه الامانة العامة لاتحاد الصحفيين العرب .

تنص فيه المادة المذكورة على ان « تصدر القرارات بأغلبية آراء الحاضرين، وعند التساوي يرجح الجانب الذي من بينه الرئيس » .

ان هذا يعني — في التطبيق العملي — تحول الصحف القومية الى وسائل مجيرة بالكامل لخدمة الدولة وسياساتها ، في وقت اصبح — تبعا للقانون الجديد — ليس من السهل على المعارضة السياسية ان تصدر صحفها الخاصة ، التي تستطيع من خلالها طرح وجهات نظرها . وهذا من شأنه ان يترك الراي العام المصري تحت تأثير اعلام السلطة ، التي تسيطر ايضا على الاذاعة والتلفزيون . هذا بالاضافة الى العديد من نواحي التقييد والحظر وضرب الحريات ، تضمنها القانون الجديد ، خدمة لسياسة الدولة وتوجهاتها في هذه المرحلة ، لان النظام يعي تماما انها توجهات معادية لارادة الجماهير ، لذلك لا بد من كبت كافة أصوات المعارضة .

ردود فعل الثقافة الوطنية :

ان الظروف السابقة ، التي بدأت تحكم الحصار على الصحافة والثقافة في مصر ، اثارت العديد من مواقف الكتاب الوطنيين ، الذين ادركوا خطورة هذا النهج السياسي ، وتنظيراته الاعلامية ، فكان ان عمدوا لمواجهة هذه الردة الخيانية ، الى تشكيل « لجنة الدفاع عن الثقافة القومية » ، التي تكونت بمبادرة من حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي ، وتضم في عضويتها غالبية مثقفي مصر الوطنيين ، على اختلاف انتماءاتهم الفكرية والسياسية ، وذلك إثر اجتماع عقدوه في ٣١ مارس ١٩٧٩ . لقد ادرك هؤلاء المثقفون حجم الخطر المحدق بالثقافة العربية في مصر ، لذلك يؤكد برنامج اللجنة على ضرورة التصدي للمنطلقات الفكرية المعادية، ويرصد البرنامج المنطلقات التي تهدد مقومات الشخصية العربية في مصر ، وذلك بقصد اقامة جدار متين من الثقافة الوطنية ، يتصدى لحركة الجزر والثقافة المستسلمة اللاوطنية ، لان الاقلام التي تنظّر لخدمة الخط المستسلم ، في اوساط الكتاب المصريين ، تمثل

خطرا حقيقيا ، فتأثيرها في الشارع المصري ، اكثر من تأثير الاقلام الوطنية ، بحكم ان الاولى (المستسلمة) تسيطر على كافة الصحف القومية ، وفي خدمتها الاذاعة والتلفزيون ايضا ، وهما جهازان خطيران في غالبية دول العالم الثالث ، حيث يتضاعف تأثيرهما بحكم نسبة الامية العالية .

ان تكثيف العمل في داخل مصر ، لمواجهة خطر انتشار مفاهيم الاستسلام في صفوف الكتاب والمثقفين ، امر له اهمية خاصة ، اذ « ما من ثقافة قومية عانت الهزيمة الا اذا استشمرت هذه الهزيمة في اعماقها ، ومن داخلها ، او اقرت بتفوق الثقافة الغازية عليها، واستسلمت لهذا التفوق . وما من شخصية قومية تهزم الا اذا بدر بذور الهزيمة فيها مفكروها ومثقفوها وذوو الرأي فيها ، ورسخوا في وعيها الاحساس بالدونية »(١٠) . ان الراصد لافكار الثقافة اللاوطنية المستسلمة ، يدرك ان هذه الثقافة حددت المنطلقات، التي تنطلق منها الثقافة الوطنية ، واهم هذه الافكار والمنطلقات التي تصدت لها الثقافة الوطنية ، مجموعة من الاكاذيب تشكل محور تحرك الاعلام الرسمي اللاوطني ، واهمها :

اولا : الادعاء بأن مصر حاربت ثلاثين عاما من اجل القضية الفلسطينية ، خسرت فيها حوالي ستين الفا من الشهداء ، في الوقت الذي كانت بقية الاقطار العربية منصرفة الى مشاغل اخرى ، وان هذه الحروب المتصلة هي سبب الفقر وتدني المستوى المعيشي للمواطن المصري، وقد آن الآوان كي تستريح مصر وشعبها من هذه الحروب التي لم تجلب لها غير الخراب والفقر والدمار .

ثانيا : ان الولايات المتحدة الامريكية تملك ٩٩٪ من اوراق حل قضية الشرق الاوسط ، وقد كان بامكانها المساهمة الفعالة في حل هذه القضية ، لولا ان النظام السابق (عهد عبد الناصر) ناصبها العداء

---

(١٠) من مقدمة النداء الأول للجنة الدفاع عن الثقافة القومية .

بدون مبررات موضوعية ، مما جعلها تنحاز كليا للطرف الآخر (العدو الصهيوني) ، بدليل انها تقوم الآن بدور الشريك الكامل في مفاوضات الحل ، متخذة موقفا موضوعيا لا ينحاز لطرف من الاطراف .

ثالثا : ان وجود دولة اسرائيل في المنطقة العربية امر واقعي ، لا محيد عن الاعتراف به ، والانسجام مع ما يتطلبه هذا الاعتراف ، من انهاء روح العداء والخصام ، والبدء بمرحلة جديدة تحطم الحاجز النفسي الذي يحول دون التفاهم والتعايش مع هذه الدولة .

رابعا : ان السلام يحتاج من الشجاعة والقدرة ما لا يقل عما يحتاجه الحرب منهما ، وقد اثبت انتصار حرب اكتوبر امكانية الانطلاق في التعامل مع دولة اسرائيل من موقع الند ، بعد أن ازال هذا الانتصار كل العقد النفسية ، فلم يعد للاسرائيليين الحق في التصرف مع الآخرين، على اعتبار انهم القوة التي لم تقهر ، كما ان الذي يخطو نحو السلام من موقع الند والقوة، يدلل على خلفية حضارية ، ومصر تتمتع برصيد حضاري عمره سبعة آلاف سنة يؤهلها لهذا الموقف بجدارة .

خامسا : ان الامر الواقع المتمثل في وجود دولة اسرائيل ، واعتراف اغلبية دول العالم بها ، وحماية الولايات المتحدة الامريكية المستمر لهذا الوجود ، يجعل من الشجاعة والعقل ، أن ننظر الى القضية الفلسطينية نظرة جديدة ، اذ هناك فرق بين « الحقوق التاريخية » للشعب الفلسطيني ، وما يمكن الوصول اليه من هذه الحقوق ، في ظل الامر الواقع ، وموازين القوى الدولية الراهنة . وهذا يعني الامتثال للامر الواقع ، والظروف المعاصرة ، بحيث يصبح الهدف النهائي هو الوصول الى دولة فلسطينية في القطاع والضفة ، عبر عدة مراحل ، يتفق عليها خلال المفاوضات التي تجريها الاطراف ذات العلاقة .

□ □ □

ان المفاهيم المضللة السابقة ، التي تشكل الملامح السياسية والفكرية لمرحلة « تطبيع العلاقات » ، تحاول الآن أن تكوّن لها تياراً بين الكتاب والصحفيين المصريين ، اذانها بدون هذا التيار الذي يتبناها ويروج لها ، لا يمكن لأجهزة الاعلام الرسمية تحقيقها بسهولة ، وجعلها ثقافة سائدة في الشارع المصري . لذلك فان التيار الوطني التقدمي في الثقافة والصحافة المصرية ، في داخل مصر بالذات ـ يجعل من مهماته الاساسية التصدي لهذه المفاهيم ، لبيان تزييفها لحقائق التاريخ ، وقفزها عن العديد من الاعتبارات ، وتفسيرها للوقائع بطريقة تستغل فيها معاناة الجماهير وضائقتها الاقتصادية التي هي من صنع النظام ، وفساد سياساته . ان هذا التصدي الوطني ، يشكل في المجال الثقافي المصري ، تياراً واضحاً ، يناضل بصلابة ، مثبتاً ان الانتماء الوطني العربي ، بوجهه التقدمي ، هو الصفة الاساسية لغالبية الكتاب والمثقفين في مصر ، وان سقوط أفراد قلائل ، لا يغير هذه الصفة(*) .

❊ ❊ ❊

(*) يحتاج هذا التيار الوطني التقدمي في الثقافة المصرية الى دراسة مفصلة ، توضح مواقفه الفكرية ، ونضالاته في الشارع المصري .

الغـزو الثقـافي الامبريالي الصهيوني للأمـة العـربيـة

محـور

الغزو الثقافي في الوطن العربي
وخلق أدوات المقاومة

اليـاس مرقص

الثقافة الصهيونية.. ماهي؟!

د. هاني الراهب

وسـائل الإعـلام الغـربيـة والإنسلاب الثقـافي
لـمـاذا تـؤثـر؟
ومـا أشـكال التـأثير المتوقعة؟

د. صالح أبو أصبع

الجذور التاريخية للغزو الفكري في صدر الإسلام
نماذج وآثار

د. علي فهمي خشيم

الغزو الثقافي في الوطن العربي
وخلق أدوات المقاومة

الياس مرقص

الانسان هو الانسان الصانع والعاقل ، الفاعل والعارف ، انسان العمل والوعي والاجتماع والانتاج ، انسان الحضارة والثقافة ، والنقل بمصطلح خلدوني : انسان العمران .

كل البشر الحاليين ينتمون الى نوع بشري واحد ، يدعى « الانسان العاقل » يملك ، منذ ظهوره ، خصائص نفسية واحدة وامكانات ذهنية واحدة ، وما التاريخ ، اذا التقدم ، سوى بسط متنوع لهذه الخصائص وهذه الامكانات . فالبشر منذ أقدم الازمنة ، جماعات مختلفة تعيش في مناطق مختلفة ، تحت سماوات مختلفة ، تتكلم لغات مختلفة ، وتدخل فيما بينها في تبادلات مختلفة .

غير ان هذا الاختلاف في الزمان ـ تقدم ، وايضا تقهقر ـ وهـذا الاختــلاف في المكان ـ قبائل وشعوب وقوميات مختلفة ـ لا يجوز ان يحجب الهوية الانسانية . اجل ،وانادراك هذه الهوية الواحدة المساواتية يفترض درجة عالية من التجريد ، لكن هذا التجريد الكلية انما يحمله الاختلاف والتنوع ولا يقوم علم حقيقي بدون ذلك . فلا علم الا بالكليات كما يقول الاقدمون ، وغني عن التذكير بأن هذا المستوى المساواتي مؤيد وباصرار في الدين التوحيدي :

البشرية ذرية آدم ، هذا ما رفضه هتلر ، مثلا ، النازية ، المذهب العرقي ، ان حرب النازية ضد الدين التوحيدي يجب ان تفهم ، ويجب ان توعى ابعادها ، هذه قضية راهنة . « خصائص نفسية واحدة » ، اقصد، على سبيل المثال ، اننا نخطىء خطأ قاتلا ، وقاتلا لأنفسنا أولا ، اذا ما تصورنا ان الشر او القهر او الاستغلال او الانانية او الوثنية وغير ذلك من الشرور وقف على غيرنا ، على جميع البشر فيما عدانا ، او على الغرب حصرا . « ان النفس لأمارة بالسوء » وليس احد من طينة اخرى.

الدنيا ليست الجنة ، التاريخ ليس فردوسا ، التاريخ دراما ومأساة، فيه دائما وجه من دراما ومن مأساة ، حسبه ان يكون تقدما ، لم يكن كذلك دائما . والتقدم يستحق دائما ان ينقد ، ان يمثل امـام محكمة الوجدان والوعي . يمكن ويجب ان تعمل البشرية من اجل تاريخ وتقدم من نوع جديد ، اي اقل مأسوية ، بدون دعوى فردوسية على الارض . يمكن للشعوب أن تقاتل من أجل غد افضل بدون ان تكون الجنة ، وبدون ان يقال لها انه الجنة .

- ٢ -

الجماعات البشرية المختلفة في تبادل دائم :

ان ظاهرة النقل او الانتقال قديمة قدم التاريخ وما قبله . لولاها ، لن يكون التقدم الحاصل فعليا غير مفهوم . واقعيا ، ان التطور الذي حققته البشرية خلال عشرة آلاف سنة ونيف ، لم يتم بآلية فعل وود

فعل بين أدوات انتاج وعلاقات انتاج وبين فوقية في اطار مجتمع مجرد ، معزول ، وهمي ، بل ايضا وبالضبط بفضل العلاقات الاممية .

اقصد العالمية ، اي العلاقات بين قبائل وشعوب ، بين مناطق صغيرة وكبيرة مختلفة في الدنيا المسكونة .

هكذا فالثورة النيوليتية وقعت في بلاد الشام بفضل التقاء روافد متنوعة نشأت في المنطقة او أتت من الجوار القريب او البعيد ، ثم انطلقت منها الى شتى مناطق العالم القديم ، عالم القارات الثلاث ، كذلك الحضارات النهريةالكبرى وعصر البرونز. والحديد والحصانحملتهما الى الشرق الادنى شعوب وافدة ، غير ساحبة ، بعد ذلك ، يصير البحر الابيض المتوسط بؤرة غالية التوتر. هناك الاستعمار الفينيقي، الاستعمار اليوناني ، الفتح الاسكندري ، الحضارة الهلنستية ، الامبراطورية الرومانية ، الرق والتجارة ، المسيحية ، الاسلام والفتوحات العربية .

بوجه الاجمال ، ليس التاريخ فقط بل ايضا ما قبل التاريخ ، ابتداء من نقطة ما ، انما تملؤه عمليات النقل ، الانتقال ، الهجرة ، والتبادل بشتى المعاني .

ان مذهب الجواهر يجب ان يدان ، كل الجواهر نسبية في منطق هيغل ، فكرة الجوهر الصحيحة خاضعة لفكرة العلاقة . ان هوية الاشياء ليست جوهرا ماهويا . بالاحرى هوية الثقافات ، الحضارات ، الشعوب ، الامم .

تعدد ثقافات ، اجل ، لكن لعل الافضل ان نقول : ثقافة متعددة .

- ٣ -

لقد تكونت الثقافة العربية الاسلامية في العصور الوسطى بالاخذ ، اخذت بروح مبدئية وبتصميم ، عن ثقافات سبقتها في المنطقة وخلوجها ، وكانت ثقافة أصيلة ، كلية اي كونية ، وذات ديمومة .

قبلها ، تكونت الثقافة اليونانية بالاخذ ، اخذت المواد من الشرق الادنى القديم ، وصنعت بهذه المواد شكلا جديدا ، انتقل في وقت لاحق الى اوروبا وقبلها الى العرب ايضا . هذا ما يسمى « بالمعجزة اليونانية » .

هناك « معجزة عربية » . . . كان العرب اسيادا ومنتصرين ، كان لهم هوية ، ولم يكن عندهم عقدة هوية . اخذوا موارد من اليونان ومن الشرق . وشكلوا ثقافة كبيرة جدا . ليس فقط تقنيات انتاج وطرق حياة ، بل فلسفة وعلوم وفنون وآداب . ان سلسلة من الفلاسفة ـ العلماء العرب دخلوا كرافد كبير في نهوض اوروبا الحديثة بدأ في اواسط العصور الوسطى . لقد بسط العرب العقل ، اكتشفوه واخترعوه في العالم ، الهوا العقل الانساني ، ثم في ظروف تاريخية معينة ومتلاقية ، خرجوا من مسار التقدم . (لكن الثقافة العربية هي الثقافة العربية ، ابنة هذه المنطقة ، وهي مرتبطة بها ، وفي ثقافتنا لها خصوصية ، بل اقول : لها مفردية ، لكن المفردية هي حاصل جمع كليات ، ليست الثقافة العربية هي نوع ، والثقافة الانسانية هي نوع آخر . ولا اعتقد ان الثقافة العربية الاسلامية اقرب الى الثقافة الهندية ، او الصينية ، منها الى الثقافة الاوروبية ، وليس من الصحيح ان نعتبر اننا نحن الشرق ازاء الغرب . هناك شرق آخر ، كبير وعظيم واكبر منا بكثير ، ما يجمعنا معه في شرق واحد ازاء الغرب هو العصر الحديث ، الاستعمار ، النظام الاقتصادي وغير الاقتصادي الذي نتج عنه .

- ٤ -

يمكن القول ان الاستعمار بالمعنى الاصلي والحرفي للكلمة هو العمران . بهذا المعنى ، التاريخ كله هو استعمار . وهذا المعنى راهن ، ثمة الآن زحف من الصحراء على الارض المزروعة والمعمورة في بعض اقطار الوطن العربي ، وثمة اختصاص للأرياف في العواصم والمدن المتضمنة الاستعمار العربي لأرض الوطن متراجع في الآونة الاخيرة .

غير ان فكرة الاستعمار في تاريخ النوع البشري لم تكن فقط هي استعمار البشر للأرض ، بل استعمار البشر للبشر أيضا .

والاستعمار الاوروبي الحديث حقبة جديدة نوعيا في تاريخ البشرية ، كان عدوانا واسعا شاملا ، ومن طرف واحد ، النظام الراسمالي البادىء في القرن السادس عشر بعث الرق ، اباد الملايين من الهنود الحمر ومن الزنوج الافريقيين ، ثم ، في وقت لاحق ، بشكل خاص في عصر الراسمالية الصناعية ثم الاحتكارية والمالية ، استطاع الاستعمار متمثلا بدول معينة عديدة ، معظمها أوروبية ، مضافا اليها الولايات المتحدة واليابان ، ان يفرض تسلطه على ثلاث قارات ، ان يسخر خيراتها لصالحه ولتصوراته واهدافه ، ان يغير بناها ، وان يدخلها في تاريخ جديد ، عالمي ، يكون هو مركزه وذاته وصانعه وتكون هي موضوعه ومادته .

ولقد ناضلت الشعوب المستعمرة نضالا طويلا وشاقا ضد الاستعمار، واسفر هذا النضال اخيرا عن جلاء قوات الاحتلال الاجنبي ، وانتزاع الاستقلال الوطني ، ودخول جميع البلدان المستعمرة سابقا الى منظمة الامم المتحدة .

من جهة ، باتت كل الاقطار دولا مستقلة ، من جهة اخرى ، ثمة انطباع بان الامر ليس كذلك ، عمليا ، التبعية باقية .

شروط التبادل مجحفة ، النفط العربي يغذي تقدم الغرب ، وانتاج هذا النفط ينمو بوتيرة مذهلة ، لا سيما منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى الآن ، وذلك رغم التوسع الاسرائيلي وارتباط اسرائيل بالولايات المتحدة وبالغرب ، العالم العربي يعاني ازمة متنوعة ، ثمة في معظم المجتمعات العربية ، عملية اغناء وافقار لم يكن احد منا يتوقعها قبل خمسة عشر سنة ، لعل نصف سكان الوطن العربي هم على حافة الجوع ، الاقطار العربية تفقد الاستقلال الغذائي ، ثمة تراجع للحريات الديمقراطية ، ثمة نوع من حرب اهلية كافية او فعلية داخل الامة العربية ، ثمة انتكاسات

متنوعة ، قديمة وجديدة ، الوحدة العربية في تراجع ، ثمة نزيف بشري كبير ، هجرة عربية الى اوروبا الغربية بشكل خاص .

تجري الامور امامنا وكأن العالم الاستعماري او الاستعماري سابقا يجني فوائد من العرب وبترول العرب ، لكن من العرب بشكل خاص ، لم يكن يجنيها حين كانت له جيوش غزو واحتلال تقاتل في بلادنا ضد المناضلين الوطنيين وضد الشعوب ، وحين كان بالتالي يضحي بشباب من اممه من اجل الاستغلال والهيمنة .

اذن ان هناك فرقا لا يمكن محوه بين الحالة الحاضرة والحالة قبل قبل ربع قرن او نصف قرن : في الوقت الحاضر لا يوجد على اوضيتنا وافوق شعوبنا جحافل او جيوش فرنسية ، انكليزية ، ايطالية ، كما كان الحال قبل حين من الزمن ، ولا امريكية . ومع ذلك هناك تبعية رغم الاستقلال . هل يجب ان نسميها تبعية طوعية ؟ ام نسميها تبعية بالوساطة ، اقصد اولا وساطة الوضاع بالكامل ؟ هل بنينا الاستقلال ، تقرير المصير ، المستقبل ؟ هل ادركنا ان الاستقلال بناء المجتمع ؟

الفقر لم يكن اكبر ، ولا فيض الثروة والرشوة والفساد . كذلك القهر الانساني ، وكذلك التجزؤ العربي . لا يوجد امن قومي عربي مع ان المشروع الصهيوني يتقدم علما بعد عام ومع ان الشعب الفلسطيني يعلن رفضه ، يثبت وجوده وحضوره الفعلي وكيانه كشعب .

لئن كنت اطرح هذه الامور ، فلانه في اعتقادي لا يجوز ان تكون مقاومة الغزو الثقافي مهربا وتعويضا عاجزا عن حقائق سياسية وتاريخية تنتصب امامنا كالجبال .

لا مقاومة بغزو ثقافي اجنبي ولا حفظ او بناء لهوية ثقافية قومية اذا كان عشرات الملايين من العرب يعيشون ليومهم ، لا يعرفون غدهم ، ولا يسيطرون على شيء من مصيرهم ، حين يزحف البشر على بطونهم ، وهم ليسوا بحاجة الى اية ثقافة لا غازية ولا اصيلة .

باختصار ، ان ما يجابهنا بالتلازم هو : افتقار الجماهير الواسعة ، تراجع الديمقراطية وفكرة الدولة كدولة حق وقانون ، تراجع الوحدة العربية او تراجع الامة العربية ككيان حقيقي ، كاستقلال ومستقبل . اذا استمرت هذه الحال ، تكون قضية الهوية الثقافية العربية ، كمشروع عمل ، معلقة في الهواء .

بتعبير آخر : ان قضية الغزو الثقافي تأخذ مكانها في اطار تاريخي وسياسي راهن ومحدد .

- ٥ -

ما الذي يغزونا فعلا في الوقت الحاضر ؟

الذي يغزونا ليس ديكارت ولا ارسطو وفرنسيس بيكن أو هيغل . ولا اعتقد ان هؤلاء يؤلفون عالما فكريا بذاته وان المعري والحسن بن الهيثم وابن رشد وابن خلدون والخوارزمي يؤلفون عالما فكريا آخر .

الذي يغزونا هو الويسكي والسيارات وافلام الفيديو الخلاعية . هذه قضية سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية .

الذي يغزونا هو عالم حضاري حديث جدا في الغرب نفسه .

الذي يغزونا هو مجتمع الاستهلاك والانحلال او التغرب . ثمة فرق كبير بين الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين واوروبا في عصر صعودها الاساسي .. والتغرب ليس مفهوما تابعا للغرب بل للغربة . حضارة السيادة في الغرب في ربع القرن الاخير تابعة لانتاج النفط ، وبالتالي والى حد لا بأس به ، للأوضاع العربية واساس المشروع العربي القومي الشامل . الذي يغزونا هو تدهور المجتمع ، ضياع الانسان كجملة علاقات اجتماعية .

بشكل رئيسي ، ان الاجتياح الثقافي او الحضاري الذي يأخذنا تابع لنظام اجتماعي ـ اقتصادي ـ سياسي تكون وبتكون عندنا بخطى سريعة. من المحال مقاومته جديا بدون تغيير النظام .

الذي يتراجع هو ، في المقام الاول ، فكرة العمل او الشغل ، كينونة الانسان الاساسية . وبالتالي ، مع فكرة العمل ، فكرة التعامل ، الاجتماع ، فكرة الوعي والوجدان والاخلاق والحق ، فكرة الانسان والمواطن . اقصد انها تتراجع في الواقع وفي الفكر . فهي مقولات والمقولات تعبير عن علاقات كينونة . وهي تتراجع . مفهوم القيمة ، المفهوم المساواتي ، الهوية الكبيرة ، يتراجع .

النظام الرأسمالي العالمي يشهد ، في الآونة الاخيرة ، في مرحلته الاكثر تقدما ، تباعدا كبيرا ومتزايدا بين العمل والكسب . الوطن العربي يضاعف هذه الحالة العامة ، ان الشعور العام باستفحال اللاعدل شعور مطابق للواقع .

من الخطأ الاعتقاد بأنه من الممكن وقف الغزو الثقافي او الحضاري بدون تغيير النظام القائم من اساسه ، بدون تغيير المسيرة العربية الاخيرة، بدون رجوع قضية العرب الكبرى ، التي حملناها قبل ربع قرن . ليس ثمة مشروع عربي مستقبلي اذا لم يكن في اساسه مفهوم العمل والاجتماع الانساني . بدون ذلك ، الاشتراكية نفسها تكون غطاء لشيء آخر ، معاكس ، وتنتكس الروح العربية كلها الى المركانتيلية والوثنية . وقد يلبس هذا الانتكاس كله لباس الاصالة ايضا :

ينبغي ان نجيب على سؤال : هل نحن مؤمنون بتاريخ العالم ، بمصير عالمي للانسان اليوم ام لا ؟ هل نحن نريد ، كعزب ، رجوعا الى ماض قومي خاص بنا، ام نريد ، كعرب ، مشاركة مستقلة وجادة في حسم حاضر عالمي احتمالي ومتفارق ؟

بان احوال العالم ــ اليوم وليس فقط احوال العرب ــ ليست بخير. تاريخ البشرية واصل الان الى نهاية . اما ان تكون نهاية نظام بالكامل ، او ان تكون نهاية النوع نفسه . الثورة المطلوبة هي اهم انعطاف في تاريخ النوع منذ ظهوره . اقول « ثورة » و « الثورة » أكبر من « الاصلاح »، بطبيعة الحال ، لكنها اكبــر بكثير من « انتفاضية » من « اشتعال ثوري » . انها جهد طويل جدا . هل نعتبر انفسـنا خارج هذه القضية ؟ هل نعود الى سلف صالح ، الى مجد قومي ، الى تراث نؤسطره ، عودة مستحيلة عدا ذلك ؟ أم نعود في الروح والوعي ، الى مبدأ الانسان وعالمه من اجل بسط راهن ومستقبلي ؟ السـنا جزءا من البشرية ، اليست البشرية جزءا من تضمننا ، بل اولا تعيناتنا ؟ قبل عشرين سنة ، كان عبد الناصر لايرفع فقط الوية الوحدة الوطنية والوحدة القومية واستقلال الشعوب ، بل ايضا لواء السـلام العالمي والانفراج الدولي (هل نحن نعتبر الانطواء على الذات ردا ناجما على غزو ثقافي ؟ أم نؤمن بأن العالم معقول اي موصول وان الضروري والممكن ان نتملك هذا العالم بالروح ، وعيا وعمــلا ؟) .

- ٦ -

في الواقع ، اننا لم نتملك هذا العالم ، بل ان هذا العالم في وجهــه السلبي هو الذي يتملكنا .

ليس فقط اشياء الاستهلاك الغازية التي ذكرت بعض نماذجها الشهيرة، بل ايضا الافكار والثقافة بالمعنى العالي ، ميدان العلوم والآداب والفنون .

لقد ترجمنا مئات اوالاف الكتب في الاونة الاخيرة ، نقلنا مئات الافكار، تكلمنا عن احدث العلوم والبحوث العلمية ، حاولنا اللحاق بمسيرة التقدم المفهومة كمسيرة على خط يتقدم الى مالانهاية . هذه اللانهاية ، حسب هيغل وماركس ، هي اللانهاية السيئة ، الخط المستقيم المتتالي او لنقل: انها المحال والعبث . انتقلنا باسم الاحدث ، من موضة الى موضــة : الوجودية ، الماركســية ، ماركسـية أخر طراز ، البنيوية ، الانتربولوجيا

الثقافية الخ . المفقود هو الاساس ، والمفقود هو الروح النقدية ، والمفقود هو المشروع القومي والانساني ، القضية الحقيقية .

ان الفكر العربي اليوم ، في معظمه ، يفتقر بآن معا الى الفلسفة والى الشعب والى الواقعية . وهو لايعي ان هذه النقاط الثلاث هي ثلاثة وجوه لموقف واحد . وهذا الموقف الواحد هو احد اهم وجوه الغزو الثقافي الغربي الاحدث ، سواء اريد لهذا الموقف ان يتراكب مع موقف تقليدي وماضوي وان يمده ببعض المعطيات « العلمية » او العالمية او اريد له ان يكون ردا على الماضوية والسلفية وما شابه ، ان قسما من الفكر العربي الحالي يقيم وثنية اصالة ، وقسما يقيم وثنية حداثة . كلاهما وثنية ، وكلاهما نفي للانسان .

ان الرد على الغزو الثقافي الغربي والصهيوني يتطلب من جانب الفكر العربي موقفا كليا من الانسان وتاريخه ومصائره . هذا الموقف الكلي الاساسي هو البديل الحقيقي عن فكرة اللحاق بالغرب ، وعن فكرة تمثل آخر منجزات التقدم . هناك تقدم وتقدم الى الهاوية .

مانحتاج فعلا الى تمثله هو تاريخ الانسان والثقافة الانسانية . هذا التاريخ ليس « اخر منجزات الغيب » .

وان تمثل الجوانب او العناصر الايجابية في اخر منجزات الغرب يرتكز على الوعي الاساسي الآنف . ان تمثل افلاطون وارسطو والربيين والرواقيين واوربا القرن الثالث عشر والسادس عشر ، اهم بالنسبة لنا وللبشرية عموما من السعي الى اخر ابتكارات وفنون العلم الغربي . ان نقل المواطن لم يخدم معرّفة واقعنا .

ومانحتاج فعلا الى تمثله هو تاريخ وطننا وفكرنا وثقافتنا . هذا التاريخ الوطني قديم ، وله في البداية ابعاد كلية ، كونية .

١ ــ على سبيل المثال ، كما ذكرت انفا ، ان بلاد الشام وماحولها كانت هي الثورة النيولوتية : هنا ، الانسان انتقل من الصيد والاخذ والاتلاف الى الرعاية والزراعة والمكاثرة ، فصل المنفعة الى مباشرة وغير مباشرة ، فصل فكرة الواقع الى مباشر وغير مباشر ، هنا جرد وتجرد ، استوعى وتوجدن ، عقل وحسب وهندس وجبر ... غير ان لهذا الامر الخطير الاهمية ابعاده الكلية والراهنة خارج التعليم والثقافة العامة .

٢ ــ كذلك قضية الدين التوحيـدي وموقعه في التاريخ الانساني وراهنيته والخيارات التي يطرحها في المستوى الروحي والثقافي اليوم .

فهي ليست موضع فهم او اعتبار . كثيرون يرفعون لواء الديـن التوحيدي ، كغطاء لطوطمية اجتماعية ثقافية ، لعرقية مذهبية او دينية، لمشروع سياسي حزبي ، اقصد حكمي او حكومي .

٣ ــ والتاريخ القومي كله صار موضوعا لتبرير وتمجيد ودفـاع وهجوم متنوع .

٤ ــ المفكرون الكبار في تاريخنا ، من فلاسفة وعلماء وادباء ، لا يسهمون في تكوين وعينا الراهن ، وعلى هذا ، يجب ان لا نلوم سـوى انفسنا ، وليس التراث نفسه من جهة ولا الغرب من جهة اخرى .

ان مقاومة الغزو الثقافي والاستلاب الروحي تتطلب بعثـا صحيحا وموضوعيا للتراث الفكري العربي ، من اجل المثقفين ومن اجل الشعب عامة . من العبث أن نرتد على اوروبا الحديثة وان ندعي في الوقت نفسه ان فلانا او فلانا او فلانا من اعلام العرب القدامى سبقوا الاوروبيين . هذا الموقف خاطىء في شطريه ، وغير مقنع ، هناك دائمـا مـن يسبق السابق . هناك دائما بداية قبل البداية . كل شيء مهم في التاريخ .

بدايات ، يخترع عدة مرات . اذا حللنا الواقع الى عناصر ، الى مادة ، عندئذ يجب القول انه ليس هناك جديد في التاريخ وليس هناك تاريخ .

المقنع هو ان نبين البذور الكونية الايجابية في تراثنا الماضي وانهــا بذور لم تمشى اكثر الى الامام عندنا ، نظرا لانتكاس تاريخنا العربي المستقل ولانطوائنا المتواقت من انعطاف كبير جدا في تاريخ الانسان ، تحقق في اوروبا ، وسد علينا باشكال مختلفة .

التاريخ كله تناقض . والاستقلال ليس رد فعل . لن نبني هويــة ثقافية عربية بما قد يتصور البعض انه رد شامل على الغرب . الذي اسميه الغرب هو مرحلة بل اصح لحظة بالمعنى الفلسفي ، المنطقــي التاريخي ، وليس الزمني التعاقبي المجرد والطوباني ، لحظة هامة جدا ، راهنة جدا ، وازدواجية بطبيعة الحال ، في تاريخ البشرية . والثقافة العربية التاريخية الكبرى ليست على طرفي نقيض مع هذه اللحظة . ويجب ان لا ننسى ان الدين التوحيدي ليس البوذية او ديانات الشرق الاقصى او فكر الهند . . .

— ٧ —

اخيرا ، اتقدم باربع اقتراحات للتفكير والنقاش :

١ — مبدئيا ، فصل الثقافة عن السياسة وعن هذا الذي يسميه الكثيرون الايديولوجية . خلق تواصل ثقافي واع بين المشرق والمغرب ، مثلا ، نقل الفولكلور الشعبي المغربي الى المشرق ، السعي الى خلــق اغنية للطفل العربي ، الخ . يجب انهاء الهوية الثقافية العربية عن هذا الطريق المتنوع . يجب عدم التسليم او الركون لوحدة اللغة او لوحدة الدين ، كعوامل ضامنة لوحدة الامة ثقافيا . انها بذاتها ولحالها ، لا تضمن شيئــا .

يجب الانتهاء من خلط الثقافة واللغة ، لصالح الاثنين ، يجب الانتهاء من خلط الثقافة والدين ، لصالح الاثنين .

في الذهن العربي الحالي ، العلاقات والروابط والتداخل وما شابه هي باب للخلط الذي قد يسمي نفســه علاقة جدلية وتفاعلا وديالكتيا .

أريد ان أقول اذا ان الجدل هو طريقة عمل واعية بالمفاهيم . والمفاهيم تعني اولا : الفصل ،الحد ، من لا يريد فصلا لا يريد معرفة ، يبقى دون المعرفة ، يدور الى مالانهاية في بديهيات مكرورة ، او بالاصح في اشباه بديهيات باطلة الى حد لابأس به .

الثقافة ليست تابعة ملحقة باللغة ، والثقافة كما هي ، بتنوعها وثروتها واختلافها ، بين الخليج والمحيط ، يمكن ويجب ان تكون عامل توحيد كبيرا .

٢ ــ ايجاد هيئة عربية مستقلة وذات كيان على نطاق مجموع الامة تتولى بعث ما يجب بعثه من التراث الفكري ، واصدار ذلك في سلاسل من كتب صغيرة تحوي مختارات او مقتطفات مع مقدمة وشروح ، هذا يتطلب برنامجا .

ليس من الممكن ولا من الضروري او المفيد ان يقرأ عشرات الالوف من الناس كلا مجلد من تاريخ ابن الاثير مثلا ، لكن من الممكن والضروري ان يقرأ عشرات او مئات الالوف من الناس كتاب مختارات من هذا التاريخ ، وهكذا الامر بالنسبة لعشرات ومئات اخرين .

ولا يسعني الا ان ابدي احترامي وتقديري لكل المجهودات الخاصة او الرسمية التي بذلت في هذا الاتجاه . لكن الامر يستحق التطوير ، يجب ان يتكون محور فكري ثقافي للامة العربية . هذا المحور لا ينفي التناقضات والاختلافات لكنه ايضا محور مسائل . وتناقضات يمكن ان تخدمه .

بوجه عام ، يجب ملء الفراغ الروحي والفكري حتى لا يملأه غزو ثقافي لا نريده ، وحتى لا تملاه اشباح ، اشباح الماضي او هواماته .

٣ ــ ايجادهيئة عربية « للسيطرة » على عملية الترجمة ، اخراج هذه العملية من التلقائية والعشوائية والتجارة والموطن والسياسات

الانية . اقول « سيطرة » بمعنى اشراف ، لا اقصد اذا اجراءات منع حكومية . ان اجراءات المنع يمكن ان تؤدي الى عكس المطلوب . الافكار لا تعامل بالمنع . المنع ليس مجابهة . « السيطرة » التي قصدت خطة توجيه .

العالم ، خارج الوطن العربي ، ليس محصورا في الغرب هناك الاتحاد السوفياتي ، الصين ، الهند ، اسيا . لكن هنا ايضا يجب ان تضطلع بالقضية ، قضية النقل ، هيئة فكرية مسؤولة ، ليس الاخرون هم الذين يلامون اذا لم يكن ما يأتينا من عندهم افضل انتاجهم الفكري او ما نحتاج اليه فعلا ، المطلوب هو الذهاب والاخذ ،بدلا من الاستقبال والتلقي،الاخذ مسؤولية تاريخية .

٤ ـ السعي الى حماية الهوية الثقافية للابناء المهاجرين العرب ، خارج الوطن ، هذا يفترض ايجاد مؤسسات في تلك البلدان لتعليم اللغة العربية ، والاستفادة من مناخ الديموقراطية والاعتراف بالتعددية الثقافية لاحياء الثقافة العربية بين المهاجرين العرب . ومآله انشاء هوية ثقافية قوية عربية للعرب المجتمعين في فرنسا على سبيل المثال ، او السعي الى جمع هؤلاء العرب الآتين من اقطار عربية مختلفة في بوتقة ثقافية واحدة في فرنسا وفي غيرها من البلدان .

هذه ليست عملية سياسية بالمعنى المألوف ، لكن ابعادها السياسية بمعنى اخر واضحة على ما اعتقده .

هذا لا يعني السعي الى فصل العرب المستوطنين او المقيمين عن البلدان والمجتمعات التي هم فيها . بل الامر بالعكس . في الوقت الحاضر يوجد في فرنسا بعض العمال وغير العمال العرب الذين هم في عزلة وغربة عن المجتمع المحيط بهم وهم في الوقت نفسه بلا لغة عربية ولا ثقافة عربية .

ليس اذن المطلوب ، حسب تصوري ، شن حرب هويات ثقافية ، بل الاستفادة من التعددية المعترف بها في بلدان الغرب لصون او انشاء او انماء هوية ثقافية عربية للعرب ، مما يساعد على تلاؤمهم وحياتهم حيث اختاروا او اضطروا ان يعيشوا ويعملوا . من المؤسف والمؤلم ان يكون لليهود هذا الحضور وهذا النفوذ المعلومان في فرنسا ، وان لا يكون ثمة شيء يشبه ذلك للعرب في فرنسا ، رغم عددهم ورغم كل المزايا العربية الموضوعية التي يجب ان تحول من الموضوعية المجردة ومن الشيئية الميتة الى الواقعية الفعلية .

لكن هذه القضية تعيدني الى القاعدة العامة : في الموضوعية المجردة ، العرب كم كبير ، بشرا ومساحة ونفطا ومالا وربما اسلحة ايضا . في الواقعية الفعلية ، الامر غير ذلك . الواقعية الفعلية ليست « مادة » بل هي معقولية كونية . ان نضع انفسنا خارجها ، وفي الربع الاخير من القرن العشرين ، هذا هلاكنا .

الثقافة الصهيونية . ماهي ؟!

د. هاني الراهب

قد لا تتيسر لنا فاتحة لهذه المقالة افضل من سؤال هرتزل العصبي الانكاري : « وما هي الثقافة اليهودية ؟ » وان نستبدل كلمة (اليهودية) بكلمة (الصهيونية) ، يصر للانكار أساس أقوى بكثير من نفاذ الصبر عند هرتزل .

الثقافة واحدة من الكلمات الكبيرة . والكلمات الكبيرة غالبا ما تتأبى على التعريف الدقيق . لكننا سنؤكد على اثنين فقط من معانيها المتعددة : الشمولي والضيق ، الاول ، باعتباره مجموعة الخصائص المميزة لامة من الامم ، والثاني باعتباره الجانب الفكري لحضارة امة من الامم .

في تقديري اننا لا نستطيع ان نتحدث عن ثقافة صهيونية بالمعنى الاول . فالصهيونية ، كحركة سياسية تاريخية ، لا تتجاوز المئة عام الا قليلا . وخلال هذه الفترة لم تتمكن من انشاء خصائص مميزة على النحو الذي نلمسه في الثقافة الهندية أو الفرنسية أو العربية . وبالطبع ، فان هذا التوكيد يتضمن نفيا لان تكون الصهيونية واليهودية مترادفتين في المعنى ، ونفيا ايضا لان تكون الصهيونية تعبيرا حديثا عن اليهودية . انها شيء آخر تماما ، رغم اتكائها الشديد اللاحق لتكوينها على معطيات يهودية كثيرة وأساسية .

لكننا نستطيع ان نتحدث الى حد ما على ثقافة صهيونية بالمعنى الثاني . فرغم ان الصهيونية لم تنشىء حتى الان ما يمكن ان يسمى حضارة ، ورغم انها كونت دولة وعجزت عن انشاء أمة ، ثمة صعيد فكري بارز المعالم يمكن ان نتتبعه في ما اصطلح على تسميته بالحركة الصهيونية العالمية . والى جانب الجهاز الفكري الذي اصطنعته الصهيونية ينبغي ان نذكر محاولات الصهيونيين الذين هاجروا الى فلسطين واستوطنوا فيها ان ينشئوا ثقافة خاصة بهم . وهي محاولات مرت بثلاثة اطوار ، وكانت على الدوام متوجهة بالمعطيات النظرية والعملية للفكر الصهيوني .

ان الطبيعة الخاصة بهذا الفكر وتلك المحاولات يمكن ان تستشف من ثلاثة مصادر رئيسية . وغني عن القول ان المصادر الثلاثة هذه تعود الى بيئة اوروبية صرف ، اتسمت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بسمات جوهرية لعل أهمها سيادة النزعة القومية ، وطغيان الطابع الاستعماري لهذه النزعة ، وانتشار الفكر الاشتراكي بأشكاله المتعددة ، وخاصة الفكر الماركسي الذي ولد من صميم تناقضات الحياة الاوروبية .

الاصول الطبقية

ان اهم ما يميز الفكر الصهيوني هو كونه نتاج الطبقة المتوسطة من يهود اوروبا . ويجمع الكتاب الاسرائيليون ، الذين ارخوا للحركة الصهيونية ، على هذه النقطة اجماعا لا يترك مجالا للتشكك فيها .

فالهجرة الاولى التي بدأت عام ١٨٨٢ ، والثانية التي بدأت عام ١٩٠٦ ، والثالثة التي بدأت بعد اعلان وعد بلفور ، جاءت بأفواج من اليهود الساخطين على وضعهم الاجتماعي في روسيا ووسط أوروبا ، وهم بأغلبية ساحقة ينتمون الى فئات الطبقة المتوسطة . كما ان هجرات صغيرة اخرى ، حوالي اعوام ١٩٢٥ ، ١٩٣٣ ، ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ ، لم تخرج عن القاعدة وان كانت اعدادها اقل بكثير من اعداد سابقاتها .

هذه الهجرات هي التي رسمت المسار الفكري للصهيونية ، وقامت بالمحاولات التي استهدفت خلق ثقافة صهيونية ، اما الهجرات التي تلت قيام الدولة الصهيونية ، فلم تستطع ، رغم عدد اعضائها الضخم ، ان تكون شيئا سوى عنصر متخلف في البنية الاوروبية لهذه الدولة ، فهي في معظمها جاءت من بلدان الشرقين الادنى والاوسط . وان هذا التناقض النوعي بين هجرات ما قبل قيام الدولة وما بعد قيامها يفسر الانشطار الجوهري المتزايد حدة في البنية الاسرائيلية بين اشكنازيم وسفارديم .

تؤكد المنبت البرجوازي الصغير للصهيونية دراسات قام بها كتاب يهود لا صهيونيون لطبيعة العلاقة بين اليهود والمجتمعات الاوروبية خلال قرون مضت . ففي العصر الاقطاعي ، كان اليهودي واحدا من مكونات الحياة الاقتصادية الاقطاعية ، كالقن ومالك الارض . لقد كان هو رأس المال الذي لم يستطع الاقطاع ان يكونه رغم حاجته له . ولان رأس المال كان بطبيعة النظام الاقطاعي على هامش الحياة الاقتصادية ، ظل اليهودي على هامش الحياة الاجتماعية . لكنه ظل هناك ، ضروريا ومطلوبا ، ومتعايشا مع الفئات الاجتماعية الاساسية بطريقة او باخرى . لم يفكر ، رغم كل شيء ، بقومية يهودية ، ولا بدولة يهودية ، ولا « بالعودة » الى فلسطين . وقد ظهر افراد قليلون ، مثل ساباتاي زيبي ، دعوا للعودة الى أرض كنعان ، فاحرقهم اليهود باعتبارهم مسيحيين زائفين .

غير أن هذا التأقلم لاقى ضربة مميتة على يد الراسمالية ، التي ما ان تكبدت الحياة الاقتصادية الاوروبية حتى الفت الدور الاقتصادي

الخاص الذي كان اليهودي يقوم به في عصر الاقطاع ، مثلما الغت أدوارا اخرى كان يقوم بها غير اليهود . وما ان انتصف القرن التاسع عشر حتى كان اليهود ، مثلهم مثل سكان اوروبا ، قد انقسموا الى طبقات ثلاث : الراسماليون القدامى الذين دخلوا في تكوين البرجوازية الاوروبية كجزء لا يتجزأ منها ، والطبقة الدنيا التي تحولت الى جزء من البروليتاريا الاوروبية مندمج فيها ، اما الطبقة المتوسطة فقد وقعت في أوروبا الشرقية والوسطى بين مطرقة الراسمالية النامية وسندان بقايا الاقطاع ، ودفعت جزءا من الثمن الفادح الذي تطلبه الصراع بين الراسمالية والاقطاع ، وخاصة في روسيا بعد اصلاحات ١٨٦٣ وهكذا بدأت موجات هجرة كثيفة ، من روسيا بصورة رئيسية ، ومن بولونيا والمانيا ودول البلقان .

الى اين توجهت هذه الهجرة ؟ يعطينا الكتاب الاسرائيليون ذات المغزى بهذا الصدد . ففي سبعينات القرن التاسع عشر هاجر ٦٠ الف يهودي الى الغرب الاوروبي والامريكي . وفي الثمانينات هاجر ٢٠٠ الف . وفي التسعينات ٣٠٠ الف . وبين ١٩٠٠ و ١٩١٤ هاجر مليون وخمسمئة الف الى امريكا . بالمقابل ، لم يكن عدد الذين هاجروا الى فلسطين خلال هذه الفترة يتجاوز الالاف . وكان العامل النفسي الذي دفع هذه الالاف القليلة الى فلسطين اقوى من العامل الاقتصادي . فهؤلاء كانوا يريدون الاحتفاظ بأوروبيتهم ، ولكن بعيدا عن اوروبا وامريكا . وكان شعورهم انهم لا يقلون قيمة ولا امكانات عن اوروبيي الطبقة المتوسطة ، وانهم قادرون على منافسة الاوروبيين والتخلص من اذلالهم بتكوين دولة وامة . وقد حافظوا باستمرار على طبيعة الطبقة المتوسطة الفكرية ، من انقسامات عقائدية حادة ، وتذبذب جوهري في التفكير ، وتشكيل احزاب صغيرة لا عد لها ، وطوباوية مضحكة في تصور الانسان والحياة والمستقبل .

ولعل المثال ان يوضح المنشأ المتوسط للصهيونية . ففي أوساط الحركة العمالية الثورية في روسيا ترعرع تنظيم للعمال اليهود ، هو البوند ، وواكب العمل السياسي للحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي قاده لينين كذلك تشكلت في عديد من انحاء روسيا نواد للصهيونية تدعو للقومية

اليهودية واستعمار فلسطين . لكن الحركتين لم تلتقيا قط . فبينما اختار اعضاء البوند الحل الماركسي ، المتمثل في احياء الثقافة اليهودية وعصرنتها في الاطار الشيوعي ، والبقاء ضمن نظام سياسي تعددي اشتراكي ، أصر الصهيونيون على ارض ينشئون فيها دولة وينفصلون بها عن شعوب العالم . وهكذا تحولت جمعية احباء صهيون ، التي تشكلت من النوادي الصهيونية ، الى حزب سياسي هو الحزب الديمقراطي الاشتراكي العبري ، بوبل زيون ، ذو التوجه الماركسي القومي ، بقيادة بن غوريون وبن زفي، الذي صار فيما بعد حزب العمل الحاكم في اسرائيل.

مؤثرات

طبيعي ان يتعرض فكر الطبقة المتوسطة الى مؤثرات عديدة ، ومتضاربة أساسا . فهذه الطبقة المختلطة كبنية تستطيع امتصاص تيارات فكرية متنوعة ، على نحو يلعب فيه الخيال دورا اكبر بكثير مما يلعبه ادراك الواقع الموضوعي .

ومن المؤكد ان الفكر القومي كان اهم ما تأثر به احباء صهيون ، ومن بعدهم بوبل زيون . ان القرن التاسع عشر هو عصر القومية في اوروبا ، وبتحديد اكبر ، هو عصر القومية الاستعمارية ، التي ارادت تنمية حس قومي متضخم لتحتفظ بتفوق اقتصادي وبالسيطرة على اسواق تجارية ومصادر ثابتة للمواد الاولية . وقد يبدو من المفارقة أن يعتنق صهيونيون من الطبقة المتوسطة فكرا قوميا له هذه الصفة ، وهم جماعة لا تملك وسائل انتاج اساسا غير ان الفكر الصهيوني ، الرجراج بطبيعته سرعان ما استدرك هذا الخلل ، وبدلا من توجه مستحيل نحو السيطرة على الاسواق ومصادر المواد ، او نقل في توجهه الاستعماري . وكنتيجة الارض نفسها التي كان رأسماليو اوروبا يكتفون باستعمارها . وكنتيجة لهذه المعادلة صارت الارض تشكل العمود الفقري في منظومة الفكر الصهيوني ، واخترعت لاجلها الاساطير وزورت الحقائق التاريخية ، كما سنرى بعد قليل .

هذا التوجه الاستعماري جاء نتيجة منطقية لتشرب الرؤية القومية في روسيا القيصرية والمانيا وفرنسا وانكلترا . اننا هنا امام ظاهرة تاريخية اكدت على الطابع الغيبي لشخصية الامة ، على ان الامة سر من اسرار الطبيعة ، تمتلك روحا خاصة بها ، وتحمل تفوقها الضمني على بقية الامم . وهكذا قام المفكرون الصهيونيون بتوكيد مماثل على عزة امتهم ، وتفردها بين الامم ، على ان لها « روحا قومية » تماما كما للروس والبولونيين والالمان وغيرهم . واضافوا ان الشتات وضياع الارض هما العاملان الحاسمان في ابطال مفعولها الخلاق ، وان وضع حد للشتات باستعادة الارض هو وحده الكفيل باستعادة روح الامة اليهودية وتفعيلها . وكان الطابع الرومنتيكي ، وخاصة في الرومنتيكية الالمانية ، قد جعل من فكرة الامة كيانا عضويا ، فوق بشري مفعما بالغيبية والاصول العرقية الواصلة الى ما قبل التاريخ . وكان لغيبيته اكبر الاثر في صياغة الصهيونيين لفكرتهم عن الامة .

على ان ثمة فرقا جوهريا في الممارسة بين قومية المفكرين الصهيونيين وقومية المفكرين الراسماليين . فحيث كان المفكرون الراسماليون يفكرون باسم طبقة تسيطر على مقدرات امة ، وتستطيع ان تدعي انها تتكلم باسمها ، كان المفكرون الصهيونيون بعيدين جدا عن هذا الموقع الاجتماعي الاقتصادي الحاسم . كان هؤلاء اقلية ضمن طبقتهم نفسها ، ولم يكن بوسعهم ان يتكلموا حتى باسم هذه الطبقة ، ناهيك بالطبقتين الاخريين ، البرجوازية والعاملة ، اللتين اندمجتا بالبنية الاقتصادية لامم اوروبا . وبدلا من ان يدركوا عقم اية محاولة لاجتذاب اليهود الاخرين ، ازدادوا شططا وتطرفا في ابراز القومية اليهودية ، وجعلوا من انفسهم رسلا لهـا يحق لهم التكلم باسمها ومطالبة الاخرين بالانضواء تحت لوائها . ان هذه الممارسة ليست بعيدة عن فكر الطبقة المتوسطة . فهي ، لكي تحتفظ بمصالحها ، تعمد الى التكلم باسم الامة كلها ، عن مصير الامة وقدرها، ونضالها ، وضرورة الالتفاف حول قيادتها ، الخ .. وهذا ما يعلنه منشور

اصدرته جمعية احباء صهيون ، اذ جاء فيه : « نحن المتعلمين يجب أن نكون الابطال الذين يدخلون المعركة على رأس شعبهم . »

من جانب اخر ، كان الفكر الاوروبي الاشتراكي مؤثرا لا يقل اهمية عن الفكر القومي ، على الاقل في المرحلة التكوينية فالتاسيسية لحركة الصهيونية . وتلك هي واحدة من ابرز غرابات الفكر الصهيوني . وسنرى بعد قليل كيف اشترع بوروخوف توحيدا فكريا بين النظرية القومية الاوروبية والاشتراكية . اما الان فسنشير الى الادبيات والمنشورات التي كانت تصدرها النوادي الصهيونية في روسيا واوربا الوسطى ، والتي كانت متأثرة تأثرا طاغيا بالفكر الاشتراكي . يقول ديفيد هوروفتز ، الحاكم السابق لمصرف اسرائيل : « في (حركة الشباب الصهيوني العمالي) خلقنا لانفسنا عالما مثاليا ، جديدا وحرا ونبيلا . طمنا بيوتوبيا ـ وكانت حركة العمل الصهيوني بوابتنا الى قادتنا اليه . » وواضح أن التركيز على « العمالي » و « العمل » في هذه اليوتوبيا ينم عن توجه اشتراكي في الفكـر .

ويقول منشور صادر في لفوف عام ١٩٠٤ :

« ايها العمال اليهود في كل البلدان اتحدوا وراء راية بويل زيون . أيها الاخوة والاخوات من الطبقة العاملة ! اننا نرى امامنا حركتين قويتين عظيمتين : الاشتراكية التي تنشد تحريرنا مـن العبودية الاقتصادية والسياسية ، والصهيونية التي تنشد تحريرنا من نير الشتات . كلتاهما تؤثران علينا تأثيرا عظيما . كلتاهما تمداننا بمستقبل مجيد . كلتاهما حيويتان بالنسبة لنا كالحياة نفسها . . »

ليس الطابع الاطنابي الاعلاني عصيا على الالتقاط في هذا المنشور . وليست عصية ايضا محاولة الصهيونيين التماس التلاحم من الطبقـة العاملة اليهودية ، التي انصرفت عنهم ، كما رأينا . وقد وصل بهم الامر الى حد صياغة شعارات سائرة من غسيل الدماغ . ففي منشور آخـر نقرأ ما يلي :

« ايها العمال والعاملات اليهود ، ايها المستغلون ، المضطهدون ، الذين يعيشون بعرق جاجبهم .. لنتوحد ونعلن : يسقط الاندماج ! تسقط الراسمالية ! تسقط اللاسامية ! لتعش البروليتاريا الدولية ! لتعش الحرية اليهودية ! لتعش الاشتراكية ! لتعش الصهيونية ! »

وبالطبع تجدر الاشارة هنا الى الاثر الخاص والعميق الذي تركته الحياة الوطنية الروسية على الحركة الصهيونية ، فالمناخ الثوري الجائش في روسيا بين ١٨٨٠ و ١٩٢٠ كان المهد الذي ولدت فيه الصهيونية وترعرعت ، دون ان يكون بالطبع مسؤولا عنها أو متبنيا لها . فمن روسيا جاء مؤسسو اسرائيل . وفي (منسك) ولدت حركة العمل الصهيوني عام ١٩٠٢ . وعموما ، فان الصهيونية ، كما يقول كتاب اسرائيل ، كانت نتاجا اوروبيا صرفا ، مثله مثل الشعبية في روسيا والعرقية في المانيا .

اسماء :

في تاريخ الفكر الصهيوني ، ثمة أسماء صنعته او بلورته الى حد كبير ، واعطته زخما واستمرارية ، وزودت الحركة الصهيونية بالقناع الايديولوجي اللازم لخوض معركتها الاستعمارية . ومن الملاحظ ان معظم هؤلاء ، ان لم يكن كلهم ، انقلبوا الى الصهيونية انقلابا مفاجئا ، بعد ان كانوا افرادا مندمجين في مجتمعاتهم الاوروبية . ويتضح من تكرر هذه الظاهرة ان اعتناق الصهيونية من قبلهم كان فعلا نفسيا ، لا موقفا فكريا تاريخيا ، انهم لو صبروا قليلا لسارت الامور على ما يرام في المناخ الليبرالي المتزايد قوة واتساعا في اوروبا واميركا ، ان عقيدتهم الجديدة كانت وليدة عوامل شخصية ، وليست سياقا تاريخيا تفترضه وتنشئه قوانين التاريخ . ولعل أبرز مثال على هؤلاء تيودور هرتزل نفسه ، مؤسس الحركة الصهيونية العالمية . فهذا الصحفي النمسوي المتأنق ، الذي كان يكتب المسرحيات كمواطن نمسوي يزدري اليهودية والتشبث بها ، سرعان ما أصدر كتابه الشهير (الدولة اليهودية) بعد عام من

مشاهدته لاحداث قضية دريفوس ، واسس حركة قومية يهودية بعد عام آخر . ولانه كان الوحيد المتشبع بليبرالية اوروبا الغربية ، كان ابعد الصهيونيين عن فكرة ارض الميعاد والتراث اليهودي . كان يريد مكانا ، اي مكان ، يقطنه اليهود بعيدا عن اذلال الاوروبيين لهم . ان دوره الفكري ، بعكس دوره السياسي ، ضئيل للغاية ، وقد انحسر نهائيا بعد زمن قصير من وفاته .

اما ليب ليلينبلوم فكان المفكر الذي الهم المهاجرين من روسيا عام ١٨٨٢ ان يستوطنوا فلسطين . وكان قبل سنوات قد ادار ظهره لليهودية . لكن احداث ذلك العام غيرت رايه فجاة وجعلته ينشىء تفكيرا قوميا ذا توجه عملي ، هو الهجرة الى فلسطين والاستيطان فيها .

وكان موزس هس ايضا يهوديا مندمجا والمانيا اشتراكيا من الطبقة المتوسطة . بل ويقال انه كان يتعاون مع ماركس وانجلز . ورغم ان كتابه (روما واورشليم) صدر عام ١٨٦٢ ، فلم يلق اهتماما الا بعد ربع قرن او يزيد . وقد اضاف هذا الكتاب الى الفكر الصهيوني مسحة رومنتيكية في دعوته الطوباوية الى تاسيس دولة يهودية على اساس « خلق عملي » من الحب والطوعية والتعاون المنسجم بين الناس الاحرار . وقد راى في التاريخ صراعا بين القوى الغيرية للحب والعدل والقوى الانانية الاضطهادية . وراى ان على اليهود في دولتهم القومية ان يهيئوا « لسبت التاريخ » الاشتراكي ، الذي سيحررهم والبشرية معهم . وسيكون هذا ممكنا عبر عودة اليهود الى العمل « المنتج » في الارض ، ضمن اطار من النظام العادل الخالي من الهرمية الاجتماعية ، والمكون من وحدات تعاونية .

كذلك تحول الى الصهيونية فجاة ليوبنسكر الروسي ، وسرعان ما راى في السامية داء عضالا ليس له دواء . وفي كتابه (الانعتاق الذاتي) ، عام ١٨٨٢ ، دعا بحماسة شديدة الى ان يمتلك اليهود ارضا خاصة بهم .

لم يكن بالنسبة له ان تكون الارض ، وانما اية ارض يمكنها ان تنقذ اليهود من الانقراض في اوروبا .

على أن أهم مفكر منح للحركة الصهيونية ما تحتاج اليه من صيغ عقائدية ضرورية هو بير بوروخوف ، الذي فصله الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي من عضويته بسبب انحرافاته الصهيونية . لقد انشأ بوروخوف نظرية تدمج الماركسية الاساسية والصهيونية ، الثورة الاشتراكية والقومية اليهودية . وهذه النظرية هي التي مكنت الصهيونيين من الاعتقاد بأن استعمارهم لفلسطين سيكون تطبيقا للاشتراكية الماركسية .

لقد رأى بوروخوف أن البؤس اليهودي نتيجة « لسيرورة انتاج » مناوئة لليهود . وهذه فكرة صحيحة ، سوى انها لم تحدد ان اليهود الذين ناوأتهم الثورة الصناعية الاوروبية هم فئات من الطبقة المتوسطة فقط ، وليس اليهود قاطبة . وفي كتابه الصغير (المسألة القومية والصراع الطبقي) ، يشير الى ان اليهود ، لكونهم لا ارض لهم ، قد اخرجوا بالضرورة من ميادين الاقتصاد الاولية ، كالزراعة والتعدين ، ودفعوا الى الميادين الهامشية ، كالتجارة والصناعة الخفيفة . وهذا صحيح ايضا ، سوى انه ينطبق على الطبقات المتوسطة الاوروبية كلها ، وليس فقط على اليهود . وتأتي النقلة الحاسمة في فكر بوروخوف عندما يسقط الطبقة المتوسطة نهائيا من حسابه ، ويستبدلها بالبروليتاريا اليهودية ، بأسلوب من الخداع الفكري الذاتي ، فيقول : ان كون البروليتاريا اليهودية غير منتجة جعلها عاجزة عن التجمع كقوة اجتماعية ، فقد ضاعت منها القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي . وواضح أن كلمة (بروليتاريا) مقحمة اقحاما في هذه العبارة ، وأن القاعدة الاستراتيجية للصراع الطبقي ليست ارضا قومية بحسب الماركسية ، وانما هي الميدان الدولي بأكمله . ويتابع بوروخوف تحليله فأكد على ضرورة الاشتراكية العلمية ، التي ستجعل اليهود بشرا منتجين ، ولكن فقط على ارض خاصة بهم .

لم يكن بوروخوف يؤمن بالتراث اليهودي . وكان ينظر الى التاريخ نظرة جدلية ، فيرى أن القوى الاجتماعية التي جعلت الحياة مستحيلة بالنسبة لليهود في الشتات هي نفسها القوى الحتمية التي ستخلق منهم بروليتاريا منتجة ، ولكن على ارض فلسطين . وقد اختار فلسطين ليس لأنها ارض الآباء والاجداد ، بل لانها ارض فقيرة ، لن تهتم بها الراسمالية الدولية ، ولن تحاول طرد اليهود منها . وقد رأى ان العرب سيرحبون جدا بمجيء اليهود اليها . فالعرب المحرومون في رأيه من شخصية ثقافية واقتصادية خاصة بهم لن يستطيعوا أن يكونوا امة ــ بعكس اليهود تماما . ولأنهم ليسوا أمة ، لن يكونوا قادرين على معارضة منظمة لمؤثرات خارجية . كان نوعا من الحتمية التاريخية في تصوره ان العرب عاجزون عن تنمية قومية خاصة بهم . وما دامت فلسطين في مأمن من خطط الراسمالية الدولية الشريرة ، فسيندمج العرب في اليهود ويصيروا جزءا منهم .

لقد تلقف الصهيونيون أفكار بوروخوف المتمركسة ، واعتبروها انجيلا صهيونيا . فلأول مرة يأتيهم مثل هذا التصور الذي يريحهم من الاشكال الجوهري بين ايمانهم بالاشتراكية وضرورة استعمار فلسطين ، ويريحهم من المسؤولية الاخلاقية المترتبة عليهم تجاه العرب . وكان بوروخوف قد رسم خمسة شروط اساسية لنجاح الاستعمار لا تنطبق الا على فلسطين ، هي :

١ ــ يجب الا يكون في الارض اقتصاد راسمالي متطور .

٢ ــ يجب الا تكون حكومتها في أيدي واحدة من القوى الرئيسية الامبريالية .

٣ ــ يجب أن تكون فيها بدايات جماعة يهودية راغبة في سيرورة التحول الى بروليتاريا .

٤ ــ يجب الا تكون قريبة جدا من المراكز الرئيسية للراسمالية العليا.

٥ ــ لابد للسكان الاصليين من أن يتشابهوا مع اليهود نفسيا وعرقيا بحيث يصيرون ، « تحت ادارة فعالة » ، متكيفين مع القادمين الجدد و « ثقافتهم الروحية الأسمى » .

وفي مكان آخر ، كتب بوروخوف أن « العوام » فقط يعتبرون السكان عربا أو اتراك .. وليس لديهم سبب يجعلهم يلاقوننا بالعداء فورا . على العكس ، هم يعتقدون ان الارض حق لليهود ، وهم انفسهم يسمونها « ارض اليهود » .

اننا في هذه الايام نقرأ كثيرا من الكتابات الاسرائيلية التي تؤرخ للحركة الصهيونية ، والتي تزعم ان القادة الصهيونيين انفسهم لم يكونوا واعين بمشكلة اسمها العرب . ان نظريات بوروخوف هذه ، التي مارست تأثيرا طاغيا على الحركة الصهيونية حتى عام ١٩٠٦ ، والتي شكلت أساسا للنشاط الصهيوني حتى عام ١٩٢٠ ، تنفي نفيا قاطعا اي جهل او غياب وعي بالمشكلة العربية .

اسطورتان :

هذه المصادر والمؤثرات الفكرية في الحركة الصهيونية سرعان ما تبلورت في اسطورتين قويتين تشكلان الاساس العقائدي للحركة الصهيونية . ونحن نعلم أن كل حركة سياسية تنشىء أساطيرها الخاصة بها لكي تستمد منها مبرر بقائها ووجودها ، ولتبقى معنويات افرادها عالية وزخمها الخاص مستمرا . ويمكن ان نصنف هذه الاساطير في مجموعتين ، ترتبط الاولى بالاصول ، والثانية بالرسالة .

لقد اعتمد الفكر الصهيوني أسطورة الاصول بسهولة . وانطلاقا من الفكر القومي الاوروبي ، الذي جعل كل أمة أوروبية كيانا عضويا مفرقا في القدم ، صار عمر الامة اليهودية في نظر المفكرين الصهيونيين يقارب أربعة آلاف عام . فابراهيم الذي هو منشىء الامة اليهودية ، وجد

بحسب مقولاتهم في القرن الثاني والعشرين قبل الميلاد . ولم يكونوا في توكيدهم للهوية القومية بحاجة الا لتحويل التوراة من كتاب ديني الى كتاب تاريخي ، رغم ما فيه من تزوير وانتحال ومبالغات وكذب ، والايمان بأن ما سجل فيــه حقائق تاريخية موثقة لا يأتيها الباطـل . وتحولت المشكلة اليهودية ، التي هي نتاج راسمالية القرن التاسع عشر ، الى مشكلة ازلية ، كونية ، وستظل ابدية ، تمم اليهود كلهم ، وسببها الاولي الوحيد هو الشتات .

لهذه الاسطورة تفرعات وامتدادات كثيرة لا مجال للتطرق اليها هنا . غير ان ثلاث نقاط هامة ترتبط بها لابد من ذكرها . اولاهـا اضطـرار المفكرين الصهيونيين الى تبني نظرية مستحيلة في الصفاء العرقي لليهود ، سرعان ما آمنوا ايمانا دينيا ، مغلقا دون العقل والمحاججـة . وبذلك اقترب الفكر الصهيوني من عرقية فاشية سبقت تاريخيا ظهور النازية ، وتفوقت عليها في جيل الصابرا الذي جاء بعد جيل الرواد .

والنقطة الثانية هي العداء المحكم لكل ما هو ديني في تاريخ اليهود ، سواء في التوراة او التلمود او الكتابات اليهودية الاخرى . والحقيقة ان العـداء الشديد كان متبادلا بين الصهيونيين والتراثيين الدينيين . فالحاخامون ، الذين حافظوا على التراث اليهودي ، اعتبروا الصهيونية نهاية لليهودية ، وقاوموها بكل ما يملكون من امكانات . اما الصهيونيون فاعتبروا الانبياء والحكمـاء في بني اسرائيل حفـاري قبور لليهوديـة « الحقيقية » ، وراحوا يمجدون الملوك الذين « عملوا شرا في عين الرب » . ونظروا الى الرب نفسـه كإله للبراكين ، يمشي امام الجنود في الحرب ويقاتل معهم . وراوا في يهودي الشتات مايستدعي اشمئزازهم واحتقارهم لانفسـهم ، واصروا على اعتبار انفسهم « عبريين » ، مسترجعين ذكرى القوة الغازية لارض كنعان التي اسست مملكة بحد السـيف ، ووضعت ، في تصورهم ، البذور الاولى للقومية اليهودية . وواضح ان هذا الموقف متأثر بفكر نيتشـه اساسا ، وفاغنر الى حد ما .

النقطة الثالثة جديرة باهتمام خاص من المثقفين العرب . وهي ان الصهيونية قديمة قدم اليهودية . ان بعضنا يؤمن بها الى حد ، ويرى فيها تعبيرا تاريخيا عن الشر المتأصل في اليهود . ومثل هذا الموقف ليس بعيدا عن اللاسامية ، كما انه يغفل حقائق التاريخ التي تثبت أن الصهيونية كفكر وحركة امتداد للفكر الاوروبي الاستعماري . والفكر الصهيوني يرى انه منذ سقوط اورشليم عام ٧٠ (وكانت في الحقيقة محتلة من قبل الرومان منذ عهد بعيد) ، بدأت الصهيونية ، واستمرت على شكل ايمان لا يتزعزع بالعودة الى كنعان وبناء المعبد من جديد . وليس اختتام الصلاة في عيد الفصح اليهودي بعبارة (العام القادم في اورشليم) الا تعبيرا عن صهيونية تاريخية لم تستطع القوى اللاسامية ان تمحوها . ان العنصر الاسطوري والتلفيقي واضح هنا . وان القفز فوق حقائق التاريخ لا يضلل احدا الا الذين يقومون به . فقد انتشر اليهود في ارجاء الامبراطورية الرومانية ، وبعد وقت قصير وجدوا وضعهم الاقتصادي فيها مربحا اكثر بكثير مما كان عليه في فلسطين . لذلك آثروا الشتات على العودة . والحقيقة انه لم تكن ثمة شيء يعيق عودتهم لو ارادوها ، فهم لم يكونوا واحدا من الهموم الكبيرة للامبراطورية الرومانية، ولا ذاكرة قوية في تاريخها . لكن وضعهم الاقتصادي الممتاز جعلهم يؤثرون اوطانا جديدة ويستقرون فيها . وقد ذكرنا الشيء نفسه عن وضعهم الاقتصادي المماثل في عصر الاقطاع الاوروبي . وبهمنا ان نذكر وضعا ثالثا فاق كل توقعاتهم في ظل الامبراطورية العربية ، وخاصة في الاندلس حيث كانت لهم حرية ثقافية واجتماعية كاملة جعلت فكرة العودة هذه ضربا من الجنون .

لكن الصهيونيين رفضوا هذه الوقائع كلها ، واعتمدوا عبارة (العام القادم في اورشليم) ، المرتبطة اساسا بتصور ديني عن القيامة ونهاية العالم ، كدليل على توق قومي اصيل . كانوا محتاجين الى اسطورة اصول فصنعوها . ولم يحاولوا قط ان يجيبوا عن الاسئلة التالية التي وضعها اليهودي الماركسي ابرام ليون : لماذا ، خلال الفي عام بعد سقوط

اورشليم ، لم يحاول اليهود العودة الى تلك البلاد ، ما دامت الصهيونية قديمة كاليهودية ؟ لماذا كان ضروريا الانتظار حتى نهاية القرن التاسع عشر كي يظهر هرتزل ويقنعهم بضرورة العودة ؟ لماذا ليس قبل ذلك او بعده ؟ لماذا عومل امثال هرتزل من قبل كمسيحين زائفين وحرقوا ؟

اما الاسطورة الثانية ، اسطورة الرسالة ، فقد تقدمت من اليهود بصورة طوباوية ليهودي المستقبل . انه اليهودي اللايهودي ، الذي سيعود الى فطرة الانسان متخلصا من تشويه الشتات ؛ اليهودي القوي ، المحارب ، الذي يعيش في مجتمع الحرية والعدل والكرامة والامن ، ويتمتع بصحة نفسية افضل حتى مما لدى الاممين ، ويجرد اعداءه اللاساميين من اي مسوغ لكراهيته واحتقاره .

لقد استهدفت اسطورة الرسالة اساسا اعلان الحرب على عدوين اعتبرتهما نوعين من المطلق : الشتات واللاسامية . لقد كان الحس اليهودي بالشتات شبه مفقود حتى اواسط القرن التاسع عشر . وفي هذا القرن بالذات ايضا اتخذ التنافر الديني بين مسيحي ويهودي هوية سياسية ، بسبب انقلاب البنية الاقتصادية الاوروبية . لكن الفكر الصهيوني اعتبر الشتات ظاهرة سياسية بدات منذ عهد الرومان ، واللاسامية موقفا ازليا من الاممين ازاء اليهود ، واعلنت ان لديها الحل الابدي لمشكلة ابدية .

وهكذا تقدمت اسطورة الرسالة من اليهود بدين جديد هو مزيج من عبادة الارض وعبادة العمل . فأرض اسرائيل هي البيئة الوحيدة في العالم التي يمكن لليهودي فيها ان يكتسب صحة نفسية وانسانية ، خسرها مذ خسر الارض . كذلك فان هذه الارض نفسها فقدت صحتها وانتاجيتها مذ تركها اليهودي ، وتحولت الى صحارى ومستنقعات على ايدي اناس لم يخلقوا لها ولم تخلق لهم . ان صورة الصهيوني الذي يجفف المستنقعات ويخصب الصحارى واحدة من ابرز الصور الثقافية في اذهان المهتمين بها في الغرب . وكان الاصرار على العمل اليدوي في الارض يقارب

حد الهوس عند المهاجرين الاوائل . فالعمل اليدوي هو الذي سيعيد الصحة لكلا الارض وأصحابها التاريخيين . وهو الذي سيحقق العدل ، اذ يحول دون استغلال العرب استغلالا رأسماليا . وهو الذي سيثبت حقهم التاريخي في الارض بتحويله الى حق عملي . وكما أشرنا سابقا ، كان الصهيونيون في حاجة الى قوة تكفي للسيطرة على الارض ، لم يكونوا يملكونها لا في ميدان الصناعة ولا رأس المال ولا التجارة ، على نحو ما توفر للاستعماريين الاوروبيين . وكان لابد لهذه الحاجة العملية من غطاء عقائدي ، فاخترعوا الغطاء وصنعوا منه أسطورة .

ثلاثة اطوار :

مر هذا الفكر الصهيوني والمحاولات المبذولة لخلق ثقافة صهيونية بثلاثة أطوار . ونحن نستمد التواريخ من وقائع الهجرات الصهيونية الى فلسطين . فبين ١٨٨٢ و ١٩٠٦ كان الطابع الغالب للهجرة الصهيونية استعماريا بالمعنى التاريخي المتداول . ان أثرياء اليهود من امثال روتشيلد ، رأوا من الحكمة مطالبة عليان فئات الطبقة المتوسطة من اليهود بإرسالهم خارج أوروبا . لذلك دفعوا بسخاء لأجل اقامة مستعمرات صهيونية في فلسطين يهاجر اليها نافدو الصبر من افراد هذه الطبقة ، فيتوقفون عن مهاجمة الرأسمالية ، وخاصة اليهودية منها . ان مستعمرة ريشون لوزيون أشهر من ان تعرف . وفي جميع هذه المستعمرات ، كان الصهيونيون يمارسون نشاطاتهم الفكرية كأسياد أوروبيين ، بينما يقوم بالعمل المؤجرون العرب .

هذا الوضع اثار سخطا شديدا لدى أفراد الهجرة الثانية ، الذين جاؤوا بعد فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ . لقد رأوه وضعا لا صهيونيا، رأسماليا وبورجوازيا عفنا، عاجزا عن خلق ثقافة صهيونية. ومنذ هذا التاريخ حتى انفجار الثورة الشعبية الفلاحية في فلسطين ضد الانكليز والصهيونيين عام ١٩٣٦ ، تنتقل الحركة الصهيونية الى الطور الثاني ، الذي هو بحق محاولتها الجدية العملية لخلق ثقافة صهيونية ،

وضع نظرياتها موضع التطبيق . وسرعان ما بدأت حركة نشطة لاقامة تعاونيات زراعية شيوعية ، يعمل سكانها بأيديهم ، وينتجون حاجاتهم كلها دون أن يملكوا شيئاً كأفراد ، وبخاصة المال . لقد ارادوا ان يخلقوا اليهود الجديد ، ويحرروه من لا انتاجيته وعبوديته للامميين ، وان « المجتمع الخيّر العادل والكامل اخلاقيا » . وقد اختاروا عزلة مطلقة عن العالم الخارجي كي ينصرفوا انصرافا كليا الى تكوين شخصيتهم الجديدة .

وكان أبرز انجاز ثقافي حققوه هو احياء اللغة العبرية وجعلها لغة محكية ، وتطويعها ما امكن لمتطلبات العصر . وكان بن يهودا ، الذي حل في فلسطين عام ١٨٨٢ اول من بدأ هذا الاحياء برفضه التكلم مع زوجه وأمه ووليده الا بالعبرية . وقد تابع صهيونيو الهجرة الثانية محاولته بدأب كامل ، الى ان تمكنوا من خلق جمهرة لا بأس بها من المتكلمين بالعبرية ، واوصلوا العبرية الى ان تكون لغة الدولة الرسمية عام ١٩٤٨ ، وتقف جنبا الى جنب مع الانكليزية والروسية .

كذلك حققت محاولة الاستقلال الاقتصادي ضمن التعاونيات الزراعية نمطا جديداً للحياة ، وخلقت علاقات جديدة بين سكان هذه التعاونيات ومن البديهي أن يكون الهم الوحيد لديهم تكوين نوع من الاحترام الذاتي ، والشعور بالجدارة ، نابعين من تحول هؤلاء السكان الى عمال منتجين لا يعتمدون على احد في كسب عيشهم وتأمين استمرارهم . اما مسألة علاقتهم بالقوى الكبرى وبسكان الارض الاصليين فقد ابعدت عن اذهانهم . وتعاموا بتتبع أهدافهم عن النظر بجدية الى تناقضات صميمية في مشروع وجودهم وفي علاقتهم بالعالم ، رغم ان هذه التناقضات كانت ماثلة امامهم وتذكرهم بنفسها يوميا عبر السلطات التركية التي كانت تعتقل بعضهم ، وعبر الاغارات العربية المخففة على مستوطناتهم . فالى جانب المعول ، كانت البندقية الجيدة جاهزة باستمرار لاطلاق النار .

اننا في هذه الفترة نلتقي بكلمات عديدة دخلت في كثير من لغات العالم . ثمة بالتحديد الكيبوتز ، والحالوتزيم ، والصابرا . ولعلنا بشيء

من التعميم نستطيع القول بأن هذه الكلمات الثلاث تشير الى كل ما استطاعت الحركة الصهيونية أن تنجزه على الصعيد الثقافي . فالكيبوتز بيئة مختلفة . انه اول تجربة زراعية شيوعية ، واول محاولة لازالة حس الملكية واحلال المشاعية والعلاقات الحرة محل قوانين المجتمع البروجوازي . ولأن سكان الكيبوتز لم يكونوا يرون سوى انفسهم ، فقد انصرفوا الى خلق حياتهم الجديدة بتكريس كامل . هؤلاء السكان هم الحالوتزيم ، أو الرواد ، ابناء الطبقة المتوسطة في اوروبا ، الذين صمموا على خلع انفسهم من ثقافتهم الاوربية واليهودية وتطبيق الماركسية على صعيد زراعي . كانوا يستيقظون مع شروق الشمس ، ويقضون سحابة نهارهم في العمل على الارض . وفي المساء يجتمعون في ندوة بنوها بانفسهم ليتناقشوا في الماركسية ، والراسمالية ، والدولة اليهودية ، والعرب الذين سيندمجون فيهم ، ومختلف الوضوعات الدولية الاخرى . وفي ساعة مبكرة يخلدون الى النوم في مهاجع جماعية بنوها أيضا بأنفسهم ، فمن شاء نام للتو ، ومن شاء مارس الجنس دونما رقابة . وكانت المستوطنة حصنا زراعيا ، قادرا على الدفاع عن نفسه ، له حرسه الليلي ، ومستودع أسلحته وذخيرته . حتى اذا ما هاجم العرب بوارديهم الصدئة كانوا خاسرين على الدوام .

هؤلاء حاولوا ايضا خلق جيل نقي تماما من اية مؤثرات برجوازية مهما كانت ، جيل ينهض وحده كالصبار في الارض الصحراوية . هذا الجيل هو ما يسمى بالصابرا ، جيل الابناء الذين ولدوا في فلسطين ، التعبير العملي الحي عن اليهودي الجديد المعافى ، اللايهودي ، المستقر في وطن العدل والخير والسلام والحرية ، الذي يرقص (الهورا)، ويتمتع بخصائص تميزه عن يهودي الشتات وبقية شعوب العالم .

يجب الا تخدعنا اهمية الكيبوتز وسكانه . فعلى الصعيد الانساني ، كان النتاج معاكسا تماما للصورة الدعائية التي مهر الاسرائيليون في تقديمها للعالم . ان الجيل اليهودي الجديد ، او الصابرا ، اكثر مرضا من انداده في بلدان اوروبا ، وبالتأكيد ابعد ما يكون عن اية انسانية

منشودة . فهذه الطرزانات العبرية ، كما يسميهم آرثر كوستلر ، بدائية الى حد الهمجية ، فاقدة لأيما قدرة على الحب والتعاطف والتواصل الانساني ، مؤمنة بالقوة والعنف ، كارهة لبني البشر قاطبة . والذي يقرأ عن الصابرا في روايات يائيل دايان وغيرها من كتاب اسرائيل يجد نفسه أمام حالات نفسية مرضية ، أين منها التبشيرات الاسطورية بالانسان الجديد التي أطلقها الفكر الصهيوني .

لقد كان جيل الصابرا هو المحك والمعيار لنجاح الصهيونية انسانيا . ومما لا جدال فيه ان الفشل قد توج محاولة الصهيونيين لخلق انماط جديدة لحياة مختلفة تؤسس لثقافة صحية ومعافاة . كذلك فشلت محاولة جعل التعاونيات الزراعية طابعا قوميا لاسرائيل . فسكان الكيبوتزات لم يتجاوزوا في افضل الحالات ثمانية بالمئة من البنية الاقتصادية والسكانية لاسرائيل . وفي معظم الحالات ، كانت نسبتهم لا تتجاوز اربعة بالمئة . بمعنى آخر ، ان كثيرا من الدعاية قد دخل في تصورنا لهم ، وان الحقيقة المتعلقة بما نسبيه تجاوزا ثقافة صهيونية ، كانت في مكان آخر ، في الاعداد الغفيرة قياسا من ساكني المدن الذين حافظوا على الطابع الاستعماري التقليدي لمهاجري الموجة الاولى ، والذين شكلوا العمود الفقري لجيش محارب بدأ بن غوريون وبن زفي ينشآنه منذ عام ١٩٠٩ . ان التفكير بانشاء هذا الجيش ، يعني ادراك القادة الصهيونيين أن محاولات خلق ثقافة جديدة ويهودي جديد لم تكن غير تبرير عقائدي واسطورة ضرورية لحركة استعمارية صرف . وينبغي التوكيد على هذه النقطة ما امكن . لان الفكر الصهيوني ما فتئ يؤكد على براءة المهاجرين ، وطوباويتهم ، وانصرافهم الى الاحلام انصرافا انساهم الواقع ، لكي يخفف من استنكار المفكرين العادلين للحركة الصهيونية . وان خير دليل على ما نقول هو المآل الذي وصلت اليه محاولات خلق هذه الثقافة وهذا اليهودي الجديد .

صحيح أن الرواد اعطوا صورة ثقافية مختلفة لاسرائيل ، لكنها ظلت صورة دعائية ، وكان الواقع شيئا آخر . فمنذ ١٩٣٦ راحت اسطورة

الرسالة تتلاشى ، وراح بروز الطبيعة الاستعمارية للحركة الصهيونية يطيح بالاحلام المزعومة ويضع حدا لكل ما هو ليس مقاتلا او عنصريا او اداة بيد الامبريالية العالمية . واذا كانت اسطورة الاصول قـد بقيت كحاجز نفسي ضد الانهيار النهائي ، فان وقوع الكيان الصهيوني في القبضة الاقتصادية الامبريالية ـ بعكس ما اراده بوروخوف ـ قد الغى كـل امكان لقيام ثقافة صهيونيـة متميزة . ان سقوط اسطورة الرسالة ، وخاصة ايجاد حل للمسألة اليهودية ، قد اوصل الاسرائيليين الى وضع معاكس تماما . فبينما حلت المسألة اليهودية في جميع انحاء العالم ، بقيت في اسرائيل . وبقي هذا المجتمع الاسبارطي نموذجا جديدا للغيتو اليهودي الاوروبي السابق ، مع فرق واحد هو انه متخم بالسلاح . لقد ابتعدت البنية الاسرائيلية باضطراد وبشكل حاسم عن كل ما هو شيوعي واشتراكي ويساري ، وتقلصت فكريـا وثقافيا الى معطيـات برجوازية صرف ، وادعاءات تاريخية عجزت عن خلق تيار ثقافي حتى بين الادباء الاسرائيليين انفسهم . ان ابرز ادباء اسرائيل اليوم هم الذين يكتبون بضغط شعور طاغ بخطأ تاريخي فادح ، بما يشبه جريمة سيقوا الى اقترافهـا من يسمون الآن اسرائيليين ، بوعي ممزق بأن الدولـة الاسرائيلية صنيعة اسرائيلية محض لا تستطيع أن تتنفس الا بمضخة امريكية . وقد بلغ هذا التحول ذروته باستلام اقصى اليمين الاسرائيلي للسلطة ، ممثلا بمناحيم بيغن .

ان مناحيم بيغن رمز سياسي ، ورمز ثقافي ايضا . فهـو ، وسلفه جابوتنسكي ، والحركات الارهابية التي اسساها ، كانوا الصوت الصادق الوحيد في الحركة الصهيونية . هؤلاء لم يتستروا بالايديولوجيا وبالاساطير على غزوهم لفلسطين . لقد اعلنوا منذ البداية انهم سيأخذونها بالقوة . ولم يكونوا في هذا بعيدين عن بن غوريون وحزبه الاشتراكي . فبن غوريون ، يوم اسس الجيش الصهيوني ، جعل شعاره العبارة التالية : « بالنـار والدم سقطت يهوذا ، بالنار والدم ستنهض يهوذا ثانيـة . » غير ان بن غوريون كان اذكى ، فعرف كيف يزود الحركة الصهيونية بالغطاء الفكري المناسب .

* * *

وسائل الإعلام الغربيّة والإنسلاب الثقافي

لماذا تؤثر؟
وما أشكال التأثير المتوقعة؟

د. صالح أبو أصبع

وسائل الاعلام الغربية والانسلاب الثقافي

في البدء قبل ان نخوض في بحثنا المقترح عنوانه « وسائل الاعلام الغربي والاستلاب الثقافي » فانني احب ان اشير الى بعض الامور الفنية والمنهجية .

أولا — انني افضل كلمة الانسلاب بدلا من الاستلاب ، ذلك لان الاولى تشخص حالة المغزو المنسلب ، بينما الثانية تشخص حالة الغازي المستلب .. وطبيعي اننا معنيون بحالتنا نحن المغزوين .

ثانيا ــ ان دراسة تأثير وسائل الاعلام بشكل عام على المواطن العربي لم تلق عناية كافية ــ هذا اذا وجدت ــ من علماء الاجتماع والاعلام في الوطن العربي ..ومن ثم فان الحديث عن الامبريالية الثقافية يظل في أحسن الاحوال شيئا نشمه ، ولكننا لا نستطيع ان نمسك به وذلك لنقصان الابحاث ــ بل وانعدامها ــ التي تدرس تأثير البرامج الاعلامية الغربية ــ كأشرطة الاذاعة المرئية والخيالة ــ على الجماهير العربية ، وكذلك لنقص الدراسات التي تبحث مدى تأثير قصص الاطفال والمجلات المترجمة امثال السوبرمان والوطواط على الطفل وتكوين مثله وقيمه وسلوكه .

وأيضا لنقص الدراسات التي تحلل مضمون صحافتنا العربية ، وتكشف مدى ماتضمنته من مادة اصيلة او مقتبسة ، ومدى تأثيرها على القارىء ، ولهذا فان البحث الميداني مفتقد ، وهو الاساس الذي يمكن ان يعتمد عليه في دراسة تأثير وسائل الاعلام على الانسلاب الثقافي .

ــ ثالثا للسبب السالف ، فان هذه الدراسة تقدم اطارا نظريا لدراسة تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي ، وخلق حالة انسلاب ثقافي لديه .

رابعا ــ لا يمكننا ان نعزو سبب الانسلاب الى غزو الثقافة الغربية لثقافتنا العربية وحدها ، ذلك يمكن أن يكون تعميما ضارا ، يؤدي الى تجاهل كل الاسباب الحقيقية التي تؤدي بمواطن ما الى حالة الانسلاب.

ان الثقافة الغربية بلاشك عامل هام من العوامل التي تؤدي الى الانسلاب ، ولكن يجب ان نشير الى ان المناخ السياسي والاجتماعي الذي يعيش فيه المواطن العربي يخلق جوا يهيء لحالة الانسلاب ويدفع اليها . ان كبت الحريات والقمع الذي يلقاه المواطن العربي نفسيا وجسديا ، وان الاحباطات التي يواجهها المواطن على مستوى القضايا القومية . هذه العوامل كلها ، تؤدي الى خلق فرص تهيء لقبول حالة الانسلاب وتعزيزها.

هذه اشارة ضرورية ، لنعرف ان نجاح الغزو الثقافي الغربي يتعزز من خلال عوامل داخلية ، سياسية واجتماعية ونفسية . وهنا لن نخوض في هذا الجانب ، لطبيعة البحث سوف نقتصر على دور وسائل الاعلام الغربية في الانسلاب الثقافي .

الغزو الثقافي ظاهرة عالمية :

الامبريالية الثقافية ظاهرة عالمية في عصرنا الحاضر ، وكما نعاني منها تعاني منها دول العالم النامية كافة . ودول العالم المتقدمة سواء بسواء وان اختلفت الدرجة .

وتختلف خطورة الامبريالية الثقافية من بلد الى آخر . وبمقدار ما تقترب ثقافة الغازي من الغزو تضيق حدود الاهمية ، وكذلك بمقدار ما تواجه الثقافة الغازية من مقاومة من الثقافة المغزوة ، فان الخطورة تتضاءل . ولكن المسألة بالنسبة للوطن العربي شيء آخر فالثقافة العربية لا تواجه الثقافة الغازية في اطار موحد ، اذ ان الكيانات الاقليمية ينعدم فيما بينها التنسيق لمواجهة الغزو الثقافي الامبريالي الغربي ، ومن ثم فالقضية بالنسبة للانسان العربي تصبح مهددة لثقافته .

اننا في هذا العصر نواجه ما اسماه توماس ماك فيل Thomas Mophail (١٩٨٠ ص ــ ٢٠) بالامبريالية الاليكترونية والتي يعرفها بقوله :

« بأنها علاقة التبعية التي تأسست باستيراد معدات الاتصال والبرامج الاجنبية ومعها المهندسين والفنيين ، وما يتعلق بها من بروتوكلات ومعلومات ، وذلك بخلق الاسس لمجموعة من المعايير والقيم الاجنبية والتوقعات والتي يمكن ان تغير الثقافة المحلية وعمليات التنشئة الاجتماعية الى درجات مختلفة . فالاستيراد يتنوع من الكتب الهزلية الى الاقمار الصناعية ، ومن الكومبيوتر الى الليزر وبجانبها المنتجات الاكثر تقليدية مثل البرامج الاذاعية والمسرح واشرطة الخيالة وخدمات البرق وعروض الاذاعة المرئية » .

الانسلاب ما هو ؟

ان ما يعنينا هنا هو دراسة تأثير الامبريالية الاليكترونية على مسألة الانسلاب الثقافي في الوطن العربي .

ان الانسلاب حالة نفسية تؤدي بالفرد الى الانسلاخ عن ثقافته وتبني اخرى . كتب شاتز ورفيقه ونتر : Schatz and Winter ، (١٩٦٦ ، ص ٣١٩) « بأن امكانية الانسلاب قائمة حيثما كان الانسان ــ سلبا او ايجابا ــ يرتبط بالعالم الموضوعي المحيط به من اجل العثور على ذاتيته وتوافقها مع نفسه على الرغم من اختلافها عن هذا العالم ، ومن ثم فان الانسلاب يصبح مرادفا للتنافر مع ثقافة المجتمع » .

ان الانسلاب بأبسط تعريفاته حسبما يراه جاك الول Jacques Ellul (١٩٧٣ : ص ــ ١٦٩) هو « ان تصبح منسلبا هو ان تصبح شخصا آخر غريبا أكثر من كونك نفسك ، وكذلك يمكن ان تعني أن تصبح خاصا بشخص آخر ، وبمعنى آخر فان هذا يعني انسلاخ الشخص عن نفسه ليصبح خاضعا ، وحتى متمثلا بشخص آخر » .

ويرى جاك الول بأن تحقيق حالة الانسلاب هو هدف من اهداف الدعاوة التي تلتزم بتوظيف وزيادة وتدعيم ميل الشخص بفقدان ذاته في امر اكبر منه كنزاع بطمس شخصيته ، ويحرر فيه الانا من كل شك وصراع ومعاناة من خلال الذوبان مع الآخرين . ومن ثم فان هذه الدعاوة تخلق حاجات مصطنعة في انفسنا كزيادة في الرغبات والهوى والحاجات غير الضرورية .

وهذه الحاجات المصطنعة تفترض اهمية معقولة بسبب طبيعتها العالمية ، وبسبب وسائل الاعلام التي تم بها التحريض على تلك الحاجات وتصبح مطلوبة وضرورية للفرد اكثر من احتياجاته الخاصة ، ومن ثم فانها تقوده الى التضحية برغباته الخاصة . وما يجري في الاقتصاد يجري كذلك في السياسة والثقافة ، فان نمو الحاجات تدريجيا يقضي

على حاجات الفرد وميوله الشخصية . وهكذا فان ما يجري ، في الحقيقة ، هو تدمير الفرد لنفسه من الداخل ، وهذا التدمير مصمم بحيث يسلمه الى قوى مجردة ذات توجه ميكانيكي . وعلى هذا المستوى ايضا ، فانه بمقدار ما يقتنع الفرد بان ما يفكر به او يشعر او يفعل انما هو من ذاته يعظم الانسلاب .

ماذا تريد الامبريالية الثقافية ؟

ان تتبعنا لما يجري اليوم في العالم الثالث اليوم وفي الوطن العربي ـ على وجه التحديد ـ سوف يجعلنا ندرك ان الاستعمار القديم والاستعمار الجديد يستهدفان دوما صنع مناخ ملائم لانسلاب افراد المجتمع المغزو . لان مثل هذه الحالة الفكرية سوف توحد بين تطلعات المنسلب والمستلب وبالتالي فان فرصة تحقيق مصالح المستعمر يمكن ان تتحقق وتستمر باستمرار الذهنية المنسلبة التي تضمن سيطرة المستعمر .

ففي كتاب الشؤون الثقافية والعلاقات الخارجية كتب روبرت بلم Robert Blum (١٩٦٣ ص ـ ٢٠) يقول : « انه التزام منا ان نفعل ما وسعنا الجهد لنمارس نفوذنا الثقافي ـ اي الامريكي ـ بطريقة تساعد الآخرين وبحيث لا يكون حجم المساعدة يسمح للمبادىء الغربية بان لا تمد الآخرين بشيء سوى التطلع الى تغيير غير مسيطر عليه . هذه مهمة ثقافية اساسية تستلزم تصورا واضحا لقيمنا وللطريقة التي فيها نرغب من الآخرين أن يشاركوننا بها هذه القيم » .

ان هذا المفهوم الامبريالي يرينا بوضوح كيف يتصور الغربيون مدى نفوذهم الثقافي لا لشيء سوى السيطرة ونشر قيمهم الثقافية ، واذا كان الاستعمار القديم قد دخل بادواته العسكرية لاحتلال الارض ، فان ادواته الثقافية جاءت لتغزو العقول ، وكانت احد الاهداف الاساسية هي نشر لغة المستعمر في البلد المستعمر . وللاسف ان الكنيسة في العالم الغربي تعزز الامبريالية وتدعمها ، كان ذلك واضحا في المرحلة الاستعمارية

وخاصة في افريقيا حيث رافقت الكنيسة القوى الاستعمارية كذراعها الثقافي في حملات الغزو ... واليوم لا تختلف الرؤيا كثيرا ففي مقال نشر في مجلة دينية عنوانها The Plain Truth يكتب ريموند ماك نير Raymond Mcnair في شباط ١٩٨٢ مقالا بعنوان اللغــة العالميــة يقول فيه :

« يبدو غريبا للوهلة الاولى ان ارادة الله رفعت اللغة الانجليزيــة كاداته الرئيسـية التي بها سينشر ويعلن الاخبار الطيبة لملكته القادمة لمعظم العالم في نهاية العصر ... ليست الانجليزية فحسب هي لغة الكتابة والاذاعة والكلام والتفاهم في كل القارات ، ولكنها اصبحت اللغة المشتركة اللغة العالمية للدبلوماسية والتعليم والعلم والتجارة والرياضة .

ولهذا فان الانسـان يستطيع ان يرى بوضوح لماذا اختار الله اللغــة الانجليزية كاللغة رقم واحد للوصول الى اكبر عدد من سكان الارض مع انذاره النهائي للبشرية وتبشيره بالاخبار الطيبة لعالم الغد » .

ان المرء لا ينكر ما للانجليزية من انتشار ، ولكن ما ينكره هو الروح التي وراء مثل هذا التصريح التي تطرح لغة ما بديلا للغات الشعوب ولكن هذا التصور له ما يبرره ، ان التبعية التي يعاني منهــا العالم الثالث بشكل عام هي التي تجعل هــذا التصور ممكنا ، فكما يلاحظ انتوني سميث Antony Smith (١٩٨٠ ــ ص ٢٧) أنه حتى الآن فان دول العالم الثالث التي احرزت استقلالها السياسي في هذا القرن ، ما زالت تعاني من تبعية اقتصادية وتبعية ثقافية .

ومن ثم فاننا نرى ان مثل هذا الاسـتقلال السـياسي يصبح أمامــه علامة استفهام كبيرة في مثل ظروف هذه التبعية .

وفي ايامنا هذه ، فان دول العالم الثالث تشعر بفداحة هذه التبعية وما فتئت تناضل من اجل الانفكاك منها ولعل النضال في المجال الدولي من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد انما هو خطوة على هذا السبيل

والذي نظريا . . تعزز من خلال الوثيقة رقم(١٩٧٢ — ٣٢٠٢ — ٣٢٠١)التي اصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بناء على توصيات دول العالم الثالث من اجل خلق نظام اقتصادي عالمي جديد . ولعل الحوارات بين الشمال والجنوب هي خطوة اخرى على هذا الدرب . ومن اجل الانفكاك من اسار التبعية الثقافية فان النضال في اطار اليونسكو من اجل خلق نظام عالمي جديد لتدفق المعلومات والاتصال ، انما هو شعور بخطورة ماتعانيه دول العالم الثالث من هيمنة تهدد الثقافة الوطنية والشخصية وشخصية الافراد وشخصية المجتمع على حد سواء .

ان مسالة الغزو الثقافي في حد ذاتها تنبع من عدم المساواة التي تؤدي الى الظلم ، ان الدول الغربية التي امتلكت التقنية من صناعة الالات الى صناعة الاشرطة وقدرتها على النفاذ الى الاسواق العربية تهدد الثقافة العربية . حيث نجد العجز والتخلف الذي لايستطيع مجاراة تلك التقنيات الغربية وامكاناتها المادية والفنية . ومن هنا تكمن عدم المساواة التيتؤدي الى ظلم المجتمعات بتهديد ثقافتها الوطنية وخلق حالات من الانسلاب لدى مواطنيها .

وسائل الاعلام المعاصرة والهيمنة الغربية

ان وسائل الهيمنة الغربية الثقافية تكمن في التحكم فيما يلي :

١ — وكالات الانباء العالمية بما تمتلك من قدرات على نقل اخبار العالم وتشكيل التصورات عن الاشخاص والشعوب والثقافات .

٢ — التحكم بالاتصالات الدولية من خلال الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .

٣ — التحكم بالسوق التجاري — صناعة وتسويقا — الصناعة تشكيل العقل البشري من خلال الافلام — الكتب الاسطوانات — المجلات .. الخ .

٤ — التحكم بالتقنية انتاجا وتسويقا .

٥ — الاذاعات الموجهة .

اولا : وكالات الانباء العالمية

يعرف ال هستر (١٩٧٤ : ص ٢٠٨ — ٢٠٩) وكالة الانباء العالمية بانها تلك التي تغطي بخدماتها الكرة الارضيـــة وبمقدورها ان تغطي الاحداث في جميع الاماكن الهامة .

وينطبق هذا التعريف على خمس وكالات عالمية هي : وكالة الانباء الفرنسية ، الاسوشيتدبرس ، رويتر ، تاس .. اليونايتدبرس . ان دور وكالات الانباء العالمية اساسي في تشكيل اراء الافراد وفي تكوين الرأي العام حيث معظم ما ينشر من صور عن العالم الخارجي في وسائل الاعلام العربية انما يأتي من خلال اقنية هذه الوكالات ، وقـد تكون هذه الصور ذات اهمية كبيرة ولكنها تغطى تغطية ضئيلة او العكس .

وعلى الرغم من وجود وكالات انباء عربية محلية ، فان مهمتها في الاغلب مهمة نقل ما يصلها من الوكالات العالمية اذ تقوم الوكالات المحلية باختيار الانباء وتوزيعها على وسائل الاعلام المحلية .

وفي احيان كثيرة ، فان هذه المهمة — التي هي نوع من الضبـــط والسيطرة على الخبر الخارجي — تسهم اسهاما فعالا في خلق جو يساعد على الانسلاب . اذ ان القارىء او المستمع العربي لم يعد يثق في وسائل اعلامه التي كثيرا ما تلجأ الى التضليل . وبالتالي يهرب القارىء والمستمع العربي الى مصادر اجنبية يعطيها ثقته ، وهي بدورها تقدم رؤى غريبة تسهم في بناء تصورات لـدى زبائنها ، تنسجم مع ثقافتها وتعبر عنها .

وانه لمن السخرية ان يكون للوكالات العالمية الدور الاكبـر في نقل اخبار اقطار الوطن العربي واعادة بثها الى هذه الاقطار بينما تعجـز الوكالات العربية عن اداء ذلك . ان خطورة ذلك تكمن في ان ما تنقلـه وكالات الانباء يتلون بمنظار ناقلها ويتلون بمصالح البلد التي يمثلها . وهكذا تعود الينا بضائعنا ليست مرتدية سروالا وقبعة . ولكنها تأتي

مقلقة بلغة الخواجا وتفسيره للامور بما يتفق مع مصالحه . واذا كان الجمهور العربي لا يثق باعلامه فانه بحثا عن « الحقيقة » سيتطلع الى المصادر الاجنبية التي تقدم له الحقيقة من خلال مذاقها ومنظارها .

ثانيا ــ التحكم بالاتصالات الدولية عن طريق الاقمار الصناعية والاتصالات اللاسلكية .

تتحكم الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا بالاتصالات الدولية التقليدية ــ اللاسلكية ــ وبالاتصالات الحديثة بما الها من مقدرة على تحطيم العزلة والوصول الى المناطق النائية التي لم تكن تصلها وسائل الاتصال القديمة ... وعلى الرغم من الامال الواعدة في المقدرة على استخدام الاقمار الصناعية في مجالات التعليم والتنمية ، الا انها تمتلك بعض المخاطر التي تهدد الدول النامية والتي لا تستطيع ان تستثمر جزءا من مواردها في وسائل الاتصال الحديثة مما يؤدي الى عدم مقدرتها على تمويل وانتاج برامجها ، وهذا ينطبق على البلدان العربية غير النفطية ، ومن ثم فان من يمتلك مقدرة الارسال من خلال الاقمار الصناعية يمتلك معها ميزة بث برامجه الى تلك البلدان ومن ثم فان تأثير هذا البث على الثقافة المحلية سيكون كبيرا .

ثالثا ــ الاذاعات الموجهة

لم يعد غريبا ان نجد المواطن العربي حريصا على الاستماع الى نشرة الاخبار من اذاعة لندن البريطانية ، او مونت كارلو الفرنسية ، او صوت امريكا ، او صوت المانيا . ان كل هذه الاذاعات التي تقدم برامج بث بالعربية لساعات طويلة كل يوم ، تستهدف قبل كل شيء اجتذاب المستمع العربي وتشكيل تفكيره .

ان هذه الاذاعات تكتسب جمهورا يتزايد يوما بعد يوم، مع اضمحلال الثقة بوسائل اعلامه المحلية ، هذا من جانب ، ومن جانب اخر فان

هذه الاذاعات تعد بالنسبة له اطلالة على العالم المتقدم وهي بهذا تتيح له افاقا من المعرفة قد لا تقدمها له اذاعاته المحلية . وهي الى جانب ذلك تعمل على غرس ثقافاتها، وتخلق لدى المستمع انماطا من الحاجات التي هي ليست حاجته ، وتصنع له ابطالا ليسوا هم بأبطاله ويعيش في جو اقرب الى الاغتراب ..ويصبح على حافة الانسلاب اذا لم يكن قد وقع فيه .

رابعا ـ التحكم بالسوق التجاري لصناعة الاشرطة وبرامج الاذاعة المرئية والاسطوانات والكتب .. الخ .

تعتبر الولايات المتحدة المهيمنة الاولى على صناعة الاشرطة في العالم وينبع مركز السيطرة الامريكية على صناعة الصور المتحركة في السوق العالمية من عدة اسباب :

ا ـ ضخامة الاستثمارات في قطاع الاشرطة مع التقنية المتقدمة التي رافقت الانتاج السينمائي .

ب ـ امتداد الشركات الامريكية الى اسواق اخرى ، كفتح فروع لها في بريطانيا وفرنسا وايطاليا .

جـ ـ الاشرطة الامريكية هي الاكثر توزيعا في العالم .

د ـ شركات الاشرطة تسيطر ايضا على شبكة من شركات التوزيع ذات الامتداد والفاعلية في العالم كله . حيث يجد المنتجون من البلدان الاخرى انفسهم مضطرين الى توزيع اشرطتهم من خلال الشركات الامريكية .

هـ ـ الانتاج الكمي والنوعي للاشرطة يجعل الاسواق الاخرى غير قادرة على منافسة السوق الامريكي .

وكما يؤكد نوردنسترنغ ورفيقه فارس (١٩٧٤ : ص ٢٩) بان البرامج المستوردة في البلدان العربيـة ومعظمها من الولايات المتحدة وبريطانيا ومن الاقطار الغربية الاخرى وعلى سبيل المثال ففي لبنان ٥٠٪ من البرامج المستوردة تأتي من الولايات المتحدة وفي مصر ٧٠٪ من البرامج المستوردة استوردت من الولايات المتحدة، واما اليمن الديمقراطي فان ٢٥٪ من برامجه المستوردة امريكي و١٥٪ بريطاني و١٠٪ سوفييتي.

واذا اضفنا الى ذلك ما يعرض في دور العرض السينمائية واشرطة الفيديو ، فاننا ندرك ان السوق العربي يعاني من سيطرة سوق الاشرطة الامريكيـة .

وعلاوة على هذا . ففي مجال الكتب فان قصص الاطفال المترجمة أمثال قصص ميكي ماوس ، الوطواط ، سوبرمان ، وقصص والت ديزني تملأ الاسواق .

ونظرة فاحصة الى المجلات الاسبوعية العربية ، ترينا ان القارىء مظلوم لا يعرف حقيقة ما هو مترجم من المقالات وما هو اصيل . فنسبة كبيرة من موضوعات المجلات العربية ترجمات حرفية للصحافة الاجنبية، بدون ذكر المصدر أو اسم الكاتب . وفي احيان اخرى يتـم اقتباس موضوعات وتحويرها وتذييلها بتوقيع كاتب عربي . ان مثل هذه المواد الاعلامية التي يزخر بها السوق العربي كفيلة بارباك القارىء وبخلق حالة ذهنية عربية ان لم تستلب بعد فانها في طريقها الى الانسلاب .

خامسا ــ التحكم بالتقنية صناعة وتصديرا :

تتحكم الدول الغربية ومعها اليابان الان في صناعة وتجارة تكنولوجيا الاتصالات الدولية . وهذا التحكم يأخذ لونا من الوان التسلط ، حينما تحظر هذه الدول تصدير سلعة من سلع التكنولوجيا الى الدول العربية

على الرغم من قدرتها الشرائية على ذلك . وخير مثال على ذلك الحظر الامريكي على تصدير معدات القمر الصناعي العربي بدعوى ان استخدام القمر الصناعي سوف يتيح لمنظمة التحرير الفلسطينية وليبيا فرصة استخدامه . وهذا حسب المفهوم الامريكي سوف يجعل القمر الصناعي في خدمة « الارهاب » .

من خلال اساليب الهيمنة السابقة ، فان وسائل الاعلام الغربية تنفذ الى السوق العربية ، لتمارس دورها في التأثير على الثقافة العربية. حيث تحاصر وسائل الاعلام الغربية الانسان العربي بالكلمة المسموعة والصورة المتحركة ،والكلمة المقروءة ، ان الانسان في عصرنا يجد نفسه مشدودا الى سماع الخبر والتعليق ، وقراءة الصحيفة او المجلة ، والاسترخاء مع قصة يقرأها ، او مشاهدة برنامج مرئي ومن خلال ذلك كله ، اصبح الفرد يعتمد اعتمادا كبيرا على تحصيل المعلومات من وسائل الاعلام ، سواء أكان ذلك بطريق مباشر ، او من طريق شخص اخر تلقاها من وسائل الاعلام .

تأثير وسائل الاعلام من خلال تزويدنا بالمعلومات

اعتمادنا على المعلومات التي نتلقاها من وسائل الاعلام ، يتضمن مجموعة من التأثيرات على الفرد والمجتمع . وكما يرى روبرتس (١٩٧٧ ص . ص ٣٧٩ — ٣٨٤) ان وسائل الاعلام لها القدرة الهائلة على توجيه انظارالجمهورالى ما تنشره من معلومات ، فالجمهور عادة ينظر الى هذه المعلومات على انها هامة ومن ثم فانها تؤثر على قناعاته . كذلك فان وسائل الاعلامتنشر صور محرفة ومنحازة حول الظروف المحيطة بنا ، واذا كان الجمهور غير قادر على نقد مضمونها ، فان مثل هذه المعلومات ستصبح جزءا من تصوراته وقناعاته . وايضا فان وسائل الاعلام تحجب عن النشر معلومات هامة ، ولذا فان عدم وصول المعلومات الكاملة التي توضح الحقيقة للجمهور ، يمكن ان يحرف الطريقة التي بها

ينظم الجمهور تصوراته للواقع ، وعلاوة على ذلك ، فان المعلومات التي يستقبلها المرء من وسائل الاعلام - وخاصة فيما يتعلق في الامور الجديدة على الانسان - لديها القدرة على التاثير على الشخص خالي الذهن من تلك الموضوعات .

وعلى سبيل المثال يمتلك الجهاز المرئي قدرة كبيرة في التاثير على الاطفال الذين هم في مرحلة التنشئة الاجتماعية ، ومستعدين للاستقبال والاقتناع بأي معلومة جديدة تصلهم ، وبذا يصبح الجهاز المرئي هو احد وسائل التنشئة الاجتماعية الهامة في مجتمعنا .

واخيرا فان وسائل الاعلام التي تؤثر على معرفة الانسان من خلال المعلومات تؤثر على سلوكه وعواطفه وقيمه وآرائه ، لان المعرفة تشتمل في احيان كثيرة على نماذج جديدة من السلوك والقيم والاراء .

اشرنا في البدء الى ان تأثير وسائل الاعلام الغربية على المواطن العربي يحتاج الى بحوث ميدانية ، ولكن علينا ان ندرك ان مثل هذا التأثير لا يتم فور تعرض الجمهور للرسالة الاعلامية ، وخاصة فيما يمس تغيير قيم الانسان وآرائه ومواقفه . ان فعالية التاثير ليست فورية ، ولكن يمكن ان تصبح حقيقة مع مرور الزمن . فالبرامج الاعلامية الغربية تمثل قيما مختلفة وتعبر عن ايديولوجيات مختلفة وحينما يتعرض الجمهور لها بشكل منتظم ، فان لها تأثيرا كامنا يتعزز مع تكرارها مما يشكل تهديدا للقيم وللثقافة العربية ، ومما يسهم في خلق شخصية منسلبة ثقافيا .

الاذاعة المرئية الوسيلة الاعلامية الخطيرة :

اذ اكنا معنيين بوسائل الاعلام الغربية على الانسلاب الثقافي ، فاننا نرى ان اخطر الوسائل الاعلامية الان في تهديد ثقافتنا القومية هو الجهاز المرئي . فهي الوسيلة الاعلامية الاولى المفضلة لدى الناس وخاصة ، برامجه الترفيهية ، وحيث ان نسبة كبيرة من البرامج الترفيهية تأتي

من الغرب ، وحيث ان البرامج الترفيهية لا تقل نسبتها عن ٥٠٪ من جملة البرامج في الاذاعات المرئية العربية ، فان هذا يعني ان الجمهور العربي يقضي اسبوعيا نسبة لا يستهان بها من الساعات ، لمشاهدة الاشرطة وبرامج المنوعات الاجنبية .

هذا مع الاشارة الى ان بعض البلدان العربية قد تبنت تخصيص قنوات خاصة لبث البرامج الاجنبية ــ مثل الاردن والكويت وتونس وليبيا ــ بدون دراسة لمدى تأثير البرامج الاجنبية على جمهورها العربي

واذا ادركنا ان اكثر المولعين بمشاهدة تلك البرامج الاجنبية هم من اليافعين الذين في طور التكوين الفكري ؛ لذا فان الاذاعة المرئية يجب ان تلقى عناية خاصة للاسباب التالية :

١ ــ حيثما وجد الجهاز المرئي فانه يحل عادة محل وسائل الاعلام الاخرى . على سبيل المثال ففي فترة البث المرئي ، فان اهل البيت لا يستمعون الى المذياع وحينما يكون هناك شريط مرئي فإن الطالب يفضل مشاهدته على قاعة دروسه .

٢ ــ ان الجهاز المرئي وسيلة اعلامية جماعية يشاهدها الاطفال والكبار والنساء والرجال ، فهو اداة اجتماعية ، تؤثر بمجرد تواجدها على بعض العادات مثل الزيارات العائلية وطبيعة العلاقات الاسرية .

٣ ــ واذا اضفنا دخول الفيديو الى كثير من البيوت ، وباشرطته الاجنبية ، فان هذا جعل من كل بيت ، لديه جهاز فيديو ، عبارة عن محطة بث خاصة تجعل الجهاز المرئي اهمية في تنشئة الاطفال .

ان معظم الاشرطة الاجنبية التي تعرضها محطات الاذاعات المرئية العربية تستورد من الولايات المتحدة . ونظرة الى المسلسلات وبرامج السهرة في معظم الاقطار العربية تجعلنا نجد مسلسلات امثال دالاس ، ملائكة شارلي ، بوننزا ، فيجاس ، كولومبو ، وغيرها الكثير . هذه

المسلسلات تحمل معها ثقافة وقيم المجتمع الامريكي ، وتقدم صورا لذلك المجتمع . وخطورتها ان المتفرج العربي لا يمتلك القدرة او الحس النقدي لما يشاهد . وما تقدمه هذه الاشرطة تبهره بدءا من السيارات الفارهة الى صورة الحياة الامريكية وانتهاء بشخصية الفرد ــ البطل ــ

ويرى كومستوك ورفاقه (١٩٧٨ : ص ٣٨٥) ، ان هناك ثلاث عمليات سيكولوجية ترافق الوسيلة الاعلامية بتأثيرها على جمهورها .

١ ــ تصور المشاهد الفوري لما تشاهده وتفسيره الآني لمضمون الرسالة الاعلامية .

٢ ــ عملية ذاتية تتم داخل الفرد ذاته .

٣ ــ الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في الفرد من حيث ماذا وكيف يتعلم .

ان هذه العمليات الثلاث بها ومن خلالها يمكن ان يتم او لا يتم الانسلاب الثقافي . ان تصور المرء ــ لنأخذ مثلا شخصية ستيف اوستن بطل مسلسل Six Milion Dollarmas يعتمد على عدة عوامل منها مستواه التعليمي ، وثانيا ، موقفه الفكري وبالتالي قدرته النقدية على قراءة معنى أن يكون الانسان آليا ذا قيمة تبلغ مليون او الف مليون دولار . . . ان التصور الفوري يختلف من شخص الى اخر كما اشرنا . واذا كانت الظروف المحيطة التي تسيطر وتتحكم في التنشئة الاجتماعية ، كالام والاب ــ يمكنها ان تكسب التصور الآني تفسرات اخرى ، الا اننا لا نستطيع ان نعتمد عليها كليا ، حيث ان جماهيرنا في غالبها امية ، وحتى ان نسبة كبيرة من المتعلمين هم اشبه بالاميين ، اذ انهم لا يمتلكون الحس النقدي القادر على التمييز . ومن هنا ففي العملية السيكولوجية الذاتية ، التي تتم داخل الفرد ذاته ، يكمن خطر التأثير الاعلامي الغربي في تكوين شخصية منسلبة ، تلك التي تمثل شخصيات غربية وقيم غربية .

ففي دراسة اعدها توفيق فرح (١٩٧٧ : ص ٠ ص ٩٦ ـ ٩٧) حول التنشئة السياسية الاجتماعية للاطفال الفلسطينيين جاء ما يلي :

« حاولنا ان نميز قيم الاطفال من خلال اسئلة اختبارية تشتمل السؤال : من هو بطلك ؟ فالغالبية الساحقة اشارت اجاباتهم على انه احد اعضاء المقاومة الفلسطينية مثل : الفدائي ، أبو عمار ابو علي اياد ، ليلى خالد ، واثنان ذكرا اسمي نجمي كرة قدم ، وطفل ذكر انه الرجل الذي كلف ستة ملايين دولار وكم من الاطفال الاخرين الذين ينظرون الى شخصيات كهذه باعتبارها نماذجها وابطالها وكم تخلق هذه الافلام من الصور المشوهة لدى الاطفال ؟

التأثر المتوقع للاذاعة المرئية

يتمثل تأثر الاذاعة المرئية فيما يلي :

١ ـ ان الجهاز المرئي يستهلك وقتا كبيرا من وقت الاطفال والمراهقين في حين ان هذا الوقت كان يمكن ان يستثمر في نشاطات اكثر فائدة . وخاصة ان معظم البرامج التي يشاهدها هؤلاء الاطفال والمراهقون ليست مخصصة لهم ولا تلبي حاجات التنشئة الاجتماعية الاساسية .

٢ ـ ان مايعرض يمثل في اغلب الاحيان نماذج للاجتذاب بدون القدرة على التمييز بين السيء والحسن من الشخصيات . ويؤثر الجهاز المرئي على توقعات المشاهد وسلوكه بمشاهدة شخصيات مختلفة .. وقد تؤثر بدورها على طموحات المشاهد الوظيفية .

٣ ـ التلفزيون (كأحد وسائل التنشئة الاجتماعية) يؤثر على المعتقدات والقيم وصياغتها . وان التعرض لقيم مختلفة من خلال البرامج الغربية المختلفة يؤدي الى خلق الاضطراب في الشخصية وبحثها عن البديل وذلك واحد من مظاهر الاستلاب .

٤ ـ ان عالم الجريمة الذي يصاحب كثيرا من البرامج الاجنبية يخلق ظروفا نفسية يمكن ان تعزز الميل للسلوك العدواني .

٥ ـ ان الاعلانات التجارية يمكن ان تخلق رغبة في الاستهلاك غير ضرورية لدى المواطن . وكذلك فان الاعلان التجاري عن اشياء الاطفال يمكن ان يؤدي الى ضغط غير اخلاقي على الاباء بشراء ما يرغبه الاطفال ، وهم غير قادرين على ذلك او غير راغبين به .

٦ ـ ان الجهاز المرئي في احوال كثيرة ـ يقف جنبا الى جنب مع المؤسسات التقليدية للتنشئة الاجتماعية مثل العائلة والمدرسة ، ولكن خطورته انه حر من العديد من الكوابح والموانع الاخلاقية المفروضة على هذه المؤسسات التي تتعامل مع الطفل. ومن ثم فان الاطفال يتعرضون في مشاهداتهم البرامج الغربية الى عالم الكبار في حين ان مثل هذا التعرض يؤدي الى خلط القيم لدى الاطفال .

لقد ادى الغزو الثقافي الغربي من خلال وسائل الاعلام الى النتائج التالية والتي بحاجة الى دراسات معمقة .

١ ـ التأثير على الثقافة التقليدية ويظهر هذا بوضوح بتأثيرها على الفلكلور وانحدار الفنون التقليدية واختفاء بعض اشكالها ولعل التأثير على الاغاني والموسيقى الشعبية مثال واضح للجميع .

٢ ـ ثورة التوقعات التي قال بها ليرنر حيث ان وسائل الاعلام بمفهومها للاطلال على العالم الخارجي زودت الناس بتوقعات وطموحات من الصعب اشباعها مما ادى الى زيادة الاحباط . وهذا يؤدي احيانا الى البحث عن عالم التوقعات في خارج حدود الوطن ، من خلال الكلمة او الصورة وتصبح تلك النماذج الخارجية وكانها عالمه المثالي الذي يحلم به . ومن هنا تتأتى صورة من صور الانسلاب .

٣ ـ تقديم ثقافة لاستهلاك المواطن العربي وذلك من خلال الاعلانات التي تشجع الروح الاستهلاكية على حساب الانتاجية وبذلك اسهمت الاعلانات اسهاما فعالا في خلق ذهنية استهلاكية تقع ضحية الاعلان وتتابع ما يستجد من بضائع .

٤ ـ تقدم البرامج الغربية فيما تعكس ثقافات مجتمعها مما يؤثر في تشكيل القيم العربية السائدة ويعمل على تغييرها ، وهذا بدوره يؤثر على مواقف الاشخاص ويخلق لديهم نوعا من الوعي المصطنع الذي يقودالى الانسلاب .

٥ ـ خلق صور مشوهة عن العالم الخارجي بما يخدم الغرب ، ومما يؤدي الى تحريفات في تصور المرء لواقعه . وهذا يؤدي الى تمثل ألاشخاص بالصور التي فرضت عليهم وقبولها وكانها واقعهم او نماذجهم التي يجب ان تحتذى .

٦ ـ التاثير على الروح المعنوية على مستوى جماعي وفردي .

ان التركيز في الصفحات السابقة على اهمية تاثير وسائل الاعلام الغربية على انساننا العربي وثقافته ، لا يعني قفل الابواب امام الثقافات الاخرى ، ولكننا نوجه الانظار الى خطورة ما يمكن ان تؤديه الى انسلاب ثقافي في وطننا العربي ومن ثم يكون البحث عن سبيل حماية الثقافة القومية بدون انغلاق ضرورة ملحة . ونحن اذا كنا نؤمن بشمولية الفكر الانساني ، فاننا نؤمن بخصوصية تطبيقه ، وبخصوصية الثقافة . ان النظريات والفلسفات سواء اكانت من الشرق أو الغرب ان كانت صالحة فهي تصلح في اطارها الثقافي التاريخي والاجتماعي . ومع هذا فاننا لا نريد من هذا انغلاقا يؤدي الى بحث عن سلفية تكون مجرد رد فعل عاجز للتحديث والتحدي الخارجي ، او مجرد دفاع متقوقع عن النفس. ولا نريد انسلاخا عن ثقافتنا بحيث يشكل تبعية للثقافات الاجنبية ، ان مانريده ومانحتاج اليه فكر نقدي ينبع من خلال واقعنا وتجربتنا ، فكر

متفتح قادر على الاستفادةمن تجارب الاخرين في هذا العالم الذي تمتد اطرافه ، ولكن تضيق المسافات بين ابعاده .

اننا لا نريد ان نرى الانسان العربي ضائعا غريبا في بلده ولا نريد ان نرى بين صفوفنا صورة الشخصية المنسلبة كما يصفها نائيلد نيل (١٩٦٦ . ص . ص ٢٣٦ — ٢٣٥) بقوله :

« الانسان المنسلب لا يمكن ان ينجح سواء في ان يكون نفسه او في ان يعيش في حالة تركيب خلاقة مع البشر والاشياء الاخرى . انه لا يعيش مع الحاضر وهو مهتم فقط بالمستقبل مما يقوده الى البحث عن نوع من المطلق . او يقوده الى رغبة في الانسجام مع النموذج المثال ان الانسان المنسلب لا يفكر او يعمل بذاته ، انه دائما يعزو الامور الى شخص آخر خارج ذاته ، مثل التقاليد ، والمقيدة الايدلوجية ومخلوق مبهم او اكمل . انه لا يعرف كيف يعيش في حوار مع الاخرين او سلام خارجي . انه دائما في حاجة الى شخص آخر ، ليقدسه او يخدمه ، يكرهه او يقاتله . انه يقضي حياته متعقبا شيئا اما ماديا الهدف — والذي يتحول الى مطلق مثل الرغبة في الثروة او الراحة او رموز الوجاهة — واما روحي الهدف وهو يتحول ايضا الى مطلق مما يقوده الى ازدراء الحياة والعالم . وهو يعتقد احيانا انه حصل على المطلق ، ومن ثم فانه مبتهج ومتوقع ، وفي أحيان اخرى يشعر بالاحباط ، ومن ثم فهو يائس وقانط . يقضي حياته في الرغبة والامل والتطلع والعبادة والاستخفاف . الانسان المنسلب المتوتر متأهب للقتال ، عنيف وضيق الافق ، غير متسامح وسلطوي ، انه الانسان العاطفي ولكنه ايضا انسان جبان يخشى السلطة، ويخشى أن يفكر ويفعل كما يفكر الاخرون ويعملون . انه جبان هياب ممتثل ، انه انسان قطيعي » .

مقترحات :

حيث أننا معنيون بدراسة اشكال التبعية الثقافية في الوطن العربي فان هذه المسؤولية لا يمكن أن تتم من خلال جهد الافراد . ان دراسة وسائل الاعلام وتأثيرها على الافراد والمجتمعات تجد اهتماما خاصا في

معظم انحاء العالم ، في هذا العصر الذي اقل ما يوصف بانه عصر الاعلام .

وللاسف ، فان الجامعات العربية التي تهتم بتخريج الاعلاميين ، لا تهتم بتخريج الباحثين ، الذين يدرسون تاثير وسائل الاعلام على المجتمع . ولعل هذا العجز تقع مسؤوليته كذلك على علماء الاجتماع والانثروبولوجيا ، الذين تعنيهم وسائل الاعلام وتاثيرها على الافراد والمجتمع والثقافة . وحيث يفتقر الوطن العربي الى مركز للدراسات الميدانية الاعلامية ، فانني اقترح انشاء مركز ابحاث للدراسات الاعلامية العربية ، ويكون هدف هذا المركز اجراء دراسات حول تاثير وسائل الاعلام على الافراد والجماعات والثقافات . واعتقد ان مثل هذا المركز اذا كانت له صلة ما بجامعة الدول العربية سوف يتيح له فرصة تعاون الباحثين من كل اقطار الدول العربية سيتيح امكانية اجراء بحوث ميدانية في كل الاقطار العربية ، ومن ثم فان مسؤوليات هذا المركز — او لنقل ان مسؤوليات البحوث الاعلامية الملقاة على عاتق الاعلاميين وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا العرب — تتمثل فيما يلي على سبيل المثال لا الحصر :

١ — بحوث ميدانية عن تأثير البرامج الاجنبية على المواطن العربي وخاصة الاطفال واليافعين .

٢ — بحوث ميدانية عن تأثير الاعلانات على المستهلك العربي .

٣ — اجراء دراسات تعتمد على اسلوب تحليل المضمون لما ينشر في الصحف العربية من اخبار عالمية وتاثيرها على الراي العام .

٤ — دراسات تعتمد اسلوب المضمون لما ينشر في الصحف العربية من دراسات ومقالات مترجمة وتاثيرها على الافراد .

٥ — بحوث ميدانية عن برامج الاطفال وتاثيرها على تكوين شخصية الطفل .

٦ ــ بحوث عن تأثير الثقافات الاجنبية على التراث الشعبي .

٧ ــ دراســات عن قصص ومجـلات الاطفـال امثال الســوبرمان والوطواط ودورها في تشكيل تصورات الطفل للعالم الخارجي .

٨ ــ دراسات عن تدفق المعلومات بين اقطار الوطن العربي .

٩ ــ دراســات عن تدفق المعلومات من العالم الغربي الى الوطن العربي .

١٠ ــ دراســات عن البرامج الاذاعية المسموعة والمرئيـة ومدى تخصيصها من نسب نوعية وكمية للبرامج الثقافية والترفيهية وغيرهما.

١١ ــ ان اهتماما خاصا يجب ان يرتكز على دراسة تأثير اذاعـة العدو الصهيوني المرئية والمسموعة على المواطن العربي وخاصة في المناطق المحيطة بالكيان الصهيوني مثل الاردن وسوريا ولبنان ومصر والاراضي المحتلـة .

١٢ ــ دراسات عن دور وسائل الاعلام في التنمية .

١٣ ــ دراسات عن تأثير الاذاعات الاجنبية كاذاعة لندن ، مونت كارلو ، صوت امريكا ، على الراي العام العربي .

١٤ ــ ترجمة اهم النظريات والابحاث الاعلامية من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية .

هذه بعض المقترحات وتظل مسالة تاثير وسائل الاعلام الغربية على الثقافة العربية امرا نظريا ما دمنا لم نقم باجراء الدراسات والبحوث حولها وتلك مسؤولية عسيرة .. ! ؟

* * *

الجذور التاريخية للغزو الفكري في صدر الإسلام

نماذج وآثار

د. علي فهمي خشيم

منذ البداية ، ودون الدخول في مقدمات طويلة وضرب الامثلة وعرض الاسباب يمكن القول بأن الغزو الفكري بدأ ببدء انتشار الاسلام، وشرعت العناصر المعادية – التعبير الحديث – في استخدام السلاح الثقافي حين رأت تمكن الاسلام وبروزه قوة عقائدية وحضارية ، وظهور الامة العربية باعتبارها الطليعة الاولى القائدة لهذا الدين العالمي المتدفق حياة وفكرا . وهي لجأت الى هذا السلاح بعد ان هزمت في المواجهة العسكرية التي قامت بها لكسر شوكة الدين الجديد وايقاف تقدمه ، وبعد ان فشلت في عرقلة اكتساحه المتواصل في جزيرة العرب وبقية اقطار الشرق الادنى وشمال افريقيا ، واخفقت في منع انتشاره ذلك الانتشار السريع المذهل حتى عبر البحار .

وعندما نقول « العناصر المعادية » فان المقصود مجموعة اصحاب الحضارات والديانات السابقة للاسلام والتي اتخذت منه موقفا عدائيا بحكم الحس الشعوبي من جهة ، خشية بروز الامة العربية التي وحدها الاسلام تحت راية واحدة وجاء بفكر يجعلها امة رائدة ، او بحكم العنصرية الدينية المغلقة على نفسها والحالمة على مدى العصور بفكرة حكم العالم والسيطرة عليه ، من جهة اخرى . وكانت مقاومة هذه العناصر للاسلام من الوضوح بحيث لا تحتاج الى تفصيل . واذا كان هذا الموقف العدائي قد تمثل في المناجزة الفكرية والاقتصادية والاجتماعية فان الامر ، بالطبع ، كان كذلك في الجانب الثقافي او الفكري الذي لجات مختلف العناصر الى استخدام اسلحتها فيه . ولكنها منيت بالهزيمة نتيجة قوة الاسلام الفكرية وحتمية انتصاره عند المقابلة المباشرة . غير ان هناك عنصرا بذاته معينا نلحظ انه لم يعتمد في عملية المواجهة طويلا ، فلجا الى اسلوب آخر هو ما يمكن تسميته بـ « الالتفاف الثقافي » وهو اخطر عمليات الصراع ان لم ينتبه اليه ، ونجح ــ بطريقة او باخرى ــ في فتح ثغرات لا تخفى في البناء الفكري العام في تاريخ الاسلام . واليهود هم ذاك العنصر الذي قام بحركة الالتفاف وفتح الثغرات ، وتهتم هذه الدراسة القصيرة بعرض نماذج منهم وآثارهم في صدر الاسلام وبعده .

حين اعلن محمد (ص) دعوته ليبلغ الرسالة كان اول ما قوبل به السخرية والهزء من اهله وقومه . فلما تجمع المؤمنون من حوله ووجه بالشدة والعنف من اهل مكة حتى هاجر الى المدينة التي كانت مركز تجمع يهودي كبير يعيش بين ظهراني العرب وفي كنفهم . وقد اتخذ اليهود من البداية موقف الترقب وانتظار نتيجة الصراع بين النبي وقومه، ولم يورطوا انفسهم في مواجهة ، مكشوفة املا في ان يقضي الصراع العربي الداخلي على هذه الدعوة وصاحبها ، ويحدثنا التاريخ انهم اظهروا جانب اللين للنبي وبينوا له « حيادهم » في البداية ، لكنهم ما لبثوا ان اظهروا الجانب الخفي لنواياهم نحوه يوم اضطر الرسول الى مقاتلة قريش واحزابها ، فكانوا عونا لاعدائه عليه متبعين اسلوب التخريب ، بل

المجابهة العسكرية ، معه طمعا في الخلاص منه وظنا بأن حلف قريش القوي قادر على تحطيم محمد ودعوته . وهذا ما ادى بالرسول الى أن يعلن موقفه الواضح منهم بعد انتصاره على حلف قريش ويأمر باخراجهم من خيامهم ، أو صياصيهم أو قلاعهم ، بعد ان استنفد كل السبل معهم لهدايتهم أو الزامهم بموقف الحياد على الاقل . ومنذ ذلك اليوم بدأت « المواجهة الحضارية » بين الاسلام واليهود ، وشرع هؤلاء في استخدام « السلاح الفكري » كالمعهد بهم .

هنا تبرز ملاحظتان : الاولى تكمن في أن اليهود لم يتركوا وسيلة من الوسائل الا اتبعوها لمحاربة النبي ودعوته ، فعمدوا الى تشجيع القبائل العربية لمقاتلته ، وذهبوا الى حد الاشتباك المسلح معه في المدينة . ولكن الهزيمة العسكرية التي لحقت بهم جعلتهم يذعنون ويستسلمون للامر الواقع في الظاهر . والثانية نراها في لجوئهم الى ما اسميناه «المسح الفكري» يستخدمون ضمن خطةتتضمن التسرب الثقافيوالتخريب العقائدي ، الى جانب إثارة الفتنة السياسية داخل كيان الامة كوسيلة من وسائل التدمير الداخلي لهذا الكيان ، وهي خطة طويلة المدى تعمل على مهل وبصبر طويل ، وظهرت اكثر ما ظهرت بعد وفاة النبي (ص) .

هاتان الملاحظتان ـ أو الظاهرتان ـ تنطبقان تماما على موقف اليهود من المسيح عيسى بن مريم (ع) . فنحن نعرف جيدا تلك الحرب القاسية التي شنها اليهود على المسيح ، واتهموه بأشنع التهم ـ وهو منهم ـ حتى بلغ بهم الامر حد تسليمه ليد « بيلاطس » وتحملهم دمه في رقابهم وطلبهم منه ان يصلبه . ولكن دعوة عيسى كانت بدأت في الانتشار وشرعت جذورها تضرب في الارض ، وهنا لجأوا الى سلاح التخريب « العقائدي » ممثلا في « بولس » ليحدث في النصرانية ما احدث وليحرف رسالة عيسى (ع) عن سبيلها الذي اراده الله (١) .

(١) انتبه الشهرستاني الى هذا الامر في كتابه « الملل والنحل » واورده باختصار كعادته في اثناء عرضه للديانات والمذاهب فذكر ان وصي عيسى بن مريم « كان شمعون الصفا » وهو افضل الحواري علما وزهدا وادبا ، غير ان فولوس شوش امره وصير نفسه

لم يجرؤ اليهود ، يوم كان النبي حيا ، على الاشارة جهرا الى اية مسألة تؤدي الى خلاف في صفوف المسلمين ، ولم يخوضوا في مشكلة من المشكلات الدينية او السياسية بسبب وجود المرجع الاول والاخير ، رسول الله (ص) الموحى اليه من ربه وبسبب السيطرة الدينية والسياسية الكاملة للنبي على المؤمنين المستعدين للعودة اليه في اية قضية من القضايا المثارة ، وكانوا يعرفون أن قوله هو القول الفصل الذي لا يناقش وبعدما انقطع عنهم مصدر الخلاف ولم يستطيعوا اثارة الفتنة في حياته(٢) فلما قضى (ص) احس اليهود بان فرصتهم سنحت في العمل الذي وطنوا انفسهم عليه واعدوا عدتهم من أجله وشرعوا في التمهيد له على مهل . وقد حمل عبء هذا العمل المثقفون منهم ـ بلغة العصر ـ أو هم الاحبار والربانيون ممن لهم اطلاع على القضايا الفكرية والدينية في كتبهم ، الى جانب اطلاعهم على الاسس الدينية والثقافية للاسلام .

كان هؤلاء « المثقفون » من اليهود اذن « الطابور الخامس » في عملية التخريب الفكري . ومن الجلي أن بعضا منهم قام بعمله جيدا متسترا

شريكا له ، وغير اوضاع كلامه وخلطه بكلام الفلاسفة ووساوس خاطره » ويضيف الشهر ستاني » ورأيت رسالة فولوس التي كتبها الى اليونانيين : انكم تظنون ان مكان عيسى (ع) كمكان سائر الانبياء ، وليس كذلك ، بل ان مثله مثل ملكيز داق (ملكى صدق) وهو ملك السلام الذي كان ابراهيم (ع) يعطي اليه العشور وكان يبارك ابراهيم ويمسح رأسه » (الملل والنحل ـ ص ٥٢١ ـ ٥٢٢) وقد تناول الدكتور أحمد شلبي موضوع تشويش بولس وخلطه ودوره في افساد دعوة عيسى (ع) من بعده بشرح وتفصيل كبيرين في مؤلفه عن النصرانية في سلسلة دراساته عن الاديان « المقارنة » فليرجع اليه لمزيد من التفصيلات .

(قارن : « الرسالة الى العبرانيين » . ولعلها هي التي يعنيها الشهر ستاني الاصحاح السادس والسابع من « العهد الجديد » الموجودة بها هذه الاشارة) .

(٢) يخرج عن هذا القول بعض الاسئلة « الاختبارية » كان اليهود يوجهونها للنبي على سبيل الجدل وتاتيهم الاجابة مفحمة في القرآن ذاته . ولكنها اسئلة ما كانت لترقى الى درجة اثارة الخلاف او الفتنة . راجع في هذا الباب كتاب الدكتور صبحي الصالح « اليهود في القرآن » ومؤلف ولهاوسن « محمد واليهود » .

تحت مختلف الستر ، ومتخذا أسلوب التسلل والتسرب ، حتى أحدث في الفكر الاسلامي ما احدث . وقد مهد لهم سبيل الحضور والتسلل عوامل عديدة نذكر منها :

١ ــ ان الاسلام ، بطبيعته ، كان رسالة عالمية يدعو الناس الى اعتناقه ويرغبهم في اتباعه . وكان من السهل جـدا على اي كان ان « يعلن » اسلامه بمجرد النطق بالشهادتين ، ويصبح تبعا لذلك فـردا من افراد المجتمع الاسلامي له ما للمؤمنين دون تمييز ولا تفريق ، بـل يمكنه ، دون نقاش ، ان يتسنم اعلى المراكز في الدولة ويمثل ارفع مكانة في المجتمع دون النظر الى « خلفيته » الدينية والثقافية ودون تحرز على الاطلاق .

٢ ــ ان فورة الاسلام الاولى وتقدمه المستمر وانتشاره على أوسع نطاق ودخول الاقطار في حوزته جعلت المسلمين لا يتحوطون كثـيرا في القضايا المعروضة ثقة في الذات وايمانا بصلابة الاساس العقائدي لدينهم وقوة العقيدة . ممثلة في القرآن ، على مواجهة الاعراف .

٣ ــ اسهمت طبيعة التسامح التي تميزت بها الامة العربية تجـاه الامم الاخرى والتي اكدها الاسلام ذاته ، وامتازت بها الحضارة الاسلامية وهي في اوجها ، أسهمت في فتح الباب أمام عناصر التشويش والتدمير الثقافي بقدر لا يستهان به .

٤ ــ كان العرب انفسـهم ابان ظهور الاسـلام شعبا تغلب عليـه البداوة ، ولم يكن البنيان الثقافي ــ بالمعنى المفهوم حديثا من هذه الكلمة ــ يستند الى تراث محفوظ متكامل يمكنه من مضاهاة البناء الثقافي عند المجتمعات المعاصرة الاخرى كان العرب يومها شعبا « بكرا » بالنسبة الى الحضارات المحيطة ، وكان معتزا اشد الاعتزاز بلغته التي نزل بها القرآن الكريم . ولم ير حرجا في « الاستفادة » من تجارب الامم السابقة وخبرات الشعوب الاخرى والاستعانة بمثقفي هذه الشعوب ، دون نظر الى جنس .

هذه العوامل وغيرها يسرت تسلل التخريب الى البناء الفكري للاسلام في اثناء تبلوره وتطوره ، كما سهلت أن تتسرب اليه آراء اصبحت فيما بعد « معتقدات » لتكون جزءا مهما من « التراث » وتحيد بتياره ، احيانا، عن مجراه الاساسي وكان عدد من اليهود بالذات مسؤولا مسؤولية مباشرة عن هذا التخريب .

في هذه الدراسة القصيرة نتعرض لثلاثة « نماذج » يهودية برزت في صدر الاسلام ، والقت بجرائيم آرائها في مجتمعه ، واثرت تأثيرا بالغا في مسيرته السياسية والثقافية على حد سواء . وهي تتمثل في : عبد الله بن سبأ ، وكعب الاحبار ، ووهب بن منبه .

١ ــ عبد الله بن سبا :

يكنى بابن السوداء ، ويعرف احيانا بابن حرب او ابن وهب الهمداني الحميري . كان يهوديا من صنعاء ، واعلن اسلامه في عهد الخليفة عثمان بن عفان . فهو اذن حديث عهد بالاسلام حين بدأت الفتنة تطل برأسها على المجتمع الاسلامي يوم ذاك . وكان سواحا في مختلف البلاد المفتوحة حديثا ، اذ نجده يأتي من اليمن الى الحجاز ، ثم ينتقل الى البصرة ، فالى الكوفة في العراق،ثم يعبر الشام الى مصر وفي مصر نجده يثير الناس على عثمان ويؤلبهم ضده لخلعه . ويذكر انه استخدم دعاة لنشر افكاره متظاهرا باتخاذ جانب علي بن أبي طالب . وكان بشخصه من جملة الزاحفين من مصر في شوال سنة ٣٥ هـ الى المدينة لخلع عثمان . وكانت حماسته لعلي بالغة الشدة ، ويقال انه كان قريبا منه في البداية ، ولكن عليا ما لبث ان أدرك خطورة الرجل وأفكاره فاتخذ منه موقفا حذرا، ثم بلغ غضبه حدا جعله ينفيه الى المدائن(٢) .

---

(٢) انظر مقالتي م. ث. هوتسما و م. ج. س. هدنمسون في « الموسوعة الاسلامية » عن « عبد الله بن سينا » .

ومثلما هو الحال في أمر عدد كبير من الشخصيات الغامضة نجـد أننا لا نعرف الكثير عن مساري حياة ابن سبأ ، وتكتفي المصادر باشارات عابرة هنا وهناك متناثرة عنه في بطون المؤلفات . وهذا ما جعل الجدل يثور حوله .

وعددا من الاسئلة يدور عنه ، من اهمها ما طرحه الدكتور طه حسين في كتابه « الفتنة الكبرى » حيث مال الى نفي وجود ابن سبأ اساسا وقال بأنه « لم يكن الا وهما » وشخصية اسطورية ادخرها أعداء الشيعة لهم ليدخلوا في أصول مذهبهم عنصرا يهوديا ، امعانا في الكيد لهم والنيل منهـم .

ويستند طه حسين في رأيه هذا الى امرين : اولهما انعدام ذكر ابن سبأ وجماعته في حرب صفين ، أهم معارك علي بن ابي طالب ضـد خصومه ، وعدم ظهور اثره حين اختلف اصحاب علي في امر الحكومة وتكوين الحزب المعارض للصلح والمفاوضة . وثانيهما ان البلاذري في مؤلفه « فتوح البلدان » لا يذكر ابن سبأ في شيء من الفتنة ايام عثمان وعلي . ثم يرجع طه‌حسين ظهور هذه « الشخصية الموهومة » الى فريقين ، القصاص ، الذين كانوا يتحدثون بأمر الفتنة في البصرة والكوفة ويرسلون خيالهم على سجيته . واصحاب الجدل وواضعي الاخبار والاحاديث يؤيدون بها مذاهبهم وآراءهم . ثم يومىء الى ان البلاذري لم يكن ابن سبأ بابن السوداء ، كما فعل غيره، ولكنه دعاه عبدالله بن وهب‌الهمداني . ويشير طه حسين اخيرا ، الى ما اورده بعض الكتاب من زعمهم ان ابن سبأ واتباعه اتهوا عليا فأحرقهم بالنار وهذه حادثة ما كانت لتخفى ولكنها مغفلة في التواريخ الموثوقة(٤) .

---

(٤) انظر : التمهيد والبيان ـ لمحمد بن يحيى الاشعري صفحات ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٩ ، ٨٨ .

(٤) طه حسين : الفتنة الكبرى ـ دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٧٢ م ، ص ٥١٨ ـ ٥٢١ .

ولا يقف رأي طه حسين في زعمه بوهمية ابن سبأ للنقد هنا . فان غيابه في موقعة صفين يفسر بأن عليا نفسه كان غضب منه حين أمعن في « تقديسه » الى درجة التألية ، أن لم يكن مواجهة فبالرمز والاشارة واشاعة الفكرة ، حتى نفاه الى المدائن كما هو مذكور عند المؤرخين . وليس من المعقول أن يأتي المنفي لنصرة من نفاه . ونضيف هنا أن موقف ابن سبأ لم يكن في حقيقته تشيعا لعلي وحبا فيه بقدر ما كان اثارة للفتنة ونفخا في نارها . ولم يكن يهمه القتال فعلا مع علي او سواه . وبهذا غاب في ما كان من احداث صفين وما نجم عنها .

اما صمت البلاذري عن ذكر ابن سبأ في الفتنة ايام عثمان وعلي ، فان مرجعه ان صاحبنا لم يكن شخصية سياسية عسكرية ، مما اهتم به البلاذري ، بل كان شخصية ثقافية فكرية مذهبية . ويظهر هذا الامر واضحا في أن جميع كتب العقائد والمقالات ، أعني المؤلفات الايديولوجية، أشارت اليه والى آرائه(ه) . ومع هذا فان البلاذري، باعتراف طه حسين نفسه ، ذكر ابن سبأ ودوره في احداث الفتنة وان كان باسم عبد الله بن وهب الهمداني — وهذه نسبة الى قبيلة يمنية فيها تحديد اكثر مما فعل ابن حزم — مثلا ، بنسبته الى حمير ، في حين اكتفى آخرون باسم الشهرة « ابن سبأ » وهذا كله لا يخرجه عن نسبته المعروفة . أما كون البلاذري لم يكنه بابن السوداء فانه لا يرقى في اهميته الى درجة التدليل به على « وهمية » الرجل ، اذ لم تكن هذه الكنية الا نسبة لامه ليس غير .

وتبقى المسألة الاخيرة وهي حادثة احراق علي لاتباع ابن سبأ . ومن الممكن النظر في هذه المسألة باعتبارها تهويلا او زيادة في النكاية ومقتا لمقالة الرجل وتكريها للناس فيه ، وارهابا لمن يقول بما ذهب اليه ،

(ه) انظر على سبيل المثال : الطبري ، تفسير . النوبختي ، فرق الشيعة . الملطي ، التنبيه والرد . الاشعري ، مقالات الاسلاميين . البغدادي ، الفرق بين الفرق . الشهرستاني الملل والنحل . ابن حزم ، الفصل ... الخ .

وتنزيها لعلي ابن ابي طالب عن شبهة قبول آرائه ــ فضلا عن ان ذكر الحرق لم يرد في المصادر كلها بل في عدد قليل منها نقل بعضه عن بعض. وعلى الرغم من هذا فان البلاذري ذاته ، وعددا آخر من كتب التاريخ الاسلامي يحدثنا عن ان « قوما ارتدوا بالكوفة فقتلهم علي » مما اورده طه حسين نفسه(٦) ومن الجائز جدا ان هؤلاء « القوم » كانوا من اتباع ابن سبأ ، وقد ثبت قتل علي لهم على كل حال ، وليس من الغريب ان يحول البعض القتل الى احراق ، ولكنه لا يتعلق بوجود ابن سبأ من عدمه ولا يقودنا الى القول بأنه مجرد شخصية وهمية لا وجود لها .

من حقنا بعد هذا ، ان ننقض رأي الدكتور طه حسين الغرم ــ فيما يبدو ــ بنفي وجود مسائل كثيرة في التاريخ العربي والاسلامي ، مما قد يؤدي ــ اذا سايرناه في منطقه ــ الى الغاء هذا التاريخ بكل شخصياته واحداثه وآثاره . ولا بد من الاشارة هنا الى تأثر يهودي معروف ، هو مارغليوث ، في طه حسين وتكوين جملة من آرائه ، والى انتفاع اليهود من نفي وجود ابن سبأ واعتباره « وهما » مما له آثاره السياسية والمذهبية .. مما يطول شرحه ويبعدنا عما نحن فيه الآن(٧) .

وعلى كل حال ، فان ابن سبأ كان شخصية مزدوجة النشاط دينيا وسياسيا فعنده تجد السياسة امتزجت بالدين ، وان كلا منهما استغل لتدمير الاخر . اذ استخدم الظروف السياسية لنشر افكار دينية تأييدا لموقف ومعارضة لاخر، واستعمل هذه الافكار الدينية ذاتها لتحريك الفتن السياسية وتأليب المجتمع الاسلامي بعضه على بعض . وبذا يمكنه ان يحقق غايتين : التخريب السياسي والتحريف الديني في آن واحد . واذا

(٦) الفتنة الكبرى ، ص ٥٢١ .

(٧) لم يجرؤ كاتبان يهوديان ، هما هوتسمان وهدغسون اللذان كتبا عن ابن سبأ في « الموسوعة الاسلامية » في نشرتيها القديمة والجديدة على انكار وجوده والزعم بانه وهم . واقصى ما استطاع ذكره منهما هو انه « ربما لم يكن يهوديا » . فتأمل !

كان دور السياسي قد انتهى بنفيه ، او بوفاة علي بن ابي طالب ، فان افكاره ظلت بعد ذلك عند اتباعه واتصل وجودها مع الزمان .

فيما يلي ، وبايجاز شديد ، نعرض لاهم الافكار الدينية ــ السياسية التي زرعها ابن سبأ ، وتبلورت في مذاهب بعض الطوائف الاسلامية وتطورت عند عدد من الفرق باشكال مختلفة . ومن اهم هذه الافكار : فكرة « الوصاية » وفكرة « الرجعة » .

الوصاية :

دعا ابن سبأ الى ان لكل نبي وصيا يخلفه من بعده ، وان عليا هو وصي محمد (ص) تماما كما كان يوشع بن نون وصيا لموسى (ع) . وعلى هذا الاساس فان عليا ــ منطقيا ــ هو الاولى بالخلافة ليس فقط من عثمان ، بل من ابي بكر وعمر ايضا . « وكان في اليهودية يقول فـي يوشع بن نون وصي موسى ، مثلما قال في علي . وهو اول من اظهر القول بالنص على امامة علي ، ومنه انشعبت اصناف الغلاة » . كما يقـول الشهرستاني (٨) . فهو اذن يحمل ارثا يهوديا واضحا استغله استغلالا كاملا .

وكانت نتيجة مقالة ابن سبأ ، ونشاطه الدائب في نشرها ، ان وجدت استجابة من الكتلة السياسية المعارضة لعثمان بن عفان ، فسارعـت بالتقاطها تأييدا لحق علي في الخلافة وتأكيدا على انه الاولى بها من سواه . وادت العوامل السياسية الى ترسيخها وتطويرها فيما بعد . ولكن ابن سبأ لم يكتف بذلك ، وقد رأى الاستجابة المطلوبة ، فتقدم خطوة اخرى محيطا عليا بهالة من القدسية ، بل الالوهية ، باعتباره مقتبسا من النور المحمدي الذي هو ، عنده ، نور الهي في الاساس . فاندفع الى القول بان في علي جزءا الهيا في بداية الامر ، ثم زاد واكد ان عليا هو الله ذاته .

(٨) الملل والنحل ، ص ٢٦٦ .

ويمكن القول هنا ، بشيء من الحذر ، ان فكرة « الوصاية » وجدت قبولا من انصار علي، اذ هي تخدم اهدافا سياسية معنية ، ومن المؤكد انها استغلت للدعوة لخلافة علي وخاصة ابان الفتنة . ويمكننا ان نفهم من المصادر الاسلامية ذاتها ان ابن سبأ كان قريبا من علي بقدر ما ، ولعل هذا كان فيبداية تشيعه له . ولكن هذا الموقف تغير كلية فيما بعد حين امعن ابن سبأ فيتقديس علي تقديسا ادى به الى تأليهه .

هنا نجد امامنا مصدرين يرويان قصة هذا التأليه باختصار شديد يقول الشهرستاني :

« السبأية ، اصحاب عبد الله بن سبأ الذي قال لعلي (٩) كرم الله وجهه : **انت انت** ــ يعني : **انت الاله** . فنفاه الى المدائن » .

ويذكر ابن حزم ان اول الغالية الذين يقولون بالالوهية لغير الله « قوما من اصحاب عبد الله بن سبأ الحميري اتوا الى علي بن ابي طالب فقالوا شابهه : **انت هو** . فقال لهم : ومن هو ؟ قالوا : **انت الله** فاستعظم الامر ، وامر بنار فأججت واحرقهم بالنار . فجعلوا يقولون وهم يرومون في النار : الان اصبح عندنا انه الله ، لانه لايعذب بالنار الا الله » (١٠) .

واذا كان من الممكن ، استبعاد احراق علي لاتباع ابن سبأ بالنار كما يرويها ابن حزم بأسلوب المعادي للشيعة جدا(١١) ، فان من المرجح نفي علي لابن سبأ الى المدائن ، ليس لمواجهته بتأليهه مما لم تكن الجرأة ــ فيما

(٩) المصدر نفسه ، ص ٣٦٥ .
(١٠) الفصل ، ص ١٨٦ .
(١١) يضيف ابن حزم ان عليا قال في ذلك بيتا من الشعر :
« لما رأيت الامر امرا منكرا   اججت نارا ودعوت قنبرا »
يريد قنبرا مولاه ، وهو الذي تولى طرحهم في النار ، المصدر نفسه .

نرى ـ لتواتيه للجهر به امامه ، ولكن ربما لانتشار الفكرة ذاتها اوما قاربها ومن المحتمل ان ابن سبأ عاش بعد اغتيال علي وتابع نشر افكاره بعدوفاته مما ادى الى فكرة اخرى من افكاره هي ما يعرف باسم « الرجعة » .

الرجعـة :

كان من الممكن ان تنتهي الفتنة بوفاة علي ، وليس يهمنا هنا على اي شكل استقر الامر . وكان من المفروض ان يتوقف ابن سبأ عن دعوته لعلي، او على الاقل ان يدعو لابنائه بالخلافة من بعده . وهذا موقف عدد كبير من الشيعة الذين رأوا ان عليا احق بالخلافة من غيره ، فلما قضى ذهبوا الى حق عقبه فيها . وهذا رأي سياسي محض يمكن الاتفاق معه اومعارضته ولكنه يظل مع هذا مجرد موقف سياسي ليس غير . بيد ان ابن سبأ لم يكن يهدف في الواقع الى نصرة علي على خصومه ، بل يبغي تاريث نار الفتنة بين المسلمين وضربهم لبعضهم ببعض . وهذا مادفعه الى التشبث بعلي ذاته . ولكن كيف ، وقد قضى ابن ابي طالب ؟

وجد ابن سبأ الحل في فكرة يهودية اخرى تعرف بفكرة « الرجعة » فاسرع بالتقاطها والقائها بين اتباعه يدعوهم اليها ويدعون هم اليها من بعد . ولعل ابن سبأ قال بفكرة الرجعة هذه في بداية الامر بالنسبة للنبي ذاته ، اي ان النبي (ص) سوف يرجع متقمصا شخص علي وحالا فيه ليستمر نور النبوة الالهي في ابن ابي طالب . فلما مات علي اسرع يقول انه « **حي لم يمت** » لان فيه « الجزء الالهي ولا يجوز ان يستولى عليه ، وانه يجيء في السحاب ، والرعد صوته والبرق تبسمه ، وانه سينزل الى الارض بعد ذلك فيملأ الارض عدلا كما ملئت جورا » .

اورد ابن حزم ان « ابن سبأ قال ، اذ بلغه قتل علي (رضي) : لـو اتيتمونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ، **ولا يموت** حتى يملأ الارض عدلا كما ملئت جورا » (١٣) .

وقال الشهرستاني : « وانما اظهر ابن سبأ هذه المقالة بعد انتقال علي (رضي) واجتمعت عليه جماعة . وهم اول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة وقالت بتناسخ **الجزء الالهي** في الائمة بعد علي » (١٤) .

فكرة « الجزء الالهي » اذن هي التي استند اليها ابن سبأ في افكار موت علي ، اذ هو لايموت مادام يحله هذا الجزء الالهي . ولكنه لم يكتف بفكرته اليهودية المنشأ فابتدع حديثا عن عمر بن الخطاب ليدعم بها مقالته قال : وهذا المعنى (أي حلول الجزء الالهي في علي) مما كان يعرفه الصحابة. هذا عمر بن الخطاب كان يقول فيه حين فقأ عين واحد بالحد في الحرم ورفعت القصة اليه ، ماذا اقول في « يد الله » فقأت عينا في « حرم الله» فاطلق عمر اسم « الالهية » عليه لما عرف منه ذلك (١٥) .

وعلى الرغم من ان هذه الحادثة مختلقة من اساسها ، وان عمر لم يقل ماقاله ، فانها لاتدل بحال على شيء من التأليه او اطلاق اسم «الالهية» كما عبر الشهرستاني ــ على علي . واكثر مايفهم منها تسليما بحدوثها جدلا ، هو ان عمر كان يعبر عن ان ماحدث كان تطبيقــا لحدود الله ، وبارادته ، في حرمه . وان المرء لايملك الا ان يندهش من قبول بعض الافكار على وهن الاساس المنطقي والعقلي لها ، ناهيك بالاصل التاريخي، وسريانها ، ولعل السبب في هذا يرجع الى عملية « التشويش » والخلط التي اتبعها « بولس » بالنسبة لدعوة المسيح ــ كما اسلفنا من قبل ــ بحيث تختلط المسائل ويضطرب التفكير ويفقد المنطق السليم وبخاصة عند العامة ويحرص«المثقفون»المشوشون على هذا الخلط عند اتباعهم حتى تنعدم

---

(١٣) الفصل ، ص ١٨٠ .
(١٤) الملل ، ص ٣٦٧ .
(١٥) المصدر السابق .

الرغبة في تعليل القضايا ومنطقتها ويصبح الامر مجرد « ايمان » مطلق اعمى او تقيد مستسلم دون اعمال فكر . وهذا ماحدث بالنسبة لابن سبا واتباعه من غلاة الشيعة وفرقهم « المتطرفة » الكثيرة . التي انتقلت اليها افكار ابن سبأ واتخذت اشكالا عديدة وتحولت الى طوائف لايمكن حصرها في هذه العجالة ولكنها لا تخرج في اساسها عن المقالات الاصلية التي دعا اليها ابن سبأ وهي معروضة مبسوطةفيكتب الفرق وتاريخ الفكر الاسلامي بسـ[illegible] وافيا .

وتبقى اسـ[illegible]ـة اخيرة تكمن في القول بان افكار ابن سبأ لم تؤد فحسب الى فتح ثغرة عظيـ[illegible]ـة في البناء السياسي والفكري للاسلام وخلق صراع دام عنيف بين جناحيه ممن عرفوا في تاريخه بالشيعة واهل السنة ولانزال نعاني منه حتى اليوم ، بل استطاعت ان تنفذ الى الفكر السني المحافظ ذاته . فان صورة الخضر الذي لايموت ، والتي انتشرت عند الصوفية ، اثر واضح من فكرة الولي الخالد . وصورة المهدي المنتظر التي طغتعلى الذهن العامي واستغلت استغلالا كبيرا هي عبارة عن فكرة « الغيبة » او « الرجعة » الاولى وان اختلف فيها الاشخاص والزمان . ويمكن القول ، باختصار مخل ، ان مجمل الافكار الغيبية ، وعوامل التناحر والصراع الدموي ، في تاريخ الاسلام تعود الى تلك الفترة المبكرة منه . . . الى عبد الله بن سبأ واتباعه .

كعب الاحبار :

شخصية خطيرة اخرى من « الشخصيات الثقافية » اليهودية في صدر الاسلام ، واسمه يدل عليه (١٦) . وتجمع المصادر على انه كان يهوديا

---

(١٦) اسمه الكامل : ابو اسحق كعب بن ماتع ، او متيع ، بن هيسوع . ويلقب احيانا « الحبر » ولكنه اشتهر باسم كعب « الاحبار » ــ بصيغة الجمع ــ زيادة في التقدير والاصل كلمة « حابر » العبرية بمعنى « عالم » وهو لقب في العبرية ادنى من « الرباني » (الربي) ويرى بعض الباحثين ان اسمه الاصلي هو : عقيبة ، او يعقوب ــ ثم عرب الى « كعب » بعد اعلان اسلامه . (انظر : شمتز ــ الموسوعة الاسلامية مادة : كعب الاحبار) .

ويهود اليمن ، مثلما هو الحال بالنسبة لابن سبأ ، وكان موجودا ، ربما في اليمن ، ايام النبي (ص) ولكنه لم يره قط ، ومثل ابن سبأ ايضا لانعرف الكثير عن حياته ، وهو ربما جاء المدينة بعد وفاة الرسول ، ويذكر انه كان من جملة اتباع عمر بن الخطاب يوم دخل القدس (سنة ١٥ هـ) ولكن الغريب انه كان لايزال على يهوديته يومها ، ولم يعلن اسلامه الا بعد سنتين من ذلك . ثم انتقل الى الشام ، بعد مقتل عمر ، حيث مات في حمص سنة ٣٢ هـ (١٧) .

يبدو كعب الاحبار ، هو الاخر ، شخصية مزدوجة النشاط السياسي والفكري ، وان كان الاشهر الجانب الاخير من نشاطه ، وهذه طبيعة المثقف الهادئ الذي لا يريد لنفسه ان يتورط موقفيا ، ويتستر في اتجاهه السياسي خلف حجب فكرية قد تكون مجردة في احيان كثيرة ، غير ان « معطياتها » تظل مرتبطة بالسياسة على كل حال . ومن الضروري هنا الاشارة الى هذين الجانبين عند كعب الاحبار باختصار من خلال ما يروى عنه في المصادر .

---

(١٧) تختلف المصادر في مكان موته ، الطبري يقول انه حمصي ، وابن بطوطة يذكر انه دمشقي ، ويقول آخرون انه مات في المدينة ، وغيرهم يجعلون مصر مكان وفاته ويذكر محمد بن يحيى الاشعري في كتابه « التمهيد والبيان » رواية مسندة عن صلة كعب بمقتل عمر ، خلاصتها ان كعبا جاء عمر غداة تهديد ابي لؤلؤة المبطن له فقال : (يا امير المؤمنين ، اعهد فانك ميت بعد ثلاثة ايام) قال عمر : (وما يدريك ؟) قال : (اجده في كتاب التوراة) قال عمر : الله ! انك تجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟!!) قال كعب : (اللهم لا ولكن اجد صفتك واصليتك وانه فني اجلك) وعمر لا يجد الما ، فلما كان الغد جاء كعب فقال : (يا امير المؤمنين ، ذهب يوم وبقي يومان) ثم جاءه من الغد وقال : (يا امير المؤمنين ، ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهو لك الى صبيحتها) وفي غد طعن عمر (ص ٢٠ ـ ٢١) .
ومن الممكن هنا ، بالطبع ، التساؤل عن معنى هذا كله ولكن هذا التساؤل يظل معلقا الى ان يتم دراسته بتوسع وتفصيل .

ا ـ في السياسة :

من المثير فعلا ان نرى رجلا مثل عمر بن الخطاب يقرب كعب الاحبار هذا التقريب حتى قبل اعلان اسلامه ، ولعل هذا ماجعل صحابيا مثل ابي ذر (١٨) يعترضه ويتحرش به . ولاتفسير لهذا التقريب من عمر الا طمعه في اسلام كعب باعتباره شخصية ثقافية مهمة ، وذلك التسامح الذي اشتهر به المسلمون الاول في تعاملهم مع اهل الكتاب بصفة خاصة ، لكن هذا التسامح ، فيما يبدو ، ادى الى نتائج وخيمة سياسية وفكرية ، فان تمكن كعب من مجلس الخليفة الثاني جعله يحظى بنظرة تكريم خاصة اتاحت ان ينشر اراءه وافكاره مما عرف في تاريخ الفكر الاسلامي باسم « الاسرائيليات » وفي ميدان السياسة من الممكن الشك في دور ما قام به كعب في مقتل عمر ، ثم محاولة اداء الدور ذاته الذي اداه ابن سبأ بالنسبة لعلي بن ابي طالب .

يذكر الكثيرون ان كعبا (تنبأ) بمقتل عمر قبل حدوثه بثلاثة ايام ، وانه اخبر عمر بذلك ، فهل كان على علم بالتالي بمؤامرة اغتيال الخليفة الثاني ؟ هل شارك هو ذاته في الاعداد لها ؟ هل كان من جملة المتآمرين ؟ مثل هذه الاسئلة يمكن ان تطرح ، ومن الممكن النظر اليها باهتمام ، غير ان المصادر لاتزودنا بمعلومات وافية ، عن هذا الموضوع .

---

(١٨) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٢ م ، الجزء الثالث ، ص ٣٤٠ ، كان ضيق أبي ذر بالغا من تمكن كعب في مجلس الخليفة ، وذات مرة قال له : « يابن اليهودية ! ما انت وهاهنا ؟ والله لا يسمع أحد من اليهود الافتنوة » وهذه الاشارة ، فيما يبدو ، موجهة الى الخليفة نفسه . وقد توعد ابو ذر كعبا مرة فقال له (والله لتسمعن مني اذ ادخل عليك) فلما قتل عمر وجد كعب مكانه في مجلس عثمان ، وكان ابو ذر يتحدث وهو عند عثمان قائلا : (لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى يبذلوا المعروف) فقال كعب : (من ادى الفريضة فقد قضى ما عليه) فرفع ابو ذر محجنه فضربه ، فشجه ، حتى تدخل عثمان : (يا ابا ذر ، اكفف يدك ولسانك) ، واستوهبه منه فوهبه له ، اي عفا عنه . (الاشعري : التمهيد والبيان ، ص ٦٧) .

ولكن ثمة روايات ذات مغزى كبير ، ويمكن تحليلها ودراستها واستخلاص النتائج منها ، فنحن مثلا ، نجد ابن سعد في « طبقاته » يروي ان كعبا اتى عمر ، بعد ان طعن فقال له : (الم اقل لك انك لاتموت الا شهيدا وانت تقول من اين وانا في جزيرة العرب ؟ !) .

ومهما يكن الامر فقد حاول كعب ان يقوم بالمهمة التي قام بها ابن سبأ من بعده ، وذلك عن طريق (تقديس) عمر بن الخطاب تقديسا قد يؤدي الى (تأليهه) كما حدث مع علي بن ابي طالب ، بيد ان شخصية عمر ذاتها منعت حدوث مثل هذا الامر وكان كعب ــ كعادته ــ يستند الى مايزعمه من قصص بني اسرائيل ، اذ يروي انه كان يحدث بحديث ملك في بني اسرائيل (اذا ذكرناه ذكرنا عمر ، واذا ذكرنا عمر ذكرناه) وهو يلفق قصة عن هذا الملك فحواها ان الله امهله ثلاثة ايام ليموت بعدها ، فدعا ربه ان يهبه طول العمر حتى يبلغ ابنه الرضيع سن الرشد ، فامهله الله خمسة عشر عاما ليكبر ابنه . وكان كعب يردد هذه القصة ، وخاصة قبيل مقتل عمر فلما طعن عمر قال كعب : (لئن سأل عمر ربه ليبقينه الله !) فأخبر عمر بذلك ، فقال : (اللهم اقبضني اليك غير عاجز ولاملوم .) (١٩) .

ويروى هذا الخبر بصورة مختلفة اذ قيل انه لما طعن عمر جاء كعب فجعل يبكي بالباب ويقول (والله لو ان امير المؤمنين يقسم على الله ان يؤخره لاخره !) فدخل ابن عباس (تلميذ كعب) على عمر فقال : (ياامير المؤمنين هذا كعب يقول كذا وكذا) قال عمر : (اذن .. والله لا اسأله) ثم قال : ويل لي ولامي ، ان لم يغفر الله لي)(٢٠) .

نحن نرى اذن ، مما سبق ، بدايات (التقديس) التي شرع فيها كعب الاحبار بالنسبة لعمر بن الخطاب ، ونرى هذا الموقف الانتهازي من رجل

(١٩) المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .
(٢٠) المصدر ذاته ، ص ٣٦١ .

مطعون يحاول ان يسبغ عليه في لحظاته الاخيرة القدرة على ان يطلب من الله أن يؤخره فيستجاب له ، وبذا يضرب عصفورين بحجر واحد ، ان مات عمر ظلت كلمته سارية كما حدث ، وان حيي أحاطت به هالة (القدسية) وربما (الالوهية) . بيد اننا نرى موقف الرفض والشدة والغضب من عمر لنصيحة كعب ، ودعوته ان يقبضه الله سريعا والسؤال الان : مم كان يستغفر عمر في هذا الموقف ؟ هل كان يستغفر الله اذ قرب كعبا اليه ؟ هل علم ــ أو شك ــ بأن لكعب يدا ، ولو خفية ، في ماحدث فيشيح عنه ؟ هذا أمر يحتاج فعلا الى بحث طويل .

هذا الموقف الانتهازي ــ او بتعبير آخر الصيد في الماء العكر ــ الذي رأيناه عند كعب بالنسبة لعمر ، يبدو ايضا في تصرفات أخرى له ، بغية اثارة الفتنة ، اذ يظهر انه لم يكتف بما شجر بين المسلمين من خلاف ، بعد مقتل عمر ، على جهات عديدة ، من شيعة علي الى انصار عثمان الى مؤيدي عائشة وطلحة وعبد الله بن الزبير وعشرات الاسماء الاخرى . فاراد ان يدخل في الصراع طرفا آخر من بني هاشم متبعا الخطة ذاتها ، التقديس وايهام الشخص ومن حوله بأن له (مكانة) عند الله تؤهله لمكانة كبرى في الدنيا ، وبالتالي ادعاء الخلافة والحكم ، فيروى عن علي بن زيد بن علي بن الحسن ان كعبا مضى الى فرع من فروع بني عبد المطلب ــ وهو المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ــ (فياخذ بيده وقال : اشفع لي يوم القيامة فانتزع المغيرة يده من يد كعب وقال : وما انا ؟ انما انا رجل من المسلمين ، فاخذ كعب بيده فغمزها غمزا شديدا وقال : ما من مؤمن من آل محمد الا وله شفاعة يوم القيامة !)(٢١) .

ونجد مثل هذا الموقف المداهن لابناء عبد المطلب في حادثة أخرى، فقد ذكر أن كعبا قام يسأل عمر بن الخطاب : (ما كان آخر ما تكلم به رسول الله (ص) ؟) فقال عمر : (سل عليا) قال : (أين هو)

(٢١) الطبقات ، جزء ٥ ، ص ٢٣ .

قال : (هو هنا) فسأله ، فقال علي : (اسندته الى صدري فوضع راسه على منكبي وقال : الصلاة .. الصلاة) فقال كعب : (كذلك آخر عهد الانبياء وبه امروا ، وعليه يبعثون)(٢٢) .

وبصرف النظر عن موضوع السؤال فاننا نرى عمر ، مرة أخرى ، يشيح بوجهه عن كعب ويوجهه لسؤال علي الذي قيل انه حضر وفاة النبي ــ وفي الامر خلاف ، فلما اجابه بما اجاب نجد كعبا يعلق تعليقا فيه موافقة لابن ابي طالب ، استنادا الى (علمه) هو بآخر عهد الانبياء وبما امروا به وبما عليه يبعثون .

الغريب في الامر ان كعب الاحبار انحاز ، بعد مقتل عمر ، الى عثمان بن عفان ، فلما قتل عثمان انضم الى معاوية بن ابي سفيان المطالب بدم عثمان والذي استولى على الخلافة من بعد ، وهو هنا مخالف لموقفه السابق من آل عبد المطلب ، ومخالف لابن سبا ، بيد أن القضية تفقد غرابتها اذا علمنا (خطة) اليهود على مدى الازمنة والعصور ، حتى وقتنا هذا ، في حرصهم على ان يكون لهم (ممثل) في فرق الصراع سياسيا كان او ايديولوجيا وهذه الظاهرة لا تغيب عن عين المتفحص يلحظها في حضور اليهود حضورا ايجابيا في جميع الفلسلفات بقدر يكبر او يصغر تبعا للحاجة والظروف .

ومن الواضح ان معاوية رحب ترحيبا كبيرا بكعب الاحبار ، اليس في انضمامه اليه كسب عظيم باجتذاب أحد كبار المثقفين ؟ وكان معاوية ، بدهائه المعروف ، يبحث عن الانصار والمؤيدين من مختلف الطبقات ، فما بالك برجل صاحب عمر بن الخطاب واشتهر بعلم الاولين ومعرفة ماعند اهل الكتاب ؟ ولعل هذا ما جعله يستدعيه الى دمشق ليقربه ويتخذ منه (مستشارا) في كثير من شؤونه ، ومن الجلي ان كعبا لم يبخل بمشورته النافعة لمعاوية ، وهذا ماجعل ابن سفيان يصرح :

---

(٢٢) الطبقات : الجزء الثاني ، ص ٣٥٢ .

(الا ان كعب الاحبار احد العلماء ان كان عنده لعلم كالثمار ، وان كنا فيه كمفرطين)(٢٣) .

ويبدو ان هذه المكانة التي حظي بها كعب لدى معاوية وبعد ان رأى غلبة بني امية على الامر ، هي التي جعلته يتحول عن موقفه بالنسبة لبني عبد المطلب . ويتخلى عنهم ، ليس فيما يتعلق بمسالة الخلافة ، فحسب ، بل ايضا في موضوع العلم والثقافة يومها ، وبعد ان كان يطلب (شفاعة) المغيرة من بني عبد المطلب ، ويعيد له على مانقله على عن النبي (ص) ، نراه يلتفت لتنصيب أحد ابناء بني امية باعتباره (افقه العرب) فقد التقى وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال كعب : (اتطير ؟) قال عبد الله : (نعم) قال : (فما تقول ؟) فقال : (اقول: اللهم لاطير الا طيرك ، ولا خير الا خيرك لا رب غيرك ولا قوة الا بك (قال كعب : (انت افقه العرب انها مكتوبة في التوراة كما قلت (!))(٢٤) .

ب ــ في الفكر:

لم يترك كعب الاحبار كتابا ، فكل آرائه وافكاره كانت شفهية ، وهي آراء نقلها تلاميذه الذين من اهمهم الصحابي أبو هريرة الذي تنسب اليه احاديث نبوية كثيرة جدا يحتاج عدد كبير منها الى اعادة نظر شاملة . ثم عبد الله بن عباس ، اشهر مفسري القرآن في صدر الاسلام الاول . ونجد نقولا عن كعب مبثوثة في مختلف المؤلفات ، وخاصة ماتتصل منها بالتاريخ القديم وتفسير بعض آي القرآن المتعلقة بالاشارة الى الامم السابقة واخبارها .

هذا الاثر البالغ الخطورة يعرف عادة باسم (الاسرائيليات) وهي مجموعة الروايات والقصص التي جاء بها كعب ، ووهب بن منبه من

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .
(٢٤) الطبقات ، الجزء الرابع ، ص ٢٦٨ .

بعده ، مدعيا انه نقلها من مصادرها الاصلية في التوراة وكتب اليهود وزاعما انها تفسير حقيقي لما جاء في القرآن .

ولابد من الاشارة هنا الى تلميذ كعب الباشر ، اعني عبد الله بن عباس ، ودوره في نقل كثير مما بثه كعب الاحبار من الاسرائيليات ولاريب في انه مسؤول تماما عن انتقالها الى الفكر الاسلامي حتى اصبحت تعد من الاسلاميات(٢٥) وتحسب على الاسلام والقرآن ذاته . واذا كان هناك الكثير مما يمكن قوله في تفاسير ابن عباس واقواله فان ترجمته التي اثبتها ابن سعد مطولة في (طبقاته)(٢٦) وجاءت في مصادر اخرى كثيرة ، تظهر جوانب ينبغي على الدارس المحقق ان يقف عندها ويمحصها ، واقل مايقال هنا في هذه اللمحة ان ابن عباس متأثر تأثرا بالغا بكعب الاحبار وهذا ما ادخل كثيرا من الخلط في تفسيره للقرآن الكريم ، فقد كان ابن عباس اكثر الصحابة تفسيرا ، ولم يعرف منهم بالتفسير الا ثمرة ، كما يروي السيوطي في (الاتقان) ومن الجائز القول ان كثيرا من تفسيره نسب اليه ــ كما يذهب المتدوون عنه ــ تملقا بالعباسيين وزلفى وهناك طرق عديدة للرواية عنه واهية لا يوثق بها ، ويروى عن الامام الشافعي انه قال : (لم يثبت عن ابن عباس من التفسير الا شبيه بمائة حديث)(٢٧) بيد ان هذا لا يمنع من القول بأن تفسير ابن عباس ، وبقية التفاسير الاخرى التي نحت نحوه مما يعرف باسم (التفسير بالمأثور) سواء صحت نسبتها أم لم تصح تحتوي على قدر مهول من الخلط والخرافة شوهت صورة الفكر الاسلامي وانحرفت به عن مجراه العقلي المنطقي السليم ، ولا ريب ان مرجع الامر يعود الى ذلك المثقف اليهودي الذي اعلن اسلامه متأخرا .. كعب الاحبار .

(٢٥) انظر : مناهل العرفان ــ للزرقاني ، ص ٤٨٥ .

(٢٦) انظر : الجزء الثاني ، ص ٣٦٥ وما بعده .

(٢٧) مناهل العرفان في علوم القرآن ــ محمد عبد العظيم الزرقاني ــ دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٠ م ، ص ٤٨٥ ــ ٤٩١ .

٣ ـ وهب بن منبــه :

اذا كان كعب الاحبار ادى مهمته في صدر الاسلام الاول ومن عصر الصحابة حتى (اغتر به قدماء رجال الجرح والتعديل)(٢٨) وصدقه (حتى بعض الصحابة)(٢٩) كما يرى الحافظ ابن كثير ، فان المهمــة تسلمها من بعده شخصية ثقافية يهوديـة اخرى ممثلة في وهب بن منبه الذي يحسب من التابعين .

ولد وهب في اليمن ايضا بالقرب من صنعاء سنة ٢٤ هـ ، وكــان من اصل فارسي ينتسب الى طائفة تعرف بـ (الابناء) وهم اعقاب الجنود الفرس الذي جاءوا اليمن لاخراج الاحباش منها على ايام ذي نواس . ويورد ابن النديم في (الفهرست) انه كان من (اهل الكتاب) ـ اي بدقة اكبر : كان يهوديا ، ويذكر الثعالبي انه كان على صلة بمعاوية ، كما يشير المسعودي الى علاقته بالوليد بن عبد الملك ، ويبدو انه عرفه بالتزهد ، وهذا ما قد يكون دفع الى تعيينه قاضيا لمدينة صنعاء مسقط راسه مرة ـ وهو امر حدث بعد اعلان اسلامه بزمن ، وتوفي وعمره فات التسعين(٣٠) .

كان وهب يعتبر واحدا من كبار مثقفي (أهل الكتاب) ، ويذكـر عنه ابن قتيبة انه كان يقول : (قرات من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتابا !) وينقل عنه انه قرا عشرة آلاف ورقة من (حكمة لقمان) . ويصفه ابن خلطان بانه (صاحب الاخبار والقصص ، وكانت له معرفة باخبار

(٢٨) رشيد رضا ، تفسير القرآن الكريم ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٣٤٦ هـ جزء ١ ، ص٩.
(٢٩) المصدر نفسه ، ص ٧٨ وقارن : مناهل العرفان ، ص ٨٢ .
(٣٠) انظر ترجمته عند ابن خلطان في (وفيات الاعيان) ومن مؤلفات الاعلام الاخرى مثل : معجم الادباء طبقات ابن سعد ، حلية الاولياء ، تهذيب التهذيب ، ميزان الاعتدال تذكرة الحفاظ . واقوال متناثرة في كتب التفسير مثل تفسير الطبري ، وكتب الادب مثل : عيون الاخبار ، والمعارف ، لابن قتيبة .

الاوائل وقيام الدنيا واحوال الانبياء وسير الملوك)(٣١) ومن الواضح انه ثمة مبالغة في علم وهب ومعرفته التي جاءت عن طريق اتصاله بمجتمع اليهود والنصارى في اليمن وتغطي اقواله ـ التي كثيرا ما تتفق مع تراث هذا المجتمع ـ ميادين قصص الانبياء والعباد واحاديث بني اسرائيل وانتقلت عن طريق مؤلفاته وتلاميذه ، وبصفة خاصة حفيده عبد المنعم ابن ادريس ويقول ياقوت الحموي في (معجم البلدان) ان وهبا كان كثير النقل من الكتب القديمة المعروفة بالاسرائيليات ، ومن الثابتاعتماده على المصادر اليهودية كما يتضح من اقتباسات ابن قتيبة والطبري والمسعودي عنه .

والى جانب نقول تلاميذه عنه ترك وهب بن منبه بعض الآثار التي تدل على منحى فكره واتجاهه من ذلك ، مثلا ، كتابه المعروف باسم (المبتدأ) او (مبتدأ الخلق) وهو صورة مشوهة عن قصة الخلق كما جاءت في سفر التكوين من التوراة ، وكتاب (السير) وهو يتعلق بترجمة الانبياء والعباد وينسب اليه حاجي خليفة كتابا باسم (الاسرائيليات) ولعله لم يكن اسمه بل مجرد نعت لمحتوى الكتاب ، وكتابا آخر عن (المغازي) اي حروب النبي (ص) ، وكتابا عن (الفتوحات) .

ويذكر انه ترك مؤلفا باسم (الحكمة) ومن المرجح انه مجموعة اقوال وحكم نقلها عن المصادر اليهودية ، ويذكر محمد بن خير في (فهرسته) انه وهبا ترجم (زبور داود) الى العربية ، ومن اعرف الكتب التي تنسب اليه ما نقله عنه ابن هشام باسم (الكتاب التيجان في ملوك حمير واليمن) .

هذا التراث الذي حققه وهب ، والذي وصلنا بعضه واندثر بعضه الآخر ، يدل دون شك على نشاط هائل ، وهو (امر ابعد صيته واعظم

(٣١) راجع (الموسوعة الاسلامية) وابن خلطان في ترجمته لوهب .

قدرة) كما يعبر ابن خلدون(٣١) ومن هذا الصيت البعيد ذاته جاء الخطر على الفكر الاسلامي فيما تأثر به بعض مشاهير الكتاب المسلمين ونقلوه ، دون تحرز كبير ، عن وهب وتلاميذه ، ثم عمت هذه النقول وغطت على كثير من صفاء هذا الفكر ، وشحنته بالخرافات والسخافات التي لا يقبلها عقل ولا منطق ، وطم سيلها في فترات الركود والجمود ، بل لعلها كانت سببا من أسباب التخلف الثقافي بما تحويه من صرف للفكر عن النظر العقلي السليم وبما اغرقت به اذهان المسلمين من غيبيات واساطير ، ومن المؤسف ان تظهر اسرائيليات وهب ، وكعب من قبله ، اكثر ما تظهر في تفاسير القرآن الكريم مثل تفاسير ابن جرير الطبري ، وابن الليث السمرقندي ، وابي محمد البغوي ، وابي جعفر النحاس ، وغيرهم كثير مما يصعب حصره هنا(٣٢) ، والقرآن هو اساس وركيزة وجوده ، عقيدة وشريعة وخلقا وسلوكا ، فاذا فسر على غير ما انزل من اجله وادخلت في تفسيره الخرافات انهد بنيان الوجود الاسلامي بكامله وانقض نسيجه وانهار فكره وعمته الجهالة والسخافة وانحط اهله واندثر اثره ، ومن هنا كان خطر (اسرائيليات) وهب وكعب ، ومن اتبعوهما جهلا وعماية .

غير أن اثر وهب لم يقتصر على تفسير القرآن وحده تفسيرا توراتيا مشوها كما هو واضح ، بل امتد الى كتب السير والترجمات ، ومن أهمها على الاطلاق سيرة النبي (ص) ؛ وبخاصة مقدمات البعثة فابن هشام مثلا يحشو سيرته باسرائيليات وهب وهو يتبعه في التاريخ التوراتي تماما في حديثه عن التاريخ القديم في الاسماء والشخصيات ، بل يصل به الامر الى تقديم الصيغ العبرية للاسماء وابن هشام في هذا متاثر بابن اسحاق

---

(٣٢) مقدمة ابن خلدون المطبعة الادبية ، بيروت ١٩٠٠ م ، ص ٤٣٩ .

(٣٣) راجع لمزيد من التفصيل : مناهل العرفان ، ص ٤٩٦ وما بعدها .

الذي اخذ روايته عن وهب(٢٤) ونقل الطبري مانقله ابن هشام عن ابن اسحاق عن وهب ، وعن الطبري نقل بقية المفسرين بالمأثور ماحشوا به تفاسيرهم من خرافات ، وعن هؤلاء المفسرين اخذ كاتبو السير وقصص الانبياء واخبار الصالحين والاولياء وملأوا مؤلفاتهم بحكايات عباد بني اسرائيل واساطيرهم المختلفة حتى باتت صورة من صور الفكر الاسلامي الشوهاء .

موقف النقد الاسلامي من الاسرائيليات :

اذا كانمن الصواب القول بأن كعب الاحبار ووهب بن منبه واضرابهما من اليهود الذين (اعلنوا) اسلامهم ، كعبد الله بن سلام مثلا ، مسؤولين عن تيار التفسير الخرافي للقرآن وعن الانحراف في فهم وشرح النصوص القرآنية بخليط هائل من القصص والاساطير ، فان من الحق القول ايضا بان هذا المنحى كان منظورا اليه بنظرة الريبة والشك عند كثير من علماء الاسلام المحققين ، ودعا الكثيرون قديما وحديثا ، الى اتخاذ جانب الحيطة في هذا الامر ادراكا منهم لانحرافه وعدم سداده ومنافاته لروح القرآن .

شعر اذن نفر من مفكري الاسلام بخطر التيار الخرافيالعارم الذي بداه كعب الاحبار ووهب بن منبه بالنسبة لتفسير القرآن ، واتخذه منهجا

---

(٢٤) ابن النديم ، الفهرست المكتبة التجارية القاهرة (بدون تاريخ) ص ١٣٦ ، ويحمل ابن النديم على ابن اسحاق بشدة ويتهمه في خلقه وامانته العلمية : ويقال كان يعمل له الاشعار ويؤتر بها ويسال ان يدخلها في كتابه في (السيرة) فيفعل . فضمن كتابه من الاشعار ما صار به فضيحة عن رداءة الشعر ، واخطا في النسب الذي اورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه (اهل العلم الاول) . واصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه ... وله من الكتب (كتاب الخلفاء) رواه عنه الاموي ، وكتاب السيرة (والمبتدأ) و (المغازي) .
ولعل الكتابين الاخيرين لوهب بن منبه ، اضافة الى ما نقله عنه في (السيرة) .

كثير من المفسرين بدءا بابن عباس ومن جاء بعده ، واحسوا بسيطرة (الاسرائيليات) في فهم اي القرآن حتى عمت النظر الخرافية المفننة واساطير ليست مقتبسة فقط من آثار اهل الكتاب بل هي مشوهة محرفة بل موضوعة مكذوبة مزيد فيها ، فقد سلك اقوام مسلك تتبع القصص وزادوا في قصص القرآن ماشاؤا من كتب التاريخ والاسرائيليات ،واخذوا جميع ما سمعوه عن اهل الكتاب من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل ، كما يقول رشيد رضا(٢٥) وهذا مادفع الكثيرين الى اتخاذ موقف نقدي شديد تجاه هذا النمط من التفسير المعروف بالتفسير بالمأثور .

وقد حلل ابن خلدون هذه الظاهرة تحليلا جيدا في(مقدمته)واشار الى اسبابها وتطورها ،(فهو يذكر ، عند حديثه عن تفسير القرآن ، انه نزل بلغة العرب وعلى اساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه ، وكان النبي (ص) يبين المجمل ويميز الناسخ والمنسوخ ويعرفه اصحابه ، فعرفوه ، وتداول ذلك التابعون ومن بعدهم ، ونقل عنهم في الصدر الاول والسلف ، حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب (فكتب الكثير من ذلك ونقلت الاثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين، وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي والثعالبي وامثالهم من المفسرين)(٢٦) ثم صارت علوم اللسان صناعية ، فوضعت الدواوين في ذلك بعد ان كانت ملكات للعرب ، فاحتيج الى تفسير القرآن ، وصار التفسير على صنفين تفسير نقلي مسند الى الاثار المنقولة عن السلف ، وتفسير لغوي .

ويمضي ابن خلدون في حديثه عن (التفسير النقلي) او (التفسير بالمأثور) بلغة نقدية جلية :

---

(٢٥) تفسير القرآن الكريم ، ج ١ ، ص ١٨ ؛

(٢٦) المقدمة ، ص ٤٢٨ – ٤٢٩ .

(وقد جمع المتقدمون في ذلك واوعوا . الا ان كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود ، **والسبب** في ذلك ان العرب لم يكونوا اهل كتاب ولا علم ، وانما غلبت عليهم البداوة والامية ، واذا تشوقوا الى معرفة بشيء مما تتشوق اليه النفوس البشرية في **اسباب المكونات وبدء الخليقة وابراز الوجود** فانما يسألون عنه اهل الكتاب قبلهم ويستفيدونه منهم ، وهم **اهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى**)(٣٧) .

المصيبة هنا (أهل الكتاب) هؤلاء لم يكونوا في واقع الامر يعرفون من الكتاب شيئا كثيرا ، او بحسب كلمات ابن خلدون نفسه : **واهل التوراة** الذين بين العرب يومئذ **بادية** مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ماتعرفه **العامة** من اهل الكتاب) .

ثم يحدد : (ومعظمهم من حمير (اي من اليمن) الذين اخذوا بدين اليهودية فلما **اسلموا بقوا على ماكان عندهم** ... وهؤلاء مثل **كعب الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام** . فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم ... وملأوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، واصلها كما قلنا عن اهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ماينقلونه من ذلك . الا انه بعد صيتهم وعظمت اقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والملة فتلقيت بالقبول من يومئذ)(٣٨) .

واضح اذن ان اخذ العرب عن أهل الكتاب جاء نتيجة التطلع الى المعرفة ولكن هؤلاء لم يكونوا على علم بالكتاب ، كما يرى ابن خلدون ، مما ادى الى التحريف والتشويه والخلط والتشويش في منقولاتهم . وهذا ما دفع رجلا مثل ابن قتيبة للاشارة الى تعارض روايات وهب بن منبه وما ورد في سفر (التكوين)(٣٩) ودفع رجل اخر من اهل المغرب ،

---

(٣٧) المصدر نفسه .

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٤٤٠ .

(٣٩) ترجع صور هذا التعارض في منقولات وهب الى الصياغة المبكرة لمن نقلوا عنه الاسلوب من القصاصين او الى ان وهبا نفسه اعدها اعدادا خاصا لتلائم ذوق العامة وليس الى قلة العلم ، راجع مادة : وهب بن منبه في (الموسوعة الاسلامية) .

هو ابو محمد بن عطية ، لما رجع الناس الى التحقيق والتمحيص الى ان يلخص تلك التفاسير كلها ، ويتحرى ما هو اقرب الى الصحة منهـا ، ويضع في ذلك كتابا كان متداولا بين اهل المغرب والاندلس . ثم تبعـه القرطبي في تلك الطريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق(٤٠).

اما الحافظ ابن كثير فقد راى ان (التفسير بالمأثور سرى الى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة اهل الكتاب) وحدده بأن (جل ذلك في قصص الرسل مع اقوامهم وما يتعلق بمعجزاتهم . وفي تاريخ غـيرهم كاصحاب الكهف ومدينة ارم ذات العماد وسحر بابل وعوج بين عنـق ، وفي امور الغيب من اشراط الساعة وقيامتها وما يكون فيها وبعد . وجل ذلك خرافات ومفتريات صدقهم فيها حتى بعض الصحابة)(٤١) .

وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية الى ان الاختلاف في التفسير علـى نوعين : ما مستنده النقل فقط ، ومنه ما يعلم بغير ذلك . والمنقول ، اما عن المعصوم (ص) أو غيره ، ومنه ما يمكن معرفة الصحيح منه مـن غيره ، ومنه ما لا يمكن ذلك . وهذا القسم الاخير بما فيه مما لافائدة فيه ولا حاجة بنا الى معرفته ، ذلك كاختلافهم في لون كلب اصحاب الكهف واسمه ، وفي البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة وفي قـدر سفينة نوح وخشبها ، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر ونحو ذلك ، ويضيف ابن تيمية ، فهذه امور طريقة العلم بها النقل فما كان منقـولا نقلا صحيحا عن النبي (ص) قبل ، وما لا بأن نقل عن اهل الكتاب ككعب الاحبار ووهب وقف عن تكذيبه وتصديقه لقوله (ص) : (حدثكم اهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم)(٤٢) .

---

(٤٠) المقدمة ، ص ٤٤٠ .

(٤١) تفسير القرآن الكريم ، ص ١ ص ٨ مناهل العرفان .

(٤٢) المصدر السابق ، ويفسر رشيد رضا هذا الحديث : لا تصدقوهم ، اذ قد يكون تحريفا في الاصل أو نقلا مشوها ، ولا تكذبوهم ، اذ قد يكون صحيحا فهم (اعطوا نصيبا من الكتاب) .

وابن تيمية هنا يتبع منهج الامام ابن حنبل الذي بلغ به الضيق من التفسير بالمأثور فيما جد انكاره جملة وتفصيلا فقال كلمته : (ثلاثة ليس لها اصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازي) وهو بهذا يخرج هذه الثلاثة من دائرة المعارف والعلوم لتزيد المفسرين وخرافاتهم ، ولانها قابلة جدا للوضع والافتراء واختلاق القصص الغريبة جلبا للانتباه واثارة للاهتمام ، مما ادى بالتالي الى تراكم اعداد مهولة من المؤلفات في هذا الباب لا تتفق مع النظرة العلمية الصحيحة .

ويعلق رشيد رضا على موقف ابن تمية بقوله :

(فانت ترى ان هذا الامام المحقق جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف انه من رواة الاسرائيليات ، وهذا في غير ما يقوم الدليل على بطلان في نفسه وصرح في هذا المقام بروايات كعب ووهب بن منبه ، مع ان قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما ، فكيف لو تبين له ما تبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما الى التوراة ما ليس فيها شيء منه ولا حومت حوله ؟)(٤٣) .

ثم يستشهد رشيد رضا بقوله استاذه الامام محمد عبده : (لقد قلت لكم غير مرة انه يجب الاحتراس من قصص بني اسرائيل وغيرهم من الانبياء وعدم الثقة بما زاد عن القرآن الكريم من اقوال المؤرخين والمفسرين)(٤٤) .

هذه اشارة خاطفة الى بعض مواقف النقد من التفسير بالمأثور ــ واغلبه حشي بالاسرائيليات ، ولكن الواقع ان هذا النمط من التفسير هو الذي غلب وسيطر قرونا طويلة من الزمان ، ومن المزعج فعلا ان نراه غلب ايضا في النهضة الاسلامية الحديثة باعادة طبع نماذجه وترويجها ــ ولا تحتمل طبيعة هذه المقالة الموجزة مزيدا من التوسع والتفصيل ولعل مناسبة اخرى تسنح للتوسع فيه .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ١٤٧ .
(٤٤) المصدر ذاته .

خاتمة :

من الصفحات السابقة تبرز بعض الملاحظات التي تثير في الذهن جملة أسئلة :

١ ــ ظهر ما اصطلحنا على تسميته بالغزو الفكري منذ البداية الاولى للاسلام ، واتخذ اشكالا مختلفة ولكنها تصب في مجرى واحد .

٢ ــ أبرز هذه الاشكال كان متسترا بالاسلام نفسه ــ اي بعملية تسرب وتغلغل من الباطن باعلان الاسلام والعمل ضده .

٣ ــ من الغريب فعلا ان نماذج هذا الغزو جاء اغلبها ــ او اظهرها ــ من منطقة واحدة ، من اليمن . أو حسب تعبير ابن خلدون (كانو ا كلهم من حمير) هل الامر كان مجرد (صدفة) ؟

٤ ــ نلحظ ان هذه النماذج (الثقافية) كانت ذات اهداف سياسية . وهنا نجد امتزاج الثقافة بالسياسة والعكس .

٥ ــ ساعدت طبيعة التسامح العربية الاسلامية في تيسير تغلغل هذه النماذج في المجتمع واحتلال مكانتها فيه .

٦ ــ كانت اداة فظيعة من أدوات تمزيق وحدة الصف في المجتمع الاسلامي ، والقت بمقالاتها بين جوانب الصراع لتزيد الخلاف حدة .

ان مقارنة بسيطة جدا بين ادوار اليهود في الصدر الاول للاسلام وادوارهم في العصر الحديث تظهر بجلاء حين ننظر الى (المستشرقين) ــ واغلبهم من اليهود ــ في القرن التاسع عشر وبداية هذا القرن نظرة نقدية ونطلع على (جهودهم) في مجال الدراسات الاسلامية في الغرب ، وان نظرة خاطفة الى اسماء عدد من كبار مثقفي وقتنا الحاضر المهتمة بالدراسات العربية والاسلامية،لتبين ان المهمة هي هي لم تتغير وان ما قام به كعب ووهب وابن سبأ قام ويقوم به مارغليوث وبرنارد لويس ومكسيم رودنسون وعشرات الاسماء الاخرى .

لكن هذا موضوع آخر طويل جدا ، والغاية ان ننظر الى الماضي في ضوء الحاضر وان نرى الحاضر بنور الماضي ، فان الادوار لم تتغير .

الم يحن الوقت لكي نتغير نحن ؟

مراجع :

١ ـ ابن حزم ، محمد ، الفصل في الملل والنحل ، طبعة قاسم الرجب، بغداد ، بدون تاريخ .

٢ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، المطبعةالادبية، بيروت ١٩٠٠م.

٣ ـ ابن خلكان ، شمس الدين ، وفيات الاعيان ، القاهرة ١٩١٠ م .

٤ ـ ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، دار صادر ، بيروت .

٥ ـ ابن قتيبة ، عبد الله ، كتاب المعارف تحقيق د. ثروت عكاشة ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٦ ـ ابن النديم ، محمد ابن اسحاق ، الفهرست ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٧ ـ الاشعري ، محمد بن ابي بكر ، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان ، تحقيق د. محمد يوسف زايد بيروت ١٩٦٤ م .

٨ ـ حسين، د. طه،الفتنة الكبرى، دار الكتاب اللبناني بيروت١٩٧٣م.

٩ ـ رضا ، رشيد ، تفسير القرآن الكريم (تفسير المنار) ، مطبعة المنار ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

١٠ ـ الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٠ م .

١١ ـ الشهرستاني ، محمد عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق محمد ابن فتح الله بدران ، مطبعة الازهر ، القاهرة ١٩٥٤ م .

١٢ ـ شمتز ، م ، مادة (كعب الاحبار في الموسوعة الاسلامية) النسخة الانكليزية .

٣١ ـ هورفتس ، ج ، مادة (وهب بن منبه) في (الموسوعة الاسلامية).

١٤ ـ هوتسما ،م،ث ، مادة (عبد الله بن سبأ) في (الموسوعة الاسلامية).

١٥ ـ هودغسون ، م . ج . س ، مادة (عبد الله بن سبأ) في (الموسوعة الاسلامية) ،(الطبعة الجديدة) .

الأزرق والأحمر

شعر : محمّد عمران

نبّهتُ ، من إغفائه ، الأزرق
يالونَ صوتِ حبيبتي
كبرُ النهارُ وأنتَ في حلمٍ من الفستقْ
كبرُ انتظارُ قصيدتي
عتّقتُ في شفتيَّ خابيةً ، فقمْ نسكرْ
طفلي يفيقُ على منابته ، فقمْ نسكرْ
الأزرقُ المخجولُ قامَ ، مشى على ثِقَلٍ ،

ترنّحَ ، وارتمى
في حضرة الأحمرْ

والأزرقُ المقتولُ أرخى حلمه ،
وتوسّد الأحمرْ

أمسكتُ خابيتي على شفتي
وهتفتُ بالألوانْ :
ياسيدي الأخضرْ
ياسيدي الأصفرْ
ياسيدي . . ال . . . يا . . .
ماتت الألوانْ

وعلى المنابتِ ، حيث طفلي ، عرّش الأحمرْ

أنا لي طفلٌ من الريحان في هذا اليباسْ
أنا ، في اليأسِ ، أتيتُ امرأتي ،
أنجبتُ طفلاً من رياحينَ ،
وفي اليأس ندهتُ الأزرق الصعبَ ،
وفي الأزرق أججّتُ مرايا الحلمِ ،
في الحلمِ نما أفقٌ من الطفلِ ،
وفي الأفقِ نمتْ أجنحةٌ زرقٌ ،

وفي الأجنحة الزرق نما اللهُ ،
وفي الله نما الحبُ ،
أنا ، في الحبِ أنجبتُ ، ولي الوقتُ ،
ولي ما يُنسلُ الوقتُ ،
ولي الريحانُ في هذا اليبأسْ

« الوقتُ لي »
همسَ البنفسجُ والغمامُ ،
استيقظتْ شفتان من كرزٍ ، وأومأتا :
لنا الوقتُ
استفاق على المدى عنبٌ ونهرُ قصائد ، وأشارَ :
لي الوقتُ

ومشتْ فراشاتٌ وأطفالٌ إلى فرح المدارس ،
سرّحتْ لغةٌ جدائلهَا لأعياد الأغاني
ومشتْ من الزرع السنابلُ باتجاهِ القمحِ ،
ثم مشى الغمامُ إلى المطرْ
ومشى إلى الثمرِ الشجرْ
ومشى إلى الضوء القمرْ
وإلى العناق العاشقان

. . . فجأةً ، ينفجرُ الأحمرُ ، يغشى معطفُ النارِ المدنْ
ويطوف الموتُ في الساحات والأعياد ، هذي شفةٌ ،
هذي ذراعٌ ، هذه جمجمةٌ ، ساقٌ ، بقايا رئةٍ ،
هذي شظايا جسدٍ كانَ ، هنا دفترُ طفلٍ رسم البحرَ ،
هناك القلمُ الأزرقُ والممحاةُ والوردةُ ، تلك
الخصلةُ الشقــراءُ ، ، ذاك الــــدمُ . . .

. . . الأحمرُ يندلحُ على صـــدرِ الـــوطنْ

أمسكتُ ما ترك الدخانُ من الهواء الطفلِ في رئتي
أمسكتُ ما تركت خيولُ الموت من جسدي
ووقفتُ في الأنقاضِ ،

ما بين الحرائق والرمادْ

وصرختُ : يا ولدي

يازهرة الفرح النحيلِ على فم الدفْلى ، على شفتي
يا عيدَ عيدِ الخبز في الآتي من السّغبِ
يا حبةَ التوتِ الشهيُّ ، وحبةَ العنبِ
ومؤونتي لشتائيَ الأقسى ، ويا قمري
لليلِ العتّمِ ،

يا ولدي

أهديتُ عرسكَ حقديَ القبليَّ ،

إرثَ مجازري

أهديتُكَ الموتَ الذي صاغته من حجر الدماء

أظافري

فاهربْ ، إذن ، منّي

إهربْ ، أو انكرْني

مُمسكاً ما تبقّى

مُمسكاً آخرَ الحلمِ آخرَ خيطٍ من الأزرقِ المتلاشي ، أَلِفُ على إصبعي خيطَ ظلٍ أليفٍ ، وأغزلُ عينين للشعرِ ، ثديين للعشبِ ، حنجرةً للهواء ، وصوتاً لقبرةٍ تتنزهُ في الفجرِ . . . أغزلُ أعيادَ حلوى ، وفاكهةً ، وسماءً مُطرزةً ، ومناديلَ من شجرٍ وعصافيرَ زرقاءَ . . .

— — — ثم أناديكَ : يا ولدي ،

ياحبيبي

تقدَّمْ إلى عرسكَ الحلوِ . . .

. . . ينفجرُ الأحمرُ الأخويُّ ،

يُمزّقُ آخرَ خيطٍ من الأزرق المتلاشي ،
ويسّاقطُ الظلُ أشلاءَ ،
ألمحُ وجدك في جثة الظلِ طفلاً من الدَمِ ،
أكسرُ وجهَ المرايا
ليهربَ وجهُكَ ،
ألمحُه في الشظايا

فأهربُ ، إذن ، مني
إهربْ ، أو انكرْني

عزف على أوتار الزمن الغافل

قصة : سلوى الخير

تكوّموا في المحطة كالقطعان ... آباء شاحبو الوجوه ، وصبية ، وأمهات مرضعات جف اللبن في أثدائهن .. ثغاء الاطفال المتداخل النبرات يملأ ارجاء المحطة بايقاع حاد وحزين .. ومرارة الانتظار المشوب بالقهر قناع يغلف الوجوه جميعا ، النظرات الزائغة تنكفىء من الخارج اليابس الى الداخل المكبوح بألف لجام ، تزجرها الحسرة والخوف من المجهول، والماضي شريط يدور في ذاكرة الجميع . يلونه كل بالوانه المأسوية الخاصة .

لم يحدث هذا في تاريخ الجزيرة المعروف ... بضع سنين والسماء تحبس أمطارها ،والقحط كالسوس ينخر من حوله كل شيء .. جفت الزروع والضروع ،والينابيع والآبار ، هبط منسوب النهر ، ونفدت كل المؤن ... صرخات الناس واستغاثاتهم ذهبت سدى ، لم يهبّ لنجدتهم احد ، ولم يأبه بأصواتهم أحد ، ولم يشر اليهم حتى المذياع ... زعم رجل ليس بذي شأن انه سمع في اذاعة لا تبث الا ليلا اشارة الى قحط الجزيرة ولكن أحداً لم يصدقه ، اذ لم يسمع ذلك احد من ذوي الشأن ، كما أن هيئة دولية لم تعرْ اهتماما للامر ولم تقدم اية معونة ، أو عروض للانقاذ .

ــ لم يعد من الهجرة بد ، فالهلاك المحتوم مصير كل من يبقى ، ولقد تكشفت كل البروق الخلبية الخداعة ، في كل مرة كانت تغيم الدنيا ، وتتلبد السماء بالسحاب الرمادي الداكن ، متظاهرة بالعاصفة ثم ما تلبث أن تنقشع كالفبش دون ان تترك وراءها قطرة واحدة .

ــ في البدء كان الانسان .. ثم كان القحط .. والساح خِلْو من الدخلاء والمتآمرين .. نزاهة النزال ميدان للفروسية الحقة ، والساح مكشوف للشمس والافق والصحراء .. فارس لفارس .. وجها لوجه لا غدر ولا طعنات من الخلف . وانتصر الانسان واجهَ .. ناورَ .. هاجرَ .. لكنه انتصر وعاد . والقحط يسحب ذيوله ويتقلص ، والانسان يحاصره في اصقاع ضيقة وموحشة من هذا الكون الفسيح .. لكنه اليوم ، يعود من جديد ،يتسلل في غفلة من الزمن الاغبر ، من خلف الابواب .. منخلفالظهور كالانذال .. لم يعد للمبارزة شرف النزال الاول .. فالغدر والحنكة والتعتيم والخداع والمراوغة وامور اخرى غير معروفة تدخل الساحة ، تجرد الانسان من اسلحته ، ثم تقتاله بطعنة في الظهر الأعزل .

ليس من الهجرة بد .. وعما قريب يتحرك القطار . جمعوا اطفالهم وأبسط الحوائج وقرروا المغادرة . مسيرة يوم واحد ويجتازون صحراء

الظمأ والصهد الى السواحل العامرة بالخير والماء والثمرات يوم واحد .. نهار وليل فقط في هذا القطار السريع ويكونون على الشواطىء الخضر .. بالامس كان الاسلاف يهاجرون على الاقـدام ، أو على ظهور الابـل . واليوم نهاجر على متن الآلة ابنة التقدم العملاق . نهاجر هربا من القحط .... مقدسة ابنتها الآلة ، توفرين لنا سرعة الفرار من همجية القحط .. لكن المسافة بعيدة ...والدرب صحراوية قاسية ، نهـار صيفي قائظ طويل .. ثم ليل كامل داخل هذه الصفحات الحديدية المغلقة . صحيح هناك محطات استراحة ، لكنها استراحات ضيقة ومعزولة وصحراوية لا تقنع النفوس الظماء ... على اية حال الرحلة مفروضة ، والخيـار بين الهلاك والمخاطرة ، محاولة المكتوف الملقى في الماء أن يتجنب البلل .

الدرب تمتد ... والقطـار ينهب الارض نهبـا . وجوه الرجال الشـاردين وهم يتأملون الرمال والشجيرات الصغيرة الشاحبة عبر النوافذ. وجوم تتخلله تمتمات النسوة ، أو أصوات بعض الاطفال .. أعين حسيرة تلتفت الى الخلف واجفة مذعورة ، ثم ما أن تتوارى الديار حتى تتلفت القلوب برجفة بين الاضلع المنقبضة ... عالم شيدناه بايدينا ، ونعمنا في ظلاله . رسمنا فيه ملامح أحلامنا .. وغدنا .. ومستقبل أطفالنا . وها نحن نغادره مكرهين الى حيث لا نعلم ما ينتظرنـا من أذى أو مكروه .. أهو ضلال الزمن أم عسف المقادير ؟ ! ونحن ما دورنا في ذلك ؟ نحن اناسه البسطاء الطيبين ، ضنت علينـا السماء بالامطـار فداهمنا القحط .. تحملناه سنة وراء سنة .. سنوات طويلة عجفاء .. هلك من هلك من ابنائنا جوعا او ضيقا أو كمدا فهل من يلوم اذا نحن بحثنا عن خلاصنا عبر هذا المتاه الواسع الذي يسمونه الوطن .

القطار يلهث باعياء .. والمسافات الصحراويـة تتوارى وتنسحب صفراء شاحبة مقفرة ، شجيرات قزمية تلوح ثم تختفي ، والاستراحة الاولى تقترب . صوت المكبر يجلجل في القطار ... استعدوا للنزول... ربع ساعة استراحة .. يتاهب الناس .. تلملم الامهات ابناءها تتدافع

الاكتاف والاقدام والاكف . صرخت امرأة بالم ... حذاء عسكري ضخم سحق قدمها .. تجمعت احذية عسكرية كثيرة ، وقبعات ، وبذلات ، لم يدر احد من اين جاءت بهذه الكثرة ، ملأت المحطة ، صبغتها باللون الزيتي المعروف ، حاصرت الناس بعيونها الثاقبةالنفاذة ،بسرعةوتوجس نزل الناس ، بسرعة وتوجس صعدوا ، صوت المكبر يعلن قرب الانطلاق، الجميع يتدافعون لاحتلال اماكنهم يتحرك القطار ... اعولت امرأة .. ابني .. ابني .. كانت قد فقدت واحدا من اطفالها .

رجل ١ : مستحيل .. لقد كنت آخر من صعد ، ولم يبق على المحطة احد ابـدا .

رجل ٢ : ابنك لم ينزل يا سيدتي ابحثي عنه جيدا في القطار .

عسكري : ربما لم تصطحبيه معك اصلا .

الام المفجوعة تبكي ، وتشهق تشنج .. الطفل يهدىء من روعها واعدا بأنه سينزل في المحطة القادمة ، ويعود للبحث عنه .

ومن النوافذ .. كانت الصحراء تلوح فاغرة اشداقها لتبتلع الى جوفها السحيق كل شيء .

ـ منذ الازل والناس قسمان ، قاتل ومقتول ، ثاكل ومتفرج وويل لبعضها من الآخر ... منذ ان قتل قابيل هابيل ، ثم دفنه واستراح، نفوس كثيرة زهقت ، بعضها لسبب مفهوم ، وبعضهـا لاسباب غـير مفهومة ، وبعض لغير ما سبب على الاطلاق ... كان الانسان . وكان القحط يناجزه والخوف ، والجوع ، والويلات ، واتسعت الدنيا ، تعقدت توحشت كتنين بمئة راس فاغرة الاشداق ، وما زال الانسان يواجه القحط ، والجوع والخوف والويلات ... يقيم ، يهاجر ، طائعا او مختارا ، يفر من خوف الى خوف ، ومن ويل الى ويل ، ينبح ... ثم ينتفض من خلال دمائه ليثار من قاتليه . ونحن ـ ابناء هذه الجزيرة ـ

وُلدنا فيها وعشنا وعاش آباؤنا منذ الف عام .. مليون عام .. زرعوها وعمروها ، وشيدوا فيها المعابد ، والاضرحة التي احتوت اجدائهم ، لم نفكر في يوم اننا سنغادرها .. لم نفكر .. تعاقب علينا الاغريق والرومان والمغول والاتراك والاوروبيون ، وبقينا عليها .. ثم كان القحط . صبرنا على القتل . على الموت ، على الذبح ، ولم نصبر على الجوع . القحط مرعب ، ومغادرة الاوطان عار ، لكن الجوع كافر ، والصحراء لا تطرح غير الظما والقيظ ، والشواطىء القناء قريبة ، مسافة يوم وليلة .. هي ابيضا وطن .. كل مكان يدرأ عنك الجوع ويمنحك الامن وطن .. لا ليس هذا تماما .. لكنه نزوح اضطرار ، حشرجة الروح في الرمق الاخير بعد ان تجاوزت كل حدود الاحتمال .

المسافات الشاسعة تتقذف الى الوراء ، تبتعد خلف الظهور ، تدخل ارض الذكريات المضمخة بالحنين واللوعة ، والوقت يتدافع نحو الليل ، الغبش الداكن يتسلل من خلف النوافذ ، ينفض العتم والوحشة .. هدير القطار يتباطأ بصوت أجش ، يقترب من احدى المحطات ... يجلجل مكبر الصوت بينما القطار يترنح للوقوف ..

ــ استراحة دار البيضا ... نزول ربع ساعة .. ربع ساعة فقط .

تهب الاجساد المنهكة ، تنهض ، تحرك اعضاءها المسمرة .. اقدام تيبست كالخشب بفعل الجلوس ، واكتاف تعاني شيئا كالوخز ، يهبط الناس قطعانا قطعانا ، يأكلون ما تيسر ، يشرب بعضهم العصير والمياه الغازية ، في الاعين قلق غامض ، ووجوم ، ينتهي وقت الاستراحة ، يصعد الناس من جديد ، ينضم اليهم بعض الغرباء من المحطة ، يصعدون بحذر بالغ ، يجلس كل في مكانه ، يتفقدون اطفالهم يصرخ رجل وهو يعد ابناءه وقد اتسعت حدقتاه على مداها :

ــ ومنال اين منال ؟ !

بعد كل ابناءه مرة ومرة .. يبحثون عن منال . لا يجدونه . ينزل الاب المذهول الى المحطة من جديد ، يهتف ، ينادي ، يبحث لا يجد شيئا يضرب كفا بكف ، يمسك دموعه أن تطفر من شدة القهر ، يوصي ابنه الاكبر ان يهتم باخوته ويقرر هو البقاء للبحث عن منال واللحاق بهم من جديد ..

« رحلة منكودة الطالع .. وليس للدنيا من امان .. من لم يمت بفعل الجـوع مات بغيره . بخنجر مسموم في الظهـر او برصاصة طائشة مجنونة ، او ربما فُقِدَ في ساحة عامة ، او في محطة القطار ... في البدء كان الانسان ، وكانت الطبيعة المقفرة ، والكون الجامح ، المفلت من لجام الزمن ، آنسه الانسان ، روّضه كما يروض سائس محنك مهرا جموحا ، قيده بسلاسل الزمن واخضعه لمشيئته .. الانسان فنان ، تحول الكون على يديه الى لوحات بديعة متقنة الصنع ، مدائن ، وحدائق وبساتين ، لكنه كان يجمح احيانا ، تعتريه لحظات جنون ، فيقذف الانسان بالحمم والبراكين ، او يدكه بالزلازل ، وحين يشتبد به الغيظ يجرد له سيوف القحط تفتك به ، تجتث مقدرته على الصبر ، تنتزعه من جذوره ، وتقذف به في المتاه ، فتخلخل كيانه وتماسكه ، ترجعه الى عهد البربرية الاول ليعيد سيرته من جديد .. والبربرية استعداد فطري يطويه الانسان بين خفايا نفسه .. ثمة خلف إهاب متمدن ، وراء قشور الحضارة والمدنية الخارجية يقبع وحش بربري مسعور احمر العينين مستعد للانقضاض والهجوم دون ان يفهم على من ؟ ولماذا ؟ قد يفتك بإخوته ، ربما ببنيه ، ويدمر ماصنعه بيديه ، وبعرقه وجهده .

بمنذ ان قتل قابيل هابيل وهذه الشهوة المجنونة ترقد في قرارة نسله المأفون .. نحن جميعا ابناء قابيل ، القاتل المأخوذ بالدم . هابيل الطيب لم يكن له نسل ، مات قبل ان ينجب ويمتع نفسه من طيبات الحياة ، واليوم ما زلنا نلقى مصيره كل يوم ، ودون ان نعرف الاسباب ، قابيل

قتل هابيل لسبب ، ونحن نقتتل في هذا الزمان الغافل بلا اسباب .. ايها الكون الهمجي الجامح الى غير قرار ، المنفلت من لجام الزمن ، اللاهث الى هوة الدمار والرعب ، كفاك جموحا ، وتبيّن مواقع اقدامك ، فرائصك العاتية قبل ان يفوت الأوان .

موحش موحش هو الليل ، نوافذ القطار سوداء وكأن ستائر كثيفة قد اسدلت عليها .. نام الاطفال ، وانكفأت اعناق الامهات ، وظل الرجال مسهّدين يحرقون السجائر والذكريات ، وينتظرون الفجر والوصول الى السواحل .. والقطار يغذّ السير لكن الظلام كثيف ودامس ، وهذا الليل اكثر من كل الليالي ممعن في الحلكة ولا تلوح فيه نجوم اللهم الا ومضات بعيدة خافتة تلوح وتغيب ، ولا يكاد يتبينها المسافر المغبون . لئن كانت ليلة شيخ المعرة عروسا من الزنج عليها قلائد من جمان(*) ، فهذا الليل زنجي اسود ، مجنون بلا قلائد .. عملاق مدلج في دياجير الخوف الدامس ، مثقل بخطايا البشر والآثام الكبيرة السبع ، ونحن كالنمل ، كالحشرات نسعى على جثته ، نحمل القمح والطحالب من مكان الى مكان ويفترس بعضنا بعضا في سبيل قشة ، أو حبة حنطة ، ثم يأكلها ويزداد طمعا وجشعا .

رجل يخاطب رجلا في حلكة الليل الداكن :

ــ كم الساعة الآن ، ترى كم بقي من الوقت للفجر ؟ !

ــ لا ادري . لا احمل ساعة ، لكن يبدو ان الفجر ما زال بعيدا أو ما ترى كثافة الظلام ؟ !

(*) إشارة الى بيت المعري المعروف :

ليلتي هذه عروس من الزنج ... عليهـا قلائـد من جمـان

والقطار يغذ في السير ... تترنح رؤس النائمين ، الغالبية استسلمت للنوم ، الاطفال والنساء ومعظم الرجال ، لم يبق مسهدا الا الجنود والشعراء ، حرّاس هذا الزمن الاغبر ، او ربما لصوصه واناقوه. ناموا ولا تستيقظوا .. ما فاز الا النوم ، حكمتكم البليدة الضالة ، ايها المستسلمون للرقاد .. للموت الآخر ، لماذا نجزع من الموت ونهرب منه ، ونحن أكثر من موتى .. نسند رؤوسنا الى التكايا ، والمساند الجلدية، ونسلم اجفاننا للغياب .. نامي ايتها الجموع المضللة ، ايتها القطعان ، نامي حتى يمر هذا الكابوس ، نامي .. نامي ..

موحش هو الليل .. والرؤوس تتدلى نوما .. الرؤوس القليلة التي كانت صاحية تدخل ملكوت النوم ، واحدا تلو الآخر .. هاهم يفرقون يبحرون بعيدا في عالم الغيبوبة العذب ، والقطار يمضي خببا ، وانت وحدك مسهد الرأس والقلب والعينين، تحمل نارك الداخلية بين جوانحك، وترقب الفجر وحدك ، تسترق النظر من خصاص النوافذ تتقرى الشارات الضوئية الخافتة التي تلوح في الظلمة ، فلتشرب نخب هذه الليلة ... نخب الجموع السادرة والفجر المرتقب ، نخب الشواطىء السعيدة التي تقبع على الطرف الآخر للعالم ، ولتبحر في ملكوت وحدتك المتفردة في ضلال هذا الليل البهيم .

ايها العاشق الوحيد المسهّد الطرف .. ايها الحارس اليقظ ، الشاهد على جرائم هذا الزمن الغافل ومنكراته ، مبارك سُراك ، ومباركة يقظتك فما دام في هذا الكون رجل واحد مستيقظ فلن يتاح لكل قوى الشر مجتمعة ان تدرك مآربها .

القطار يمضي خببا .. وجذوتك تزداد توهجا في القلب ، تزدهر ، ترهف حواسك وجوارحك .. تتحول كل مسام جسدك الى حواس

مرهفة ، واحاسيس تحتوى كـل شيء ... النيام من حولك يغطون والصمت المطبق يلف كل شيء . فجأة تتناهى الى مسامعك حركة مريبة، بعيدة وخافتة في البدء ، لكنها تعلو وتقترب في النهاية تتبين انها في المقطورة المجاورة ، اصوات ارتطام ، وجذب وشد واشياء تجر وتسحب قسراً ، وصراخ حاد مخنوق كأنه صاعد من جوف بئر .. ماذا تفعل ؟! وانت وحدك ، والدنيا بعد منتصف الليل ، والناس من حولك نيام ، تتوجس تعتريك خيفة مبهمة ... تنظر من النافذة محاولا ابعاد قلقك ، تلمح عجبا ، شهبا كثيرة تتساقط رَجْما رَجْما ، وشارة ضوئية ساطعة اشبه بدائرة يخترقها سهم ضوئي، تتوضع هكذا فيعرض السماء ، وتزداد وضوحا وتألقا حتى انها تبدد نسبيا عتمة الظلام ... يداهمك فرح غامض خفي بينما الشارة تكبر وتتسع . تدق بكلتا يديك على جدران القطار المعدنية محاولا ايقاظ من حولك ، يتململون ثم يعودون الى النوم.. لم يحن الوقت بعد ! لم يحن الوقت بعد ! ! تقول في سرك وتطوي جناحيك على فرحتك الخفية ، « لكل شيء أجل وميقات » بينما الحركة في المقطورة المجاورة تجنح الى هدوء نسبي .

تصرّ العجلات المعدنية صرير حاقد متعب . اما آن ان ينتهي هـذا الشوط ؟ ! اعني هذا الليل البهيم ! ! لقد تعبت عظام النائمين المدلجين في غفلاتهم ،واشرفت الرحلة على النهاية ، وها هي تباشير الفجر تباغت قطعان الظلام ، وتشرع في تبديدها .

ـ دورة الزمن هي ، نهار يعقبه ليل ، وليل يعقبه نهار ، نلهث طوال الوقت ... يسلمنا النهار الى الليل .. ثم ننتظر ان يعقب الليل نهار . وها هي تباشير الفجر تلوح .. ولكن اي فجر ترى ؟ اهو الفجر الذي نرجوه وننتظره ام غبش خلبي كاذب ؟ آه لو كان حقيقيا ! ! كنت

اختصر الكون كله والعمر كله في لحظة واحدة اتنفس فيها ملء رئتي ثم اموت بلا حسرات ...

يستيقظ النائمون تباعا ، يفركون اعينهم ، ويحركون عضلاتهم التي لحق بها الخدر ، يلتفتون حولهم في شتى الاتجاهات ، ينظرون عبر النوافذ وفي اعينهم سؤال واحد :

ـ متى نصل ؟ !

الاشجار الباسقة والمروج الخضر على الجانبين تنبىء بقرب الوصول ولكن اي وصول ؟ ! لا يعرف احد ما ينتظره فالآتي رهينة الغيب واشياء كثيرة تجري ونحن نائمون ... لاحت في الافق مشارف البنيان وتكاثفت الاشجار والغابات والحقول والمروج .. اهي الشواطىء الموعودة ؟ ! بشرى ايها المسافرون ، طوبى لكم سلامة الوصول .

القطار يترنح في المحطة الاخيرة ، وصوت المكبر يهدر استعدوا جميعا للنزول ... هذا آخر المطاف ..

بلبلة صاخبة تجتاح الصفوف المتدافعة نحو الابواب ، صراخ وحشرجات ، وعويل ، وتساؤلات مفهومة وغير مفهومة :

ـ اين اخي ؟

ـ ابني ، ولدي ، حبيبي ! ! !

ـ اين ابي ؟ !

ـ امي .. امي ... امي ! !

تبين الجميع ان هناك كثيرين اصبحوا في عداد المفقودين ولا يدري

احد كيف ؟ ولماذا ؟ عسس° كثيرون يجتمعون في المحطة ، بعضهم نزل من القطار ، وبعضجاء من خارجه ، التقوا جميعا للتحقيق في الامر ، والبحث عن المفقودين .

الناس الثاكلون المفجوعون ينزلون من القطار الخالي بيأس مثنى وثلاث ورباع .. وعلى وجوههم دهشة ذاهلة مرعبة . بينما تفرّق الآخرون بددا ، يبحثون عن مأوى لهم ، ولحيرتهم لم يجدوا امامهم سوى الادغال والغابات .. كانت الشواطىء الخضر ما تزال بعيدة جدا .

القاهرة ــ ١٩٨٠

* * *

آفاق المعرفة :

إطار لخطة شاملة
تحقيقاً لوحدة ثقافية عربية مبدعة

أديب اللجمي

لاول مرة في تاريخ الثقافة العربية الحديث تقوم هيئة من رجال الثقافة والفكر العرب ، باجماع الدول العربية ، تتولى مهمة وضع خطة شاملة للثقافة العربية ، خطة تعنى بالمستقبل قدر عنايتها بالماضي والحاضر ، تستجلي اهداف الثقافة العربية ، وسائل نشرها ونموها ، في داخل الوطن العربي وخارجه .

هذه الهيئة هي نتاج لقاءات ومؤتمرات وندوات عديدة تمت خلال السنوات الستينات والسبعينات بين المثقفين العرب ، من خلال الاتحادات العربية للادباء والكتاب ، من خلال جامعة الدول العربية ، ثم من خلال المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

مختلف هذه اللقاءات كانت تنطلق من مسلمة ، هي ان الثقافة العربية ، وفي طليعتها اللغة العربية ، هما اول ما يجمع العرب ويوحد بينهم ، وان توفير الشروط لعودة الوحدة العربية يبدأ بتنمية الثقافة العربية ، ودعم التعاون الثقافي بين اقطار العروبة حتى تصل الى مرحلة الانصهار في دولة واحدة تنهل من ينبوع ثقافي واحد وموحد ، وتعاود تألقها السابق في العالم الحديث .

* * *

في سنة ١٩٦٤ قام ميثاق الوحدة الثقافية العربية . ومن يقرأ مقدمات هذا الميثاق ، يجد أن الثقافة العربية « تضمن حقوق الانسان العربي في التعلم والحرية والكرامة والرفاهية » ، وان الثقافة العربية تجعله قادرا على خدمة مجتمعه ، وان هذه الثقافة « متمسكة بقيمها الروحية والاصيلة ، متطلعة الى اكتساب العلوم الحديثة وتطبيقاتها ، ساعية الى ابراز الشخصية العربية في المجال العالمي ، وقدرتها على الوقوف في وجه قوى الشر العالمية المتمثلة في الاستعمار والصهيونية ، واسهامها في اقرار السلام العالمي وقيامها بدورها التاريخي في بناء الحضارة الانسانية وتقدمها . »

منذ ذاك التاريخ ، اخذ الوعي العربي بتنمية **الثقافة العربية** ، يزداد وضوحا واتجاها في اطار « عمل عربي مشترك » ذي اتجاهات رئيسية اربعة :

ــ نشر اللغة العربية والكتابة العربية داخل الوطن العربي وخارجه (المادة العاشرة ، والمادة الخامسة عشرة من الميثاق).

ــ احياء التراث العربي الفكري والفني والمحافظة عليه ، ونشره وتيسيره للطالبين ، والتعريف بالثقافة العربيةالاسلامية (المادة الخامسةعشرة).

ــ التعريف بشؤون الفكر العربي المعاصر ، وبالقضايا العربية الحاضرة ، (المادة الخامسة عشرة) .

ــ رعاية الفنون وتنسيق جهود العاملين فيها ، وتبادل خبراتهم ، وتسخير جميع وسائل الاعلام المختلفة لنشرها (المادة العشرون) .

ذلك ان تنمية الثقافة العربية داخل الوطن العربي ، هي شرط لازم لانتشارها وازدهارها خارج حدوده ؛ والثقافة العربية لا تنمو في الداخل الا اذا استمرت متواصلة ومتفاعلة مع الثقافات الاخرى ، اذ « تعمل الدول العربية على توثيق صلة طلابها بالثقافة الادبية والعلمية والفنية الحديثة ومساعدتهم على اتقان الوسائل اللغوية التي تمكنهم من استيعاب هذه الثقافة » .

وقد كنا ، نحن المثقفين العرب ، مدركين منذ البداية أن تنمية الثقافة العربية ، هي وضع خطة شاملة لهذه الثقافة ، نسميها بلغة اليونسكو « السياسة الثقافية » ، وسميناها في احد اجتماعات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم « استراتيجية الثقافة العربية » . هذه الخطة يضعها المثقفون العرب انفسهم ، اذ هم أولى بثقافتهم من سواهم ، وهم اقدر من غيرهم على معرفة ابعاد هذه الثقافة وأهدافها وتطلعاتها ، عبر الزمان والمكان .

وحين دعت منظمة اليونسكو بعض المثقفين العرب ، وكنت أنا من بينهم ، الى لقاء في مدينة الحمامات بتونس سنة ١٩٧٨ ، طلبت الينا هذه المنظمة ان نضع لها مشروعا لمؤتمر تدعو اليه وزراء الثقافة العرب ، ويصار فيه الى تحديد أبعاد « السياسة الثقافية العربية » ، لتقدمها

اليونسكو فيما بعد الى المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية (مؤتمر وزراء الثقافة العالمي الذي سيعقد في مكسيكو خلال شهر تموز من هذه السنة بدعوة من اليونسكو) ، اذ ان هذا المؤتمر (وهو الثاني من نوعه تنظمه اليونسكو منذ انشائها حتى الآن) يجب ان يتوصل الى ابراز المشكلات المشتركة التي تواجه الثقافة لدى شعوب العالم ، والسبل التي تساعد على تحقيق تنمية شاملة تنطلق من التنمية الثقافية الخاصة بكل شعب .

في لقاء الحمامات استخلصنا جملة افكار اقرت اليونسكو صلاحها منطلقا لكل بحث في تنمية الثقافة العربية . من هذه الافكار :

- ان العلاقة بين التنمية الثقافية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية علاقة عضوية متكاملة .
- تأكيد ضرورة اسهام الثقافة العربية في بناء نظام ثقافي عالمي جديد .
- تأكيد الدور الهام الذي تقوم به الثقافة كسلاح في التحرر الشامل والتغير الاجتماعي في الوطن العربي .
- تأكيد ضرورة الاهتمام بالثقافة والعلم في هذه المرحلة التاريخية التي تمر بها الامة العربية ، حيث لم يعد بالامكان ان تعيش اية امة وأن يكون لها دور في المجتمع الانساني دون أن تستلهم قيمها واسس تطورها من الثقافة والعلم .
- ان الثقافة العربية كانت دائما في عصور ازدهارها منفتحة على الثقافات العالمية اخذا وعطاء ، وهي الآن في مراحل نهضتها اشد ما تكون حاجة الى استمرار هذا الانفتاح لتفيد وتستفيد
- ان التنسيق والتعاون على الصعيد الدولي مطلب اساسي من مطالب الثقافة العربية ، يمنحها فاعلية في خارج الوطن العربي ، ويتيح لها

فرصا واسعة لتقديم الوجه الحضاري الانساني الى العالم في صورة صحيحة واقعية وصادقة ، بغية التفاعل الايجابي والفعال مع الثقافات العالمية المختلفة .

ـ ان التعاون بين منظمة اليونسكو والدول العربية يستطيع ان يحقق الانفتاح الثقافي المنشود والتعاون الدولي من اجل التقارب بين الشعوب، وصولا الى تنمية شاملة وسلام عالمي .

واخذت اليونسكو بما اقترحناه عليها من مشروع جدول أعمال المؤتمر الذي كانت تفكر بدعوة وزراء الثقافة العرب اليه في سنة ١٩٨٠ . وفي تقديري أن موضوعات هذا المشروع مازالت جديرة باهتمام كافة المعنيين بمستقبل الثقافة العربية ، اقدمها فيما يلي بصيغة مكثفة :

الموضوع الاول : السياسات الثقافية والهوية الثقافية :

وتتفرع عنه الموضوعات التالية :

أ ـ مقومات الهوية الثقافية العربية :

ـ الثابت والمتغير في الثقافة العربية .

ـ الثقافة وتغير القيم في الوطن العربي .

ـ الاهمية الخاصة لدور اللغة العربية في اثبات الهوية الثقافية .

ـ الثقافة العربية بين الوحدة والتنوع .

ـ آثار الاستعمار وطرق معالجة استلاب الشخصية.

ـ الحفاظ على الهوية الثقافية في الاراضي العربية التي تحتلها اسرائيل .

ب ـ الثقافة والتطوير الاجتماعي الشامل :

ـ الثقافة أداة تحرر وطني وانعتاق من التبعية .
ـ الثقافة أداة تقدم اجتماعي .

ج ـ البعد الانساني للثقافة العربية :

ـ الثقافة العربية في تعاملها مع ثقافات العالم
ـ القيم الثقافية العربية وحقوق الانسان .

الموضوع الثاني : السياسة الثقافية والتنمية الشاملة :

تتفرع عنه جملة موضوعات أهمها :

ا ـ البعد الثقافي للتنمية :

ـ الاعلام والتنمية الثقافية .
ـ التربية والتنمية الثقافية .
ـ العلوم والتكنولوجيا والتنمية الثقافية .
ـ البيئة والتنمية الثقافية .

ب ـ المشاركة في الحياة الثقافية :

ـ تشجيع الخلق والابداع .
ـ ديمقراطية الحياة الثقافية وحق الجماهير في الافادة من النشاط الثقافي .

ج ـ وسائل النشاط الثقافي :

ـ التخطيط الثقــافي .
ـ التمويــل .
ـ مراكز البحوث والدراسات .

- التشريعات وحماية الابداع .
- الهياكل والمؤسسات الثقافية .
- تكوين البنى الثقافية .
- الانتاج الثقافي .
- نشر الثقافة وتعميمها .

الموضوع الثالث : التعاون الثقافي ، تنبثق عنه الموضوعات الكبرى التالية:

- آفاق ومجالات التنسيق الثقافي بين الدول العربية.
- التعاون الثقافي العربي الافريقي .
- التعاون الثقافي العربي الآسيوي .
- التعاون الثقافي العربي مع دول العالم الثالث .
- التعاون الثقافي العربي مع سائر دول العالم .
- اسهام الثقافة العربية في اقامة نظام ثقافي عالمي جديد .

* * *

بيد ان لقاء الحمامات لم يكن اللقاء الوحيد الذي اتيح فيه للمثقفين العرب ان يركزوا على الموضوعات الاساسية الخاصة بالثقافة العربية . فالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اولت هذه الموضوعات اهتماما جادا ، متواصلا ، منهجيا ان صح التعبير ، استهدف امرين كبيرين معا : اثارة وعي المثقفين العرب بالمشكلات الفعلية التي تواجه ثقافة امتهم ، وبلورة اطار كبير تتوضح فيه أهداف الثقافة العربية ، وصلتها الوثيقة بأية تنمية يمكن ان تتم في الوطن العربي ، ووسائل نموهذه الثقافة محليا وعالميا . ذلكم هو مفهوم الخطة الشاملة للثقافة العربية .

وكان المؤتمر الاول لوزراء الثقافة العرب الذي تم في عمان (كانون الاول ١٩٧٦) من أهم ما قامت به المنظمة العربية في هذا المجال . اذ

اعدت له ورقة عمل ممتازة ، وجرت فيه مناقشات بلغت مستوى عاليا من التعمق والتحليل والجدية ، وتمخض المؤتمر عن حدثين كبيرين هما : بيان عمان ، والمقررات الاولى لوزراء الثقافة العرب .

اما بيان عمان فيمكن القول انه وثيقة ثقافية قومية تضمنت اهتمامات المثقفين العرب الاولى ، وتطلعاتهم ، ورؤيتهم لثقافتهم في إطاريها العربي والعالمي . ومن الخير ان نثبت هنا النقاط الاساسية فيه :

ان المؤتمر الاول للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية . . إيمانا منه بأن ثقافة الامة هي قوام شخصيتها ، والمعبر الاصيل عن تطلعاتها وامانيها ، والدعامة الحقيقية لوحدتها الشاملة ، وان الحفاظ على تراثها وانتقاله بين اجيالها المتعاقبة وتجديده ، هو ضمان تماسك الامة ونهوضها بدورها الابداعي في مجال الحضارة الانسانية ،

وادراكا منه لاهمية وضع سياسة ثقافية عربية موحدة ، واضحة الاهداف والمعالم والوسائل تلتزم بها الدول العربية ،

وتأكيدا منه لضرورة دعم مجالات التعاون الثقافي العربي ، وتحقيق تنسيق متكامل شامل تعزيزا للوحدة الثقافية العربية .

واقتناعا منه بالدور الحضاري الرائد لثقافة الامة العربية ، وقدرتها على متابعة رسالتها لخير البشرية واغناء الفكر الانساني ، وتعميق التواصل بينها وبين الثقافات الاخرى ،

وتقديرا منه لمسؤولية الامة العربية في تقديم الثقافة العربية والتراث الاسلامي ونشر اللغة العربية بين المسلمين وخاصة في افريقيا وآسيا ، يعلن :

١ ــ تصميم الامة العربية على القضاء على جميع آثار الاستلاب الثقافي والغزو الفكري الظاهر والمستتر ، اللذين تعرضت لهما في الماضي عن طريق الغزوات الاستعمارية ، ودفع الصور الجديدة من الاستعمار ، وخاصة الاستعمار الاستيطاني الصهيوني ، ويتمثل هذا الاستلاب الثقافي، فيما يتمثل ، في محاولة فرض مظاهر الاغتراب اللغوي والفكري والثقافي ــ محاولة طمس معالم الشخصية الثقافية العربية ــ محاولة اغراق المجتمع العربي بمواد مناهضة للقيم الثقافية الصحيحة ــ العمل على تزييف التاريخ العربي والاسلامي ــ العمل على تغيير البناء الاجتماعي والسكاني ــ العبث بالممتلكات الثقافية وانتهاك المقدسات الدينية .

٢ ــ اهمية التدعيم والتطوير للدور الحضاري العالمي للامة العربية لخير البشرية ، واستعادة الرقعة الثقافية التي افقدها اياها الاستعمار خلال القرون الاخيرة .

٣ ــ ضرورة وضع سياسة ثقافية عربية موحدة ، تكون سبيلا للتنمية الثقافية وركيزة لخطة عامة للتنمية الشاملة .

٤ ــ ضرورة تحقيق التكامل والتنسيق بين عمل اجهزة الثقافة واجهزة التعليم واجهزة الاعلام في الاقطار العربية لضمان مزيد من فاعلية العمل الثقافي وتوسيع نطاق الخدمات الثقافية للمواطنين ، اسهاما في تكوين المواطن العربي تكوينا سليما معاصرا نابعا من اصول عروبته وقيمه الدينيــة .

٥ ــ تأكيد اعتبار الثقافة حقا لجميع المواطنين ، مرادفا لحقهم في التعليم ولحقوقهم السياسية والاجتماعية .

٦ ــ وجوب العمل على تعميم استعمال اللغة العربية لغـة للتعليم في جميع مراحله وبجميع انواعه ، وفي البحث العلمي ، ووسائل الاعـلام والثقافة ، باعتبار ان اللغة القومية هي أهم دعامة للوحدة ، وهي الوعاء الصحيح للثقافة الاصيلة للامة ، وأن أصالة التفكير العلمي لا تترسـخ في الامة الا من خلال لغتها .

٧ ــ شجب ما تقوم به سلطات الاحتلال الصهيوني في فلسطين من عدوان على الثقافة العربية هناك في جميع مظاهرها ، وتأكيد الحرص على التمكين للثقافة العربية في المناطق العربية المحتلة من القيام بدورها ، وتأديـة رسـالتهـا .

٨ ــ حرص الامة العربية على تعاون حكوماتها واجهزتها المتعـددة لتحقيق ما تضمنه هذا البيان وما تضمنه توصيات هذا المؤتمر عـن طريق برامج ومشروعات محددة تنهض بها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وفق خطة طويلة المدى ، بالاضافة الى جهود الحكومات العربية في اطار من التنسيق المتكامل .

اما المقررات الاولى للمؤتمر فقد تركزت على جملة توصيات تخص أهداف السياسة الثقافية واساليب التخطيط الثقافي ، ومشكلات تمويل العمل الثقافي والتعاون الثقافي في مجاليه العربي والدولي ، وتنسيـق التشريعات الثقافية العربية . وابرز القرار الاول ان من اهداف السياسة الثقافية في الوطن العربي :

ــ ترسيخ المفهوم الصحيح للثقافة العربية ، من حيث هي ثقافة قومية وانسانية معا ، تستند الى أصول الامة العربية وتراثها وتستوعب في الوقت نفسـه تيارات العصر ، وتدرك آفاقه ، وتشارك مشاركـة ايجابية متفتحة ، اخذا وعطاء ، في تقدم الحضارة العالمية .

تكوين الشخصية المتكاملة للانسان العربي ، وتهيئته للوعي بتراثه والانتماء لامته وقيمها الاصيلة ، واعداده لمعايشة عصره واستيعاب معطيات الفكر الحديث والثقافات العالمية ، وصقل فكره ووجدانه ليكون قوة فعالة في التقدم الحضاري لوطنه .

ـ تحقيق ديمقراطية الثقافة بالوسائل التي تكفل شيوعها وانتشارها بين المواطنين .

* * *

يمكن القول ان المؤتمر العربي الاول للثقافة قد فتح الباب امام طرح موضوع الحاجة الملحة الى وضع خطة شاملة للثقافة العربية . ذلك انه اذا كان من أهداف الثقافة العربية ان ترسخ مفاهيمها القومية وان تؤكد دور اللغة العربية في توحيد اقطار العروبة ، فانه لابد من ان توجه الجهود في طريق منهجية ، ومن منظور شامل ومتكامل .

بذلك تكونت لجنة في اطار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تضم عددا من رجال الثقافة والفكر في الوطن العربي ، مهمتها وضع هذه الخطة الشاملة ، انطلاقا من الواقع الثقافي العربي بكل ما فيه من مفارقات واشكالات ، وتفاوت في مستويات الوعي الثقافي .

وقد تحتاج اللجنة الى حوالي ثلاث سنوات لانجاز مهمتها . وكان اول اجتماع لها في الكويت في الفترة من ١٣ ـ ١٥ نيسان ١٩٨٢ ، برئاسة الاستاذ عبد العزيز حسين وزير الدولة الكويتي رئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .

في هذا الاجتماع الاول ، الذي كان لي شرف المشاركة فيه ، تمكنت اللجنة من استجلاء امور هامة لعملها ، وفي طليعتها : تحديد المنطلقات النظرية للتخطيط الشامل (الاهداف ـ الاسس ـ وسائل التخطيط وطرائقه) ، وبالتالي تحديد ميادين التخطيط الثقافي .

في مجال الاهداف والاسس اكدت اللجنة ان التخطيط الشامل يهدف الى ان تسهم الثقافة العربية :

١ — في تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في الوطن العربي بوصفها ركن البناء الحضاري .

٢ — في تنمية وابراز الهوية الحضارية العربية والاسلامية والمحافظة عليها ، بوصف الثقافة مستودع الاصالة .

٣ — في التحرر القومي الشامل ، بوصف الثقافة عنصر دفاع ورفض للتبعية والاستلاب والتشويه .

٤ — في العطاء الحضاري الانساني ، بوصف الثقافة مصدر ابداع وعطاء وتعاون حضاري عالمي .

٥ — في اغناء شخصية المواطن العربي وتأكيد وعيه بحريته وكرامته وفي قدرته على مواكبة التطور الانساني المعاصر والمشاركة فيه .

ان هذه الاهداف الكبرى تستند بدورها على اسس متلازمة ومتكاملة ينبغي ان يقوم عليها هذا التخطيط . وفي تقديرنا ان هذه الاسس وان تكن معروفة او مسلما بها ، الا ان ثمة لزوما لترديدها والتأكيد عليها اذ هي مازال تفتقر الى المزيد من الانجاز الفعلي ، وهو امر تحمل مسؤوليته الاولى انظمة الحكم العربية ، بوصفها قائمة على امور المجتمع العربي .

من هذه الاسس :

□ حق الانسان العربي في الثقافة اي في اكتسابها الكامل وفي حرية التعبير عنها والتمتع بها . فالانسان هو غاية كل تخطيط تنموي والحرية شرط من شروط الانسانية .

□ مسؤولية الدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقافي الشامل وفي توفير جميع الوسائل للتفتح الثقافي الحر .

□ ان عملية التخطيط التنموي عملية شمولية . والثقافة بعد اساسي من ابعاد التنمية الشاملة وعلى علاقة جدلية وعضوية مع نواحي التنمية الاخرى ولايتم تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية الا بالاستناد الى تخطيط ثقافي جذري يحدد الاهداف المستقبلية للامة .

□ ديمقراطية الثقافة اي المشاركة الجماهيرية الواسعة في مجالي انتاج الثقافة والافادة منها باعتبار ان الثقافة للجميع وانها الزاد الروحي والفكري .

□ قومية الثقافة بمعنى ان الثقافة العربية واحدة موحدة . وان لغتها هي العربية . وان التنوع هو احد ابعاد الغنى والخصب فيها .

□ ان التراث الحضاري الاسلامي ركن اساسي في تكوين الثقافة العربية ونبع اصيل فيها عقيدة وقيما وتشريعا وهو الذي يميزها عن غيرها من الحضارات الانسانية . فالعروبة والاسلام متلازمان متكاملان .

□ عصرنة الثقافة بمعنى تحديد الثابت والمتغير في الثقافة العربية الحالية . واستيعاب تيارات العصر ومواكبة تحولاته عربيا وعالميا في التحديث والانفتاح مع الحفاظ على الاصالة والهوية الحضارية العربية والقيم الروحية والفكرية للامة .

□ عالمية الثقافة بمعنى ان تتفاعل مع الثقافات الاخرى وتشارك المشاركة الايجابية المتفتحة اخذا وعطاء في تقدم الحضارة الانسانية وذلك من تقاليد الفكر العربي .

□ انسانية الثقافة بمعنى ان للثقافة العربية خصائص ومثلا وقيما وافاقا انسانية متفردة قادرة على الاسهام في اقامة نظام ثقافي دولي جديد .

وسائل التخطيط الثقافي الشامل وطرائقه :

□ الطاقات والخبرات البشرية اي العناصر المبدعة والمنظمة للعمل الثقافي وتاهيلها لتحقيق اهداف التخطيط الشامل .

□ الوسط الملائم للابداع الثقافي وذلك يعني حرية الابداع وحرية التعبير عنه وتأمين العيش الكريم لصانعي الثقافة ومنظميهم وتمكينهم من الاتصال بالجماهير واقامة وسائل الاتصال معهم والعمل على التوعية الجماهيرية الواسعة .

□ توفير التمويل للمشاريع الثقافية وسواء للمبدع او للتنظيم او للوسائل . وترشيد الانفاق .

□ توفير مرافق النشر الثقافي ولوازمه ودعم الصناعات الثقافية وذلك عن طريق ايجادها ورعايتها وازالة العقبات امامها .

□ التشريع : بمعنى وضع التشريعات اللازمة لضمان حقوق المبدعين وتوفير الحرية والكرامة الانسانية لهم ووصلهم بالجمهور وتوسيع نطاق النشر الثقافي وازالة العقبات امام التدفق الثقافي المحلي والعربي واعادة النظر على اساس ذلك كله في التشريعات القائمة والمعوقة .

□ البحث الثقافي بمعنى ان يستند التخطيط والتشريع الى بحوث علمية تهدف الى تنظير الظواهر الثقافية وتقويم جدواها التنموية ومراقبة تطوراتها بالبيانات الاحصائية والتيسير الثقافي المتصل والمراجعة الدورية ورصد تفاعلها مع العصر واتفاقها مع الاهداف العليا القومية والانسانية ، وان يرفق ذلك باقامة مراكز التوثيق الثقافي .

□ التخطيط المرحلي بان تقوم السياسات الثقافية للبلاد المختلفة على اساس ادراك واع للاهداف العليا ، منظم في المراحل الزمنية ، مراع للمعطيات الاقليمية ، في اطار الوحدة الثقافية .

□ التكامل الثقافي القطري بتحقيق الانسجام في المخططات الثقافية بين قطاعات الانتاج والتنظيم الثقافي بعضها مع بعض واقامة الصلة الوثيقة بين السياسات الثقافية والنشاطات الاخرى من تنموية وتربوية واعلامية وغيرها .

□ السعي الى تحقيق الامن الثقافي في صورتيه المادية والمعنوية وذلك عن طريق :

(آ) امتلاك وتطوير الصناعة الثقافية على اختلاف فروعها من خلال عمل عربي مشترك ومتعاون تحقيقا لاستقلالية ووحدة الانتاج الثقافي العربي وضمان التحكم القومي في البنى الاساسية لانتاج ادوات الثقافة ماديا واجتماعيا واتاحتها بالوفرة العادلة للسوق العربية الواسعة والقادرة .

(ب) المحافظة على الخصوصية الحضارية ومقاومة التبعية الثقافية ومحاولات التشويه والاستلاب الثقافي بكل صوره .

□ تحقيق التكافل القومي الثقافي بوضع الامكانات العربية من مادية وفكرية في خدمة الحركة الثقافية الشاملة وعناصرها ووسائلها في الوطن العربي وتبادل الدعم المادي والفكري بشكل منتظم بين مختلف الاقطار العربية تنمية لشخصية الانسان العربي وتحقيقا لوحدة الثقافة وقومية المعرفة .

□ تنشيط التآخي والتفاعل الثقافي الحيوي العميق مع البلاد الاسلامية وبخاصة الافريقية تاكيدا وتدعيما للصلة الوثيقة والاصيلة بين الثقافة العربية والحضارة الاسلامية الجامعة بالاضافة الى تطوير الصلات الثقافية مع البلدان الافريقية والاسيوية والامريكية ألاتينية تاكيدا للتمايز الثقافي والاستقلال الفكري في دول العالم الثالث .

□ الحرص على التعاون الثقافي الدولي المتكافىء باقامة الصلات الثقافية مع الدول الاخرى ومع المؤسسات الثقافية الاجنبية والدولية .

ويكتمل المشروع بتحديد ميادين التخطيط الثقافي . وقد حددت اللجنة هذه الميادين الكبرى (دون الدخول في التفاصيل الدقيقة) بعشرة ميادين ، نقدمها فيما يلي :

اولا ــ التراث (الصورة المادية للهوية الحضارية ، مستودع القيم ، وثائق الاصالة) .

١ ــ الآثار (تنقيب ، صيانة ، حفظ ، حماية ، تسجيل ، استرداد ، دراسة ، توعية ، تشريع) .

٢ ــ المتاحف (الاثرية ، الاجتماعية ، التراثية ، التاريخية ، الفنية ...) .

٣ ــ المخطوطات (الجمع ، الحفظ ، الفهرسة ، التصوير ، الدراسة والتحقيق ، النشر بالمبادلة ، نشرات التعريف) .

٤ ــ الوثائق (الجمع ، الحفظ ، الفهرسة) .

٥ ــ التراث الشعبي (جمع ، حفظ ، تسجيل ، دراسة ...) امثال مقولات ، حكايات ، اغاني .

٦ ــ حماية التراث المهدد (في المناطق المحتلة وفي مناطق المشاريع الحديثة والمناطق المتخلفة) . رصد عمليات التزييف والسلب والانتهاك للتراث .

٧ ــ استرداد التراث المسلوب .

٨ ــ رعاية المشاريع التراثية الكبرى : اعادة كتابة التاريخ ، موسوعة الفنون العربية الاسلامية ، موسوعة الحضارة العربية الاسلامية ، تاريخ العلوم العربية الاسلامية ...) .

٩ ــ حفظ المدن الاسلامية .

ثانيا : الفنون (ربطها بالحياة العامة ــ وباستلهام التراث بوصفها التعبير الابداعي عن الموقف الجمالي للامة) .

١ ــ الفنون التشكيلية (النحت ، الرسم ، الزخرفة) .

٢ ــ المسرح .

٣ ــ السينما .

٤ ــ الفنون الشعبية (اغان ، موسيقى ، زجل ، تطريز ، وسم ، رقص ، تزيين ، مجسمات ...) .

٥ ــ الموسيقى .

٦ ــ الفنون التطبيقية : التصوير الآلي ، الاخراج ، الخزف ، التزيين (ديكور) ، الحفر ، الزجاجيات .

٧ ــ الخط العربي .

٨ ــ الآثار المعمارية .

٩ ــ الفنون الحرفية .

١٠ــ تخطيط وتزيين المدن .

ثالثا ـ اللغة :

١ ـ المصطلحات (العلمية ، الفنية ، الاثرية ، الحقوقية ، العسكرية ، التقنية ...) ومعاجمها .

٢ ـ التعريب (في الادارة ، في التعليم ، في العلوم ،) والترجمة (الادبية، العلمية ....) .

٣ ـ المعاجم اللغوية .

٤ ـ المجامع اللغوية .

٥ ـ تفصيح اللغة المحكية (تقريب اللهجات) .

٦ ـ سلامة الكتابة المنشورة .

رابعا ـ الادب :

١ ـ الاعمال الادبية .
المسرح ، الشعر ، القصة ، الرواية ، المقالة ، النقد ، الدراسة الادبية .

٢ ـ ادب الاطفال .

٣ ـ الكتابة لوسائل الاعلام (السينما ، الاذاعة ، التلفزيون) .

٤ ـ النشر الادبي ومؤسساته (دور النشر ، مجلات ، مؤسسات حكومية) .

خامسا ـ الفكر الاسلامي :

١ ـ مدى استلهام المجتمع لقيمه ونظمه وتشريعات من مبادىء الاسلام وروحه .

٢ ـ مدى اسهام الفكر الاسلامي المعاصر في مواجهة قضايا العصر ومشكلاته وتحدياته .

٣ ـ مدى استشراف الفكر الاسلامي للمستقبل الافضل وارتياد آفاقه.

سادسا ـ التثقيف العلمي :

١ ـ الوسائل العلمية (ادوات ، مخابر ، مراجع ، ... الخ) والتكنولوجيا الحديثة .
٢ ـ التمويل العلمي .
٣ ـ الخبرات العلمية (اعدادها ، نسبها ، جهات تخرجها) .
٤ ـ مراكز البحوث .
٥ ـ النشر العلمي .

سابعا ـ الانتاج الفكري :

١ ـ السياسي .
٢ ـ القومي .
٣ ـ التاريخي .
٤ ـ الفقهي والقانوني .
٥ ـ الفلسفي .
٦ ـ الاجتماعي .
٧ ـ الاقتصادي .

ثامنا ـ وسائل الاعلام والاتصال :

١ ـ الصحافة . (الصحف ، الدوريات) .
٢ ـ الاذاعة .
٣ ـ الكتاب العربي .
٤ ـ وكالات الانباء (المقروءة والمسموعة)
٥ ـ الفيديو والكاسيت .

٦ ـ الاقمـار الصناعية .

تاسعا ـ التعاون الثقافي :

١ ـ تعاون الاجهزة الثقافية المحلية بعضها مع بعض (تربية وتعليم اعلام ، ثقافة) .

٢ ـ التعاون العربي .(المنظمة العربية ، المعاهدات الثنائية ، المؤتمرات الدولية للتنسيق) .

الغاء عقبات التدفق الثقافي من تشريع وعطلة صعبة وجمارك ورقابة ...

٣ ـ التعاون الاسلامي (من خلال مختلف المؤسسات ، المعاهدات الثنائية ، المعونات الثقافية للدول المحتاجة) .

٤ ـ التعاون الدولي (اليونسكو ، الاتفاقات الثنائية) .

٥ ـ دعم اللغة العربية في الخارج (معاهد الدراسات العربية والاسلامية في العـالم) .

(العمل ضمن الجاليات) .

٦ ـ المراكز الثقافية العربية والاسلامية في العالم .

٧ ـ الاعلام الثقافي العربي الخارجي .

٨ ـ الترجمة الى اللغات الاجنبية (من الانتاج الادبي والفني ...) .

٩ ـ نشاطات المنظمة العربية للتربية خارجيا : مع اليونسكو وغيره .

لجانها ومشاريعها المشتركة مع المنظمات الاخرى العالمية .

ملحق بالمجالات :

عاشرا ـ وسائل العمل الثقافي :

١ ـ المجامع العلميـة والجمعيات العلميـة الاختصاصية (الرسميـة والاهليـة) .

٢ – الجمعيات والمؤسسات الثقافية (الادبية ، الفنية ، النسائية ...) الرسمية والاهلية .

٣ – المؤتمرات والندوات (ادبية ، علمية ، صحفية ، اعلامية ، فنية).

٤ – الاتحادات (الصحفية ، الاعلامية ، التمثيل ، الموسيقى ، الآداب، الجامعات ، المسرح ...) .

٥ – المراكز الثقافية (الثابتة والمتنقلة) .

٦ – الجوائز الثقافية (المسابقات ، جوائز التشجيع ، جوائز التكريم)

٧ – المهرجانات والاعياد والايام التذكارية والاسابيع الثقافية .

٨ – الجامعات والمعاهد العليا .

٩ – التمويل (الحكومي ، الاهلي ، المساعدات الدولية) .

١٠– الدوريات الثقافية .

١١– التخطيط والمشاريع المرحلية .

١٢– الخبرات البشرية (تكثير اعدادها،دعمهاالمتصل) هجرة الكفايات .

١٣– الفرق الثقافية (المسرحية ، الموسيقية) .

١٤– التشريع (توحيد ، استكمال ...) بمافيذلك حقوق الملكيةالثقافية وحماية الانتاج الثقافي ودعمه وتسهيل حركته وتدفقه ...)

١٥– المعارض الثقافية (فنون ، آثار ، كتب ...) .

١٦– مؤسسات التأليف والترجمة والنشر .

١٧– مؤسسات التوزيع والتبادل .

١٨– معاجم المطبوعات والمنشورات والمترجمات .

١٩– مشاريع الموسوعات العربية (العامة والمتخصصة ، الرسمية والاهلية) .

٢٠– المكتبات العامة .

٢١– النوادي الثقافية .

٢٢– الكتاب الاجنبي والدورية الاجنبية .

٢٣- توفير الاجهزة للعمل الثقافي . (تدريبها المتصل) (عملهـا ليس الانتاج ولا التقليد) .
٢٤- توفير المكان للنشاطات الثقافية (مسارح ، صالات عرض ، صالات قراءة) .
٢٥- الاستفادة من المسجد واحياء دوره الثقافي .
٢٦- الرحلات (الثقافية ، الكشفية ، الرياضية) والحركة السياحية .

تلكم هي الصورة المكثفة لبدء العمل في وضع الخطة الشاملة للثقافة العربية . مرة اخرى اقول ان المهمة ليست سهلة ، وان تكن ضرورية ، وهي تتطلب اسهامات عديدة ، سيقوم بها في مستقبل قريب عدد كبير من رجال الثقافة والفكر العربي ، اذ يتولى كل فريق منهم اعداد بحث او اكثر في مختلف الميادين التي يراد لها ان تكون موضوع ايضاح ، تمهيدا لعملية التخطيط الثقافي الذي يجب ان يشمل الوطن العربي كله . وسنعود الى هذا الموضوع في وقت آخر .

مـن اللقـــاء إلى الحـوار

أديب المجمي

في شهر آذار الماضي ، شاركت في أول حـوار حقيقي يقوم بين الثقافات العربية والاوروبية والافريقية . تم اللقاء في مدينة آفينيون الفرنسية ، واستمر اسبوعا كاملا ، شارك فيــه حوالي / ١٨٠ / من كبار مثقفي ومفكـري أوروبا والعالم العربي والقارة الافريقيــة ، كانت مشاركتهم في الحوار بصفتهم الثقافية الشخصية ، ذلك أن الاتجاه الذي أجمع عليه المشاركون هو ابعاد هـذا اللقــاء وما سيتلوه من لقاءات مقبلة عن أية مداخلة حكومية أو رسمية حرصا على تحقيق أكبر قدر من الجدوى لما ينشده هؤلاء المثقفون الذين يعبّرون عن الهويات الثقافية لحضارات بلادهم ، كي تعاود التواصل فيما بينهـا

بروح التقدير المتبادل ، بروح الأخذ والعطاء ، أملا في أن يؤول الحوار الى اللقاء ، ويؤول اللقاء الى ظهور نظام دولي جديد ، لا مكان فيه للتمايز والاستعلاء ، يقوم على احترام متبادل لثقافات شعوب العالم كلها ، يعمل على ترسيخ التعاون الجاد بين الدول في كافة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ليضمن للانسانية سلاما حقيقيا ، قوامه العدل والمساواة والعمل البناء المشترك •

* * *

ان اختلال التوازن القائم في عالم اليوم ، ليس اختلالا اقتصاديا وحسب ، بل هو في الوقت ذاته اختلال في التوازن الثقافي • ومنذ أن بدأت محاولات الحوار بين الشمال والجنوب ، بين أوروبا والبلاد العربية ، فقد كان طابعها الاول اقتصاديا ، واستمر كذلك طوال السنوات العشر التي جرى فيها هذا الحوار ، وما يزال ، دون أن يؤدي الى أية نتيجة • كان ، على الاصح ، حديثا ذاتيا اكثر مما كان حوارا ، ذلك أن أي حوار يفترض وجود اثنين لكل منهما وجهة نظر خاصة ، وأن على كليهما أن يستمع الى الآخر ، وأن يحاول فهمه •

هذا الحوار الاقتصادي بين الشمال والجنوب أشاع نوعا من الاعتقاد أن البحث عن تغيير شامل أمر متعذر ، مالم يقم على أسس من التفكير المتكامل ينطلق من احترام الهويات الثقافية ، يأخذ في

الحساب عوامل التجانس على مختلف المستويات والروابط النوعية التي تربط بين قارات وشعوب مختلفة .

لماذا اختيرت المجموعات الثقافية العربية والاوروبية والافريقية لتكون أول مجموعات ينعقد بينها مثل هذا اللقاء ؟

ان ثمة تاريخا ، بل ماضيا طويلا مشتركا بين هذه الثقافات . هناك شبكة من العلاقات المتعددة الاشكال نشأت خلال العصور ونمت بين هذه المناطق الثلاث المتجاورة ، ولم تكن هذه العلاقات ايجابية دوما ، بل رافقتها مجابهات تجاوزت الميادين الاقتصادية ، وأبرزت تباينات كبيرة بينها ، واذا كان على هذه الشعوب أن تبرز تناقضاتها فمن المحقق أنها لن تتمكن من تأسيس أي لون من ألوان التعاون الجاد بينها . من هنا ظهرت مقولة أن اللقاء الذي يمكن أن تبدأ به هذه المجموعات هو لقاء ثقافي ، لأن لكل منها هويتها الثقافية التي تجلت في قيم ومثل وابداعات فكرية وفنية وفلسفية ، تتفاعل فيما بينها ، وتتعاون على اشاعة التفاهم المتبادل تمهيدا لبناء عالم يتوفر فيه مزيد من الاستجابة لأماني البشر وكرامتهم وتحسين أحوالهم ، وحاجتهم الى توكيد ذاتياتهم دون أن تسحق احداها الأخرى .

* * *

كان لقاء آفينيون اذن استجابة لشعور بضرورة تركيز التفكير على المشكلات الناشئة عن اعادة توازن التبادل بين الثقافات بصورة متدرجة ، ومشكلات العوامل الثقافية للتنمية ، وضرورة منحها اهتماما جديرا بها وبمكاناتها .

وتركز تفكير المشاركين في اللقاء على أربعة موضوعات رئيسية ، أقدم لها عرضا موجزا فيما يلي :

الموضوع الاول : الثقافات وانماط التنمية الاقتصادية :

سادالاعتقاد خلال زمن طويل بامكان تطبيق نمط وحيد في التنمية في الشمال والجنوب على حد سواء ، ومعروف أن هذا النمط قد نشأ في الشمال ، في عالم حضاري ذي خصائص ، وهو يرتكز على مفهومي الكسب والازدهار الاقتصادي ، كما يرتكز على التقدم العلمي والتكنولوجي الهادف الى زيادة وتجويد الانتاج الصناعي . ان هذا النمط من التنمية قد اتخذ موقف اللامبالاة من كل نظام ثقافي شامل . وقد أتاح للشمال ، بسبب اطراد تزايد الحاجات والانتاج ، أن يحقق في النصف الثاني من هذا القرن استثمارات صناعية هائلة ومعدلات تنمية كبيرة ، تخللتها هزات اجتماعية نرى اليوم تجلياتها بوضوح كبير لدى الاجيال الناشئة في بلاد الغرب .

ولأن هذا المفهوم من التنمية يقوم على تحقيق التطور الاقتصادي

العالمي من خلال بعد واحد ، فقد أخذ الشمال يصنف المناطق المختلفة من العالم تبعا لقدرة كل منها على تحقيق هذا المفهوم ، ونتج عن ذلك شعور لدى الشمال بتفوقه واستعلائه ، وتخلف لدى الجنوب عن مواكبة مسيرة الشمال ، وازداد التفاوت بين الفريقين ، وكان طبيعيا جدا أن يعترف الشمال بأن ما صح له في مجال تنميته الاقتصادية ليس بالضرورة صحيحا للجنوب ، وتأكد لكافة العالمين بالواقع الانساني ، أن نقل النمط الاقتصادي بصورة حرفية من الشمال الى الجنوب أمر غير معقول بل وعقيم .

وقد تجلت الآن نتائج هذا النمط من التنمية في تسلطه واستغلاله، في تقصيره عن فهم التطور الانساني ، في نوع من الافلاس الاقتصادي الذي يشهد به كبار الاقتصاديين الغربيين . ذلك أنه بعد أن مر في مرحلة نشوة النمو والسيطرة ، أخذ اليوم يواجه هزات داخلية عنيفة ، ترتكز بصورة أزمة عالمية من الكساد والتضخم المالي والبطالة المتزايدة ، وأدى ذلك بالبداهة الى أن الجنوب أخذت تنتابه الشكوك العميقة في صلاح نمط الشمال ، بل ان الشمال نفسه هو الآن في حال تساؤل كبير عن مصير النمط الذي أبدعه لنفسه .

ولئن صح أن النمط الاقتصادي يرتكز على أسس ثقافية ، ويهدف بالتالي الى صياغة حضارة ، فقد أصبح ضروريا أن ندرس هذا الوضع، وأن نحلل العوامل السلبية التي جعلت النمط الاقتصادي الشمالي يثير

مثل هذه الهزات ، ويؤدي الى هذه الصراعات بين الثقافات المختلفة ، كما أصبح ضروريا أن تتلمس من خلال هذا الواقع ، السبيل الى تحقيق نماذج مختلفة من التنمية الاقتصاديـة ، تضع في حسابها الاختلافات الحضارية ، والتنوع الثقافي .

الموضوع الثاني : الادراك الحسي للعالم وتصوره :

ان علاقة الانسان بالكون وبالعصر الذي يعيش فيه هي علاقـة بالغة التعقيد . واذ حدثت الثورة العلمية في القرن التاسع عشر وامتدت متنامية في القرن العشرين ، فقد ظن بعض الناس أن باستطاعة العقل والعلم أن يفسرا كل ما في العالم ، وأن يقدما الاجوبة المقنعة عن كل ما في هذا الكون ، وأن الاعتقاد الديني آخذ في الانحسار ، بـل في التلاشي . بيـد أن الواقع لم يؤيد هذا الموقف ، ذلك أن الحضارة العربية وحضارات أفريقيا هي حضارات نشأت ونمت على قيم ومثل دينية وروحية ، بل ان حضارة أوروبا نفسها مفعمة بالقيم الدينية ، وأن نزعة الايمان الديني لم يقو على مقاومتها نمو العلم .

فالواقع الديني أمر لا يستطيع العلم قهره ، وهو رابطة بـين البشر ليس من اليسير فصلهـا عن حياتهم اليوميـة ، كما أنه موجود وجودا كاملا في ثقافة جميع الشعوب .

ومن المناسب أن يعنى اللقـاء الثقـافي بين أوروبا والعـرب وأفريقيـا بدراسة هذا الموضوع ، وأن يستبين أبعـاد الواقع الديني

في حيــاة الجماعات المعاصرة والمقبلــة ، وأن يتصدى الى تصورات هذه الجماعات في ميادين الخلق والابداع الفني والتعبير الثقافي •

الموضوع الثالث : مستقبل اللقاء بين الثقافات :

تبين من مختلف المناقشات التي جرت في ندوات سابقة ضمت مثقفيــن مــن أوروبا والبــلاد العربيــة وأفريقيــا ، أن التصورات والافكــار التي تتمثلهــا كل حضــارة بالنسبة الى نفسهــا والى الحضارات الاخرى ، تتحكم الى حدّ بعيــد بامكانات الحــوار بين الثقافات ، وتسهم في تثبيت أو تضخيم وجوه التباين بــين المجالات الثقافيــة : الشمال ــ الجنوب ، والجنوب ــ الجنوب ، والشمال ــ الشمال •

وقــد لوحظ أن النماذج النمطية المتوارثة ، وهي نماذج تتسم بالثبات على وجــه العموم ، تعمــل على تقليص محاولات التجديد والابداع ، وأنها تنزع بحكــم التعريف الى الاستمرار وفــق الصيغة التي تكونت عليها ؛ وربما كانت هــذه النماذج عائقــا داخــل الثقافة الواحــدة ذاتهــا ، اضافــة الى احتمال ان تكون عائقــا لاتصال ثقافة بأخرى •

يضاف الى ذلك ان التواصل الثقافي أصبح يعتمد على وسائل الاعــلام الجماهيرية التي لا يجهل أحــد سلطاتها وأبعــاد تأثيرها •

ومعلوم أن النمو الكبير الذي حققته وسائل الاتصال بفضل التقدم التكنولوجي ينزع الى زيادة الاختلال في التوازن في مجال التبادل الثقافي بين الشمال والجنوب ، اذ أن الشمال هو المصدّر للانتاج الثقافي ، والجنوب هو المستهلك له . ولا يجوز أن يستمر مثل هذا الاختلال الذي يتنافى ومفهوم الاتصال .

الى ذلك تضاف ظاهرة تنوع اللغات في هذه الثقافات . ولئن كانت لكل ثقافة لغتها ، فان من الطبيعي أن تعنى بالحفاظ عليها وعلى تطويرها ، بيد أنه لا بدّ من معالجة موضوع وسائل نقل الثقافة من لغة الى أخرى .

الموضوع الرابع : اعادة التوازن بين تطلعات المستقبل والطاقات الكامنة .

لم يعد خافيا على أحد أن تلك المعارف التي تستلزمها التنمية المعتمدة على الذات والتي يمكن نقلها من حضارة الى أخرى ، لم يعد وقفا على قسم معين من العالم . ثمة عدد من العلوم تطورت في العالم العربي وحققت انجازات لا تقل جدية ونتاجا عما حققته مثيلاتها في بلاد الشمال . وهناك أشكال رائعة من المهارات والمعلومات التقليدية المتوافرة في أفريقيا تبدو ملائمة لأوضاع هذه القارة ، وهي جديرة بأن تكون موضوع تأمل وافادة من قبل أهل الشمال أصحاب الحضارة التكنولوجية .

من الضروري اذن أن نعمل على اكتشاف أنماط جديدة

من التبادل ، وأن نقضي على ظاهـرة « احتكار » الشمال لمعارفه العلمية والتكنولوجيـة ، وانغلاقه عليهـا كما لو أنهـا هي الترياق ، وأن نتوصل الى جعـل الشمال يفتـح أبوابه أمـام خبرات ومهـارات وابداعـات الجنوب ليفيـد هو منهـا ، وأن يتيح نقـل معارفـه التكنولوجيـة الى الجنوب ، مع العمـل على تكييفها وفق واقـع وظروف الجنوب ؛ وبمعنى آخر ان ما هو مطلوب الآن هو أن ننتقـل من مفهوم النقـل الانتقـائي الى مفهوم التبادل والتواصل والمشاركة ، يؤدي في المستقبل الى نوع من التضامن الفعـال بين شركاء متساوين في القدرة على الابتكار والابداع والانجاز .

مطلوب اذن من المثقفين في أوروبا والبلاد العربيـة وأفريقيـا أن يتدارسوا تحديد الأساليب الجديـدة التي يحسـن تطبيقها في القطاعات الرئيسية للتنمية ، ويكون ذلك :

ــ بتحديد نسق جديد من التقـدم ، ونماذج جديدة للبحث ، تخـص كل منطقـة مـن هـذه المناطـق الحضارية ، مثلما تخـص العلاقـات فيما بينهـا .

ــ بوضع برامج للبحوث المشتركة ، بأكلاف مشتركة ، تضم عددا من الباحثين من الشمال والجنوب ، يعملون معا على انجاز هذه البرامج بروح التعاون المتكافىء .

ــ باقامـة شبكات للتعـاون العلمي على أساس التعـاون بين

المناطق ، تختص بالبحوث العلمية وتطبيقاتها العملية وما تستتبعه من تكوين أطر المدربين والخبراء •

ـــ باعتماد خطة لتوفير المنح الدراسية اللازمة على مدى سنوات طويلة ، ترمي الى تأهيل واعداد المتخصصين لقطاعات مستقبلية ، ويشارك فيها الباحثون من الشمال والجنوب معا لتحقيق برامج علمية وتكنولوجية مشتركة قابلة للتطبيق في الجنوب والشمال على حد سواء • وسترحب المنظمات الدولية بمثل هذه المبادرات ، وتقدم لها كل دعم ممكن •

ـــ بمعرفة التصورات التي تحملها عن المستقبل كل من أوروبا والبلاد العربية وأفريقيا كيف تتصور كل منها مستقبلها ومستقبل الانسانية ؟ ما هي الأخطار التي تخشاها كل منها ؟ ما هي استعداداتها للتعاون مع الثقافات الاخرى ؟

ان حل الاشكالات الخاصة بالتنمية الاقتصادية سيكون عاملا ميسراً للقاء الثقافي ؛ هذا ما كان يقال ، الأصح هو العكس • ان حل التناقضات والاشكالات الخاصة بالتنمية الاقتصادية ، وبتيسير عقد حوار بناء بين البلاد المتقدمة وبلاد العالم الثالث ، والسعي الى ايجاد صيغة جديدة لنظام عالمي تذوب فيه التفاوتات والفوارق ، ان هذا كله يبدأ باللقاء الثقافي ، يبدأ بحوار جدي على صعيد التفاهم الثقافي ، وتنوير الرأي العام في كل مجموعة حضارية ،

ورفع وعي الناس بحيث يدركون أن التنميـة الاقتصاديـة ليست غاية بذاتها ، وأن الحياة ليست عمليـة استهلاكيـة ومسابقـة في الترف والرخـاء المادي ، فليس بالخبز وحده يحيا الانسان .

لا بدّ لوسائل الاعـلام الجماهيرية مـن أن تخـدم الجهـود التي تبذلهـا جماعـات المثقفين في أوروبا والعالم العربي وأفريقيـا من أجل تقريب الشعوب من بعضها ، واقامـة علاقات جديدة بينهـا تتسم بالاحترام الحقيقي المتبادل ، بالتقدير الثقافي الفعلي ؛ ذلك أن لكل ثقافـة من القيم والابداعـات ما يؤهلهـا لأن تتبوأ مكانها في المجموعة العالمية .

الى هـذا النزوع رمى اللقـاء الثقافي بـين أوروبا والبـلاد العربيـة وأفريقيـا . والى هذا النزوع يرمي المؤتمر العالمي للسياسات الثقافيـة الذي تنظمه اليونسكو للمرة الثانيـة منذ اثنى عشر عامـا . هل سنتوصل الى نتائج مشخصة ومشجعـة ؟ ان المستقبل هو القادر على الاجابـة . وما علـى ذوي النوايا الطيبـة الا أن يستمروا في هذا السبيل .

الثقافة والثقافة المضادة:

«حول مؤتمر تونس لمكافحة الغزو الثقافي الصهيوني»

حافظ الجمالي

منذ عدة اشهر مضت ، وربما كان ذلك في اواخر ايلول عام ١٩٨١ ، دعي نفر من المثقفين العرب لحضور مؤتمر لنشر الثقافة العربية الاسلامية، خارج الوطن العربي ، عقد في تونس بدعوة من المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، او ما اطلق عليه اسم الالسكو او الانيسكو العربي .

وكنت احضر المؤتمر ، وجلساته والكلمات والمناقشات التي تدور حول هذه الكلمات . وكان من الواضح ان هناك حزاما امنيا ، افريقيا ، يجب كسبه للثقافة العربية والاسلامية ، حتى لا تستقر فيه ثقافة اخرى مناهضة ، تكيد للعرب ، وتتخذ من مغايرتها وحدها سبيلا لمعاداة العرب

والمسلمين . ولاعترف ان هذه هي المرة الاولى التي اشهد فيها مؤتمرا يتخذ من المستقبل بعدا له ، ويحاول أن يصوغه ، طبقا للمصالح العربية ، من غير أن يكون لهذه المصالح الا هدف واحد ، هو الوقوف معا ضد « الأقوياء المستعمرين » الذين لن يألوا جهدا في الكيد للعرب والافريقيين معا . وبالجملة فان الهدف مثالي ، او قل انه نوع من الحلف الثقافي المشترك ، الذي يؤلف بين القلوب ، وينشىء قاعدة مشتركة للأمن المتبادل .

ومع ذلك فقد خطر ببالي ، كما يكون قد خطر في بال الكثيرين . بعض الافكار العامة : ترى هل حالت وحدة الدين واللغة والثقافة والعادات والتقاليد والقيم العامة دون ان يكيد العرب بعضهم لبعض اشد الكيد ، ودون ان يكون بينهم من العداء ما لا يوازيه اي عداء آخر حتى مع الاعداء ، الاعداء اللدودين حقا ؟ وكل هذا مع ما هو معروف من وحدة العرق العربي ، او الدم العربي ، او ، على اقل تقدير ، ما نسميه بالشعور بالقرابة بين مختلف سكان الاقطار العربية . فكيف اذا لم يوجد هذا الشعور ، ولا رفدته وحدة العقيدة والعادات والتقاليد ، والمصالح المشتركة ، والقيم الواحدة ؟ ولو ذهبنا الى ابعد من ذلك وقلنا ان الجهود نجحت ، وعرّب هذا الحزام الافريقي ، ترى أيكون ذلك ضماناً جديا ضد اختلاف المصالح ، وتسرب العداء بفعل الاستعمار نفسه ، وهو الاقوى ، والاغنى ، والاقدر على التلاعب بمصائر الامم ؟

وخاطر آخر كان ماثلا دوما ، هو اننا نريد نشر الثقافة العربية الاسلامية ، خارج الوطن العربي . فهل قمنا بما يجب لنشر هذه داخل الوطن العربي ، وما هو متوسط الثقافة التراثية التي يملكها العرب انفسهم ؟ وهل هم كثيرون اولئك الذين يعرفون اسماء رائعة ، خالدة ، كأبي العلاء المعري ، والمتنبي ، وأبي الفرج الأصفهاني ، وابن خلدون ؟ وحتى في اطار الدين نفسه ، وهو الصق الاشياء بالانسان العادي ، أيمكن

القول : ان متوسط الثقافة الدينية بين العرب والمسلمين جملة ، شيء يرتفع به الراس حقا ؟ اوليس هنالك هبوط عام لا في الثقافة الدينية وحدها ، بل في كل صور الحياة الثقافية ؟ اولا نجد ان الكثيرين من كتابنا المشهورين ، يلحنون اذا تكلموا ، ويخطئون في القواعد اذا كتبوا ، ويرتكبون من الهفوات اللغوية ما يزيد عن الحصر ؟

اما الخاطر الثالث فانه ذاك الذي يتصل بمستوى الثقافة العربية ، لا في متوسطها العام ، بل في قممها ، ترى أيمكن أن نقارن بين من يدرس في جامعاتنا العربية ، ومستواه العلمي والثقافي ، وبين من يدرس في الجامعات الغربية ؟ ولماذا يؤثر الافريقي الدراسة في بلادنا ، اذا كان يعرف — وهو يعرف بالتأكيد — أن جامعاتنا دون جامعات الغرب ، جدية ، ومستوى ، وافقا ؟ افيكون ضعف ثقافتنا اغراء للبلداء من البلاد المتخلفة ، فيفدوا اليها ، ويفضلوها على غيرها ؟ وهل نطمح أن يكون لمثل هذا النوع من المثقفين القليلي الحظ من المواهب ، اثر ما في حياة شعوبهم ، فيحببوها لها دون غيرها ؟ اولا يفكر الانسان أن الاذكياء وحدهم ، ذوي الثقافة العالية ، هم الاقدر فعلا على التأثير في ذويهم ، وضمهم الى الركب العربي ؟ ولماذا يود هؤلاء الدراسة في بلادنا ، اذا يسرت لهم الدراسة في جامعات اخرى عظيمة السمعة ؟ وحتى الشباب العرب انفسهم ، هل منهم واحد يخير بين الدراسة في قطره ، والدراسة في الخارج ، ويؤثر الاولى على الثانية ؟ ولئن فعل ، فماذا نقول فيه ؟

* * *

لم يكن الذي قلته حتى الآن مجرد استطراد ، بل هو — فيما اخال — ذو صلة مباشرة بمؤتمر تونس الذي انعقد بين ٢٩ آذار و ٣ نيسان ١٩٨٢ . ان هذا المؤتمر الذي رعاه مؤتمر الشعب العربي ، الذي يستحق اكبر الشكر على ما يبذل من جهد ، ويقوم به من نشاط ، قد انعقد تحت عنوان : مكافحة الغزو الثقافي الصهيوني . وككل مؤتمر ، كان فيه قيل وقال . فقد قدم الباحثون ما يكاد ان يكون خمسين بحثاً ، ناقش كلا

منها مناقش واحد ، أو اثنان ، انضاف اليهم آخرون ، خلال المناقشات الحرة العامة ، وكانت المواضيع تتراوح بين البحث عن خصائص الشخصية العربية ، وبين استعراض صور مقاومة الشعب المصري لاتفاقات كامب ديفيد ، مرورا بمقومات الفكر الصهيوني ، ثم بصور التضييق على الثقافة القومية والتاريخية للأمة العربية في فلسطين،وخلص من ذلك الى ما دعي ببيان تونس الذي اعتبر وكانه يلخص كل الابحاث التي استعرضت ، والمناقشات التي علق بها على هذه الابحاث ، على حين ان الصلة ضئيلة حقا، بين هذا البيان، وبين الافكار التي دار حولها البحث في جو المؤتمر .

وفي هذه المرة ايضا ، ثارت في نفسي بعض الخواطر حول موضوع المؤتمر ، هذا المؤتمر الذي اعتبر انه يتقاضى اجره كاملا ، بغض النظر عن النتائج التي ينتهي اليها ، اذ ان اجتماع المفكرين العرب والمثقفين ،وتبادل الآراء بينهم ، هو في ذاته هدف سام ، حتى ليمكن التفكير بهذه المناسبة بمؤتمرات من غير موضوع ، اذا احتاج الامر الى بعض المبالغة .

من هذه الخواطر اولا : اني تساءلت بيني وبين نفسي عن هذا الغزو الثقافي ، ماهو ، وما مداه ؟ وهل هو موجود حقا أو غير موجود ؟ ذلك اني ــ ولست بالقارىء الكسول ــ قلما قرات كتبا ثقافية للصهاينة ، كالروايات الطويلة ، او القصص الكثيرة ، او الشعر ، او الفلسفة . ولم اعرف الا عرضا ان ابنة موشي دايان كاتبة روايات . واقول ابنته لانني نسيت اسمها . فماذا عسى ان يخيفنا من غزو ثقافي صهيوني ؟ ترى هل فكر القيمون على المؤتمر ان هذا الغزو آت ــ لاريب فيه ــ بعد تطبيع العلاقات بين مصر واسرائيل ؟

ولأقل هنا اني ترجمت ثلاثة كتب ، لمفكرين صهاينة : اثنان منهما يتحدثان عن المخابرات الاسرائيلية (احدهما بعنوان ! اسرائيل ذات اليد الطويلة . والثاني بعنوان : المخابرات الاسرائيلية بين عامي ١٩١٧ و ١٩٧٧) والثالث كتاب على صورة اسئلة وجهت الى الزعيم الصهيوني المعروف

غولدمان ، واجوبته عنها ، وهو بعنوان ، المفارقة اليهودية . الا ان هذه الترجمات لم تكن النشر بين الناس ، بل لتوضع بين ايدي المسؤولين السوريين بالدرجة الاولى ، ولا احسب انها ستذاع على الناس ، باي وجه . وعندما افكر باننا كنا نجهل كل شيء عن اسرائيل قبل ان تقوم المنظمات الفلسطينية ، باصدار نشراتها المختلفة حول مافي اسرائيل من منظمات ، وشخصيات ، واحزاب ، ومؤسسات ... الخ ، وبان كل كتاب او مصور يشير الى اسرائيل ، كان يمنع ، ولاينشر الا بعد حذف مايتعلق باسرائيل هذه ، فلاريب اني اتساءل : اينكن ان نعاني من الغزو الثقافي الصهيوني ، وقد احطنا انفسنا بكل صور هذه المناعة ، او بكل هذه المضادات الاسرائيلية ؟

ومن الممكن ، على كل حال ، ان تغزونا الثقافة الصهيونية ، من خلال ماينشر منها ، او باقلام كتابها ، باللغات الحية المعروفة ، كالفرنسية ، والانجليزية . ومن حسن حظ الصهاينة ، وسوء حظنا نحن ، ان بينهم بل ليس بينهم الا من يتكلم احدى اللغتين : الفرنسية ، او الانجليزية ، او الاثنتين معا ، هذا فضلا عن انهم مواطنون في اكثر الدول قوة وحيوية وبينهم دوما من يتحدث بلغات العالم المتقدم كله ، ويستطيع ان يكتب بها بسهولة ، فضلا عما لاصحابنا هؤلاء من هيمنة على دور النشر ، والصحافة ، ووسائل الاعلام . ولكن هل في وسعنا الا نفزى عندئذ بهذه الثقافة ، اذا هي جاءتنا مطبوعة في دور النشر العالمية ؟ واذا غزتنا ، متسربة الينا بصورة متنكرة ، أو ملتوية ، فما هي قيمة غزوها ، بالنسبة الى ماتقرؤه للمؤلفين الفرنسيين او الانجليز او الامريكيين ؟ لاشك ان هنالك اعلاما كبارا من اصل يهودي ، مثل فرويد ، وماركس ، واينشتاين ولئن كان الثاني من هؤلاء غير صهيوني ، فان اهتماماته ، على كل حال، ليست قليلة ، بالمصير اليهودي . اما اينشتاين ، فلدي الف مبرر للاعتقاد بأنه صهيوني ، لقد كان صديقا كبيرا لوايزمان ، زعيم الصهيونية العالمية حتى قبل عام ١٩١٤ ، وكذلك قل في فرويد ، ، ذلك انه عاش اضطهاد النازية لابناء ملته ، ومضى به الاهتمام ، بالمصير اليهودي ، الى الدرجة التي حلل فيها — من بعيد — نفسية موسى (في كتابه : موسى وعقيدة

التوحيد الالهي) ، ولابد انه كان صهيونيا من نوع ما ، وليكن من نوع نبيل ، في احسن الفرضيات . بل ان هنالك ادباء مشاهير ، يهودا ، مثل كافكا الذي لا يظن الاديب العربي انه اديب حقا ما لم يقراه ، وهو الذي لاتزال تتساءل مجلاتنا ، عما اذا كان صهيونيا ام لا ، مع ان الحديث عن انتمائه الصهيوني ثابت ، لامجال للريب فيه (١) . واخيرا ماذا نقول عن هوتسيرل زعيم الفينومينولوجيا ، اليهودي الذي هجر الى امريكا في العهد النازي ، وفصل من وظيفته في الجامعة ، بكتاب من عميد الكلية هيدجر ، الفيلسوف الفينومنولوجي أيضا ؟

ان هؤلاء رجال اعلام ، يقرؤهم كل مثقف في العالم ، بل لابد له من قراءة بعضهم على الاقل ، فهل نعتبر ان هذا غزو ثقافي صهيوني ؟ لئن كان الامر كذلك ، فان الوباء عالمي ، ولا مجال للنجاة منه . غير اني احسب اني لن اتأثر بالفكر الصهيوني ، مهما قرات منه ، بالدرجة التي يقال معها ! اني مغزو فكريا بالصهاينة ، بل كيف يمكن ان يصبح الامر كذلك ، او كيف يمكن ان تحملني قراءة بعض الكتب الصهيونية او اليهودية المؤلف، على ان انسى دمي ولحمي وامتي وعروبتي ؟ ولئن وجد بيننا من يتاثر بما يقرا الى مثل هذه الدرجة ، فان الوطن ليس بحاجة اليه ، وليذهب الى الشيطان كما يقولون .

وعلى كل حال فان قراءة الثقافة الاجنبية ، والاطلاع عليها تجعلنا نعرف اعلاما اجانب ، بعدد كبير جدا ، افلا يثبت في ذهننا غير الصهيوني منها ؟ ولماذا لانخاف اذن من المفكرين والكتاب الفرنسيين او الانجليز او والامريكيين او الالمان ؟

وهب آخر الامر ان الثقافة الصهيونية تنفرد في قوتها على الغزو ... ترى لماذا يسهل غزونا ، ان كنا محصنين ثقافيا ضد هذا الغزو ؟ ان

(١) انظر ترجمة كافكا ، في **Dictionnaire des auteurs** من منشورات الـ S. E. D .E في باريس ، في الجزء الثاني ، اذ جاء فيها انه صهيوني عنيف .

القضية الثقافية تخضع لمثل قانون الاواني المستطرقة ، حيث لايمكن ايقاف تسرب الماء من انبوب كثير الماء ، الى انبوب اخر ، قليله ، الا بعد وصول الماء في كليهما الى مستوى واحد ، ومادمنا ضعفاء ثقافيا ، فلابد ان نأخذ من غير ان نعطي ، وقديما كان اجدادنا قد اخذوا في مرحلة اولى، واعطوا الكثير في مرحلة ثانية . وعندما ترجمت آثار اليونانيين،واطلع عليها الناس ، وتأثروا بها ، لم يقل احد ! انهم غزوا ثقافيا ، فلماذا يقال لنا مثل ذلك ؟ اولا ينشأ هذا من ان العرب اخذوا مااخذوه من موقع القوة ،وناخذ نحن مانأخذ من موقع الضعف ، بل اننا سناخذ لمدة طويلة ، دون ان نعطي . ذلك ان العرب ورثوا تراث امم ميتة تقريبا ، كاليونان ، او امم صارت اليهم السيادة عليها كالفرس ، او امم ضعيفة القوة بالنسبة اليهم ، كالهند انذاك . اما العرب المعاصرون فانهم تجاه تراث متنام لامم حية ، متسارعة النمو ، فلا يكادون يأخذون منه شيئا ، حتى يكون قد زاد اكثر بكثير مما اخذوا منه ، بحيث ان الفارق الحضاري يزداد كبرا مع الايام ، ولاينقص ، فكيف السبيل الى ارتقاء عربي يتمثل الحضارة بسرعة ، اولا ، ثم يشارك في صنعها بعد ذلك؟ وهل الظروف التي نحن فيها ، اي الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، تهيئنا بعض الشيء لمثل هذا الوضع السعيد ؟

وخاطر آخر : ماهو حقا ذلك الغزو الثقافي الصهيوني ؟ اهو علم ؟ ان العلم عالمي الاصل ، ولايشارك فيه الصهاينة الا بنسبة جزئية لاتعد شيئا في حساب الانتاج العلمي . فهل نقف ضد العلم الصهيوني المصدر ؟ وماذا لو تعلمناه ؟ انخطىء في ذلك ام نصيب ؟ ام هو ثقافة عامة كالفلسفة والادب اي هذا النوع من المعرفة التي قد تكيف مواقف الانسان ، وتطورها باتجاه حب الصهاينة او الاستعداد لتقبلهم ؟ لاريب أن تعبير الثقافة الصهيونية يتضمن هذا المعنى بالدرجة الاولى . ولكن هل يرد في الاذهان ان بين العرب من يقبل على قراءات ادبية او فلسفية من اصل صهيوني ، ستجعله اقل فاقل رفضا لوجود الصهيونية ، واكثر فاكثر تقبلا لها ؟

اني اشير الى هذا المعنى الاخير ، لاذكر حديث مدرسة عراقية ، في المؤتمر ، في تعليق لها على بحث الدكتور هاني الراهب حول الفكر

الصهيوني واصوله لدى آبائـه الروحيين . فقد جـاء في كلامها تحليل لمجموعة روايات صهيونية حديثة ، تقابل كلها بين العربي ، الكسول ، القذر ، الكاره للنظام ، الجاهل ، الذي لا يتعاون مع السلطة ، حتى لانقاذ ممتلكاته من الخطر المحيق بها ، وبين اليهودي ، الجاد ، النظيف ، المحب للنظام ، المتعلم ، الطيب ، المتعاون مع السلطة الشرعية التي اختارها هو بنفسه . فهل يمكن ان نقرأ مثل هذا الادب ، ونتضاءل في الوقت نفسه رفضنا للصهيونية ؟

وتابعت الدكتورة حياة الجاسم حديثها ، فاقترحت ان تعلم اللغـة العبرية في كل الجامعات الغربية ، وان تنشأ مؤسسة لترجمة عيون الآثار الادبية الصهيونية . وعندما انتهت من حديثها ، وخلا بعضنا الى بعض سألتها : انك تدعين لمزيد من الغزو الثقافي في مؤتمر لمكافحة هذا الغزو . فكيف تنسجم دعوتك مع موضوع المؤتمر ؟ فقالت : لماذا لايأبى الصهاينة الترجمة لنا ، والتعريف باعمالنا ، ولماذا لا يخشوننا كما نخشاهم ؟ ولم اجب عن هذه الملاحظة ، اذ يجب الا يجهل احد ، ان من كان وراءه اكبر امبريالية عالمية ، فانه لا يخشى احدا خشية عسكرية . ولكن الا يمكن ان تكون الغلبة الثقافية للأدنى في التفوق العسكري ، على الاعظم درجة فيه . فلِمَ لا يخشى الصهاينة غزونا الذي يساعدوننا عليه بترجماتهم ؟ لاريب ان السبب هو اننا مقصرون ، حتى في المستوى الثقافي . ولكن هل معنى ذلك ان البنى الهشة هشة في كل شيء ؟ او لا يمكن ان يكون هنالك قلب قوي في جسد مريض ؟ وعلى كل حال ، فان هذه الملاحظة بمجملها ، تشدنا الى معاينة اختلاف وجهات النظر من النقيض الى النقيض .

وملاحظة اخرى تأتي هنا في مكانها : ترى هل يمكن القول ان نجاح الصهاينة في مشاريعهم ، يدين بوجوده واستمراره الى ثقافاتهم العلمية والادبية والفلسفية ، تماما كما الغرب مدين بتفوقه الى جملة ثقافته ؟ ولئن صح ذلك ، افيكون من الخير ان نقبل هذا الغزو الثقافي ، ام ان نقف ضده ؟ ان حاضرنا او واقعنا العربي في كل بلادنا هش جدا ، خامل ،

خائر ، لايشد ازر الصديق ، ولا يدفع غائلة العدو . أفلا يعبر هذا الواقع عن مستوى ثقافي هش ، هو الاصل فيما نعانيه من هذا الواقع ؟ وما دامت الثقافة الصهيونية (ذات الاصل والمصادر الغربية ، وتكاد ان تكون بلا اضافات صهيونية ، اي انها هي الاخرى مستوردة) تثبت الوجود الصهيوني ، وتقاوم خصومه ، افلا يكون من اسباب نجاحنا في مشاريعنا ان نقبل غزو هذه الثقافة ، تماما كما نقبل غزو الثقافة الغربية ؟ ولماذا نرحب بهذه ،ونتنكر لتلك ؟ اليست الاولى بنت الثانية ؟ واذا صحت ملاحظتنا ، افلا تكون الدعوة اصح ، عندما تكون دعوة الى مزيد من الغزو ، لا الى الوقوف ضده ؟ اوليس من نافلة القول ان اهم صور الثقافة الصهيونية ، اي العلم وتقنياته ، ليست شيئا آخر غير الثقافة الغربية نفسها ، منتقصة بعض الشيء من بعض النواحي ؟

لاشك ان الذي يقصد من مقاومة الثقافة الصهيونية ليس التنكر للعلم ولا للتقنية ، اللذين تمتلكهما ، بل هو التنكر للثقافة الاخرى ، اي الادبية والفلسفية ، والخوف من ان تقدم لنا اسرائيل صورا من ثقافتها تغرينا بها وتحملنا على تقبل وجهات النظر التي تيسّر قبولها بيننا ، اذ قد يوجد بين الجهلة وانصاف المتعلمين من يخدع بسهولة ، ويقبل من عدوه ما لم يكن يقبله ، لو قدّر لثقافته ان تنتشر . وحقا لئن كان بين مواطنينا من تنطلي عليه هذه الخدعة ، او يقبل هذا الاغراء ، فعلى مواطنينا والدنيا كلها السلام . لكني أتساءل : أليس نشر الثقافة الصهيونية أيسر على اسرائيل في قطاع غزة والضفة الغربية ، منه عندنا ؟ ولماذا لم يؤد هذا كله الا الى غربة اكبر ، وعداء اكثر من قبل شعبنا هناك ، ضد هذا العدو ، على الرغم مما يفعله لتعزيز ثقافته ، ومن حريته التامة في نشرها ، والتضييق على غيرها ؟

* * *

ولكن هذه الملاحظات ليست كل ما يقال حول المؤتمر . بل ان جو المؤتمر هو الجدير بأهم الملاحظات . ولدي في ذلك ملاحظات من نوعين :

١ ـ أولهما ، ان اعضاء المؤتمر على اختلاف اقطارهم كانوا مجمعين على بعض الاشياء ، كل الاجماع ، مختلفين حول بعضها الآخر ، كل الاختلاف .

اما ما هم مجمعون عليه، فهو الضيق الكبير بالاوضاع العربية السائدة، والاعتقاد بما شبه اليقين انها مسؤولة عن التردي الكبير الذي تشكو منه الحياة العربية ، وان هنالك خطين يتوازيان باستمرار ، خطر الاستقرار المتزايد للعدو ، وخط القلق المتنامي في الامة العربية ، فكأن الذي يزيد لدينا هو الضعف ، وكأن الذي ينمو لديه هو القوة . فهل يمكن القول : ان الانظمة العربية ، بجملتها ، في أحسن العافية . على الرغم من تزايد القلق في الشعب ، واستفحال خطر العدو في الوقت نفسه ؟ بل كيف تكون في مثل هذا التردي ، وانظمتنا في أفضل صور السلامة ، أو في وضع معقول منها ؟ على الاقل ؟ وكيف يتزايد التردي في الاوضاع العربية ، ويشتد بأس العدو ، ثم لا تستخلص الانظمة النتائج المنطقية التي لا يمكن الا استخلاصها متى كان الانسان تجاه امر من هذا النوع ؟ وهب القضية كلها امتحانا مايجتازه طالب ، ويرسب فيه ، كل مرة ، ولكن بعلامات أقل فأقل . ترى الا ينبغي ، اما للطالب ، واما لافراد اسرته ، ان يلاحظوا ان انسانهم هذا هو اما بليد ، ضعيف المواهب ، قليل الجد ، واما انه ذكي ، ولكنه لا ينشط للدراسة ولا يأخذها مأخذ الجد ؟

لقد كانت هذه الملاحظة موضوع اتفاق بين المؤتمرين ، بوجه عام ، وكذلك كان الاتفاق على ضرورة استعادة المواطن لحريته ـ لا للديمقراطية كنظام للحكم ، يمكن ان يلبس كل الاشكال ، الاقل ديمقراطية ، ويطلق عليها مع ذلك ، اسم الديمقراطية ـ بل لحرية التعبير ، وحرية القول ، والنقد ، والمناقشة ، وطرح القضايا العامة ، من اي نوع كانت ، على بساط البحث ، والتداول في خطئها وصوابها بأكبر الحرية ، لا بأضيقها، وفي هذا المجال يمكن القول : ان كل الباحثين ، لامسوا بصورة أو بأخرى،

موضوع الحرية ، وكل المستمعين (وهم كثر جدا ، اذ ان الشبيبة التونسية ، وجمهورا ضخما من المثقفين ملأوا دوما كل الابهاء ، وكل مكان يمكن ان يتسع لقدمين واقفتين) كانوا يصفقون بحرارة لكلمة الحرية، بذاتها ، بغض النظر عن الجملة التي تحتويها ، والاسلوب الذي تقال فيه ، والسياق الذي ترد في إطاره ، كأن الكلمة وحدها اصبحت ذات قوة سحرية تجتذب القلوب تلقائيا ، وتنتزع أشد التصفيق عفويا .

وعندما يلاحظ احد الناس أن للحرية شروطا اقتصادية ، واجتماعية ، ودرجة من الرقي الاجتماعي ، والوعي السياسي ، على سبيل الاعتذار عن قيام نظم مضادة لهذه الحرية في البلاد العربية ، فان الدهشة تصبح كبيرة ، من سوء الظن الى هذه الدرجة بالشعب ، واتهامه بقصور الوعي ، وضعف النضج ، كما لو انه طفل صغير يحتاج دوما الى النصح ، والهداية ، والمراقبة ، والوصاية . وينطرح التساؤل مباشرة : كيف حدث انه لم يوجد في الشعب الا هذه المجموعة من القائمين بأمره ، وان هذه المجموعة وحدها هي التي تملك الوعي ، دون الناس أجمعين ؟

غير ان الاتفاق في الكلمة هنا (وعلى المطامح العامة ، بصفة خاصة) لاينفي الاختلاف من ناحية اخرى ، ولاسيما في النظرة الى جملة من القضايا الفكرية أو العلمية . وعلى سبيل المثال ، فان بحث خصائص الشخصية العربية ، تناوله باحثان ، وقال احدهما ان أهم سمة في هذه الشخصية ، هي الميل الى التوحيد ، أو الوحدانية . ذلك ان الميل الى القول بإله واحد ينطوي ضمنا على القول بعادات واحدة ، وتقاليد واحدة ، وقيادة واحدة ، وقوانين واحدة ، واطلاق واحدة ... الخ . وقال الثاني – بالاستناد الى كلمات الجاحظ في البيان والتبيين ، عندما يقابل بين براعة العرب في الخطابة ، وقصور الشعوب الاخرى عن المستوى العربي فيها – انها شخصية بيانية ، اي انها تحب الكلمة ، وتسحر بجمالها ، وتعشق الشعر ، وتطرب للمعنى الجميل ، وتعجب بحسن

الاستعارة ، ولطف التشبيه ... الخ . مما يذكرنا بكلام بعض الغربيين عن غرام العرب بالكلمة ، وعزوفهم عن العمل ، وقصورهم في التفكير المنطقي ، واغراقهم في التأملات الصوفية ، دون التأملات العلميـة ولاشك انه يمكن ان نجد بعض الحقيقة في اقوال هؤلاء الغربيين ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة ان هذه الملاحظات لا تنطبق على الغربيين أيضا ، او على كل شعوب العالم ، فيما تسند اليهم . أما ماتنفيه عنهم ، فلابد انه ليس بالخصائص العرقية الا بمقدار مايوجد أناس يؤمنون بالمذهب العرقي . غير ان الايمان بهذا المذهب ـ عدا رجعيته ـ لا يعني انه قام البرهان عليه . ولست ادري هل من شعب في العالم هوجم من كل امة ، وتعرض لكل غزو ، واصابته كل النوائب ، وبقي مع ذلك ، قادرا على طول الباع في التفكير التأملي ، او المنطقي ، او العلمي ؟ او لا يحتاج هذا الى شيء من الشعور بالامن ، الشخصي والقومي ، وبعض الاطمئنان للمستقبل ؟ وهل وجد شعبنا في اية لحظة خاليا من القلق ، في الحالين ؟

اما الوحدانية ، فهي مسلمة دينية ، تشد الناس الى مثل اعلى . ولئن كان الواقع يستجيب لهذا المثل مباشرة ، اذن لما احتاج احـد الى الدين . ايمكن ان تسحب سمات المثل الاعلى على الواقع المعيش ؟ ان الخطأ المنطقي هنا كبير جدا . ذلك ان الواجب ينقلب بقدرة قادر الى واقع . وليس هذا من السلامة في شيء . ترى ايجب ان يكون الناس فضلاء بالضرورة اذا كان دينهم يدعو الى الفضيلة ؟ ومن « المأثور » في الملة ، انه اذا كان هنالك ملكان للمسلمين ، فيجب قتل احدهما . فهل عني هذا يوما من الايام ، انه لم يكن للمسلمين الا ملك واحد ؟

واذا كنا نفيض بعض الشيء في بحث ماقيل حول خصائص الشخصية العربية ، فلاننا نريد اولا ان نتبين الى اية درجة تختلف آراء المفكرين العرب حول سمات شخصيتهم العربية ، كأن احدا منا لا يعرف ماتنطوي عليه نفسه . ثم اننا نريد ان نتبين ان واضعي هذا البحث في اطار ابحاث المؤتمر ، قد قصدوا ، فيما أحسب ، الى بيان جملة السمات النفسية

القائمة في هذه الشخصية والتي تيسر للاستعمار غزوه ، أو تفسره . ومع ذلك فما من احد طرح هذه الوجهة من النظر ، ولا أقام لها وزنا .

والآن هل يسعنا القول : ان « البيانية » أو « الوجدانية » كسمة جامعة للشخصية العربية ، خطأ محض ؟ أو لا يوجد هنا وهناك ما يشير الى ان لمثل هذا الفكر بعض جوانب الحق ؟ اما انا فاظن ان ما قيل ليس كله خطأ ، وكذلك ليس كله صوابا . والمشكلة الكبرى هي اننا نريد انشاء « الشخصية العربية » انشاءا على اساس سمة واحدة . فهل هنالك شخصية في الدنيا ، لها سمة واحدة جامعة ، خلال تاريخ طوله عدة آلاف من السنين ، وعلى الاقل الف واربع مئة سنة ؟ او يمكن ان تكون النفس العربية التي صنعت المجد العسكري العربي ، والاخرى ، التي انشأت الحضارة العربية ، والثالثة التي لا تعرف الا الهزيمة في كل ميدان ، من طبيعة واحدة ، ونسيج متجانس ؟ وهل قدت النفس العربية من الحجر ، فلا يتغير لها شكل ، ولا لون ، رغم تغير الظروف المحيطة بها ؟

ان اكبر خطأ يرتكب في دراسة الشخصية العربية ، هو الخطأ المنهجي . فمن اين جئنا مثلا بصيغة « الوجدانية » او بصيغة «البيانية»؟ وهل كان ذلك نتيجة انطباع شخصي ، أو حدس فردي ، أو نتيجة دراسة منهجية بينت لنا أن سمة ما ، هذه او تلك ، هي كل مايشترك فيه أفراد الامة العربية من السمات والخصائص . اني اذكر هنا دراسة قام بهـا كـل مـن كاتز وبرالـي ، لمعرفـة المخنطات العرقيـة ، أي ما التصق بكل شعب من السمات ، نتيجة السمعة ، وتكرار الآراء ، واقوال الصحف ، وملاحظات الخبراء . وبدأت التجربة بأن صنفت بعض الرهوط العرقية تبعا لافضليتها ، من قبل ٦٠ طالبا ، مما ادى الى وضع نضيف يماثل ما اقرته دراسة سابقة لباحث آخر هـو Bogartus . أما في القسم الثاني من التجربة ، فقد جاء فريق من الطلاب وانشأ قائمة بالخصائص النفسيـة التي يعتبرونها نموذجيـة أو مميزة لكل عرق او قومية . وتم الحصول على ٨٤ سمة ، بهـذا

الشكل وجاء بعد ذلك ١٠٠ طالب آخرين وانتخبوا بين هذه السمات كلها السمات الخمس التي لاح لهم انها اكثر السمات بروزا في كل من الرهوط العرقية العشرة ، موضوع البحث . وكان الباحثان يرغبان ان يعرفا ، بالاعتماد على درجة الاتفاق بين الحكام ، ما اذا كان يوجد او لا يوجد محنط معين ، سابق التجربة ، ملازم لكل عرق . وكان المقياس الذي اتفق عليه هو اقل عدد من السمات التي كانت تجب اضافتها للحصول على ٥٠٪ من الانتقاءات الخمس التي قام بها المئة طالب ، من اجل كل رهط . وعلى ذلك فان النتيجة كان يمكن أن تتراوح بين ٣ و ٥ ، لو ان السمات الخمس المنتقاة ، كانت واحدة عند جميع الافراد ، و ٤٢ لو ان السمات الثمانية والاربعين من القائمة ، كانت تذكر كلها كخصائص للرهط الذي نبحث في امره . وكانت النتائج تقدم صورة عامة لنفسية كل شعب، على ما يراها الامريكيون. وجاء في النتائج ان:

٧٨٪ من طلاب جامعة برنستون قالوا بان الالمان « ذوو تفكير علمي »

و٦٥٪ وصفوهم بأنهم « يحبون العمل »

واستخدم ٥٣٪ كلمة الفنان في وصف الايطاليين

و٨٤٪ ذكروا بان السود يؤمنون بالخرافات

و٧٥٪ قالوا انهم كسالى

و٥٣٪ وصفوا الانجليز بأنهم لاعبون ممتازون

و٧٩٪ قالوا بان اليهود خبثاء

و٥٤٪ قالوا بان الاتراك قساة

وبالجملة فان البحث هنا يكشف عن رأي جمهور معين في نفسية قوم او آخر ، ويكشف عن الفكرة الثابتة القائمة في نفس هذا الجمهور، حول كل عرق . لكن هذا لا يعني ان سمات المحنط المستقر في الاذهان ، هي تماما سمات العرق الموصوف . ولابد من دراسة اخرى ، تبين مثلا ، ان اصحاب العلاقة يصفون انفسهم ، كما يصفهم الاخرون .

فهل من باحث عربي قام بأوليات هذه الدراسة لسمات الشخصية

العربية ؟ وهل من حرج اذا قلنا ان ما يتسم به باحثونا ، بالدرجة الاولى، هو ضعف الفكر العلمي ؟

وقل مثل هذا في موضوع الغزو الثقافي ، قديما وحديثا . فهنالك ــ راي يقول اننا اعطينا الغرب كل شيء ، ونحن الاصل في كل حضارته . وبتعبير آخر، نحن الذين غزونا ثقافيا . وهنالك ــ راي آخر يقول العكس. اي اننا غزينا ثقافيا من البداية دوما ، اي بالاسرائيليات في تفسير القصص القرآني ، وبالفلسفات الافلاطونية والمزدكية ، فيما يتعلق بفهم الدين ، وبالفلسفة اليونانية فيما يتعلق بالتفكير المعتزلي ، وحديثا نحن نغزى بألف صورة ، لان جامعاتنا لا تدرس الا كتب « الآخرين » الاجانب ، حتى فيما يتصل بنظريات التاريخ العربي ، والادب العربي .

ولكن الى ماذا انتهى المؤتمر : لقد سبق لنا القول : ان بيانه الختامي قليل الصلة ببحوثه الفعلية . وربما كان هذا شأن كل المؤتمرات العربية على الاقل . فنحن نريد ان نقول شيئا ما ، نعتبره هاما . فندعو الى مؤتمر ، ونقول على لسانه ما كنا نريد ان نقوله قبله .

ولكن الى ماذا انتهى المؤتمر : لقد سبق لنا القول : ان بيانه الختامي

ــ ان الفكر العربي استطاع قديما حل الكثير من المشكلات الحضارية التي صادفها شعبنا ، وسيظل كذلك حتما . (تأكيد ايمان) .

ــ ان ظروف امتنا الخطيرة متناقضة مع ما يملكه شعبنا من قدرات التغلب عليها الا باعمال سلاح الفكر المعطل اليوم واذن فلابد من تثويره، والقيام بثورة ثقافية .

ــ ان ظروف امتنا الخطيرة متناقضة مع ما يملكه شعبنا من قدرات على التقدم .

ــ لابد من حلول جذرية شاملة ، لا تفصل فيها معارك الحرية والديمقراطية والاشتراكية والوحدة العربية ، بعضها عن بعض ، ولا

فصل المعركة مع العدو الاجنبي عن المعركة من اجل الحرية والتقدم والعدالة الاجتماعية ... اي لابد من تثوير الواقع العربي (تاكيد القول بأن الواقع العربي محافظ وغير ثوري) .

ـ ان معاهدات كامب ديفيد ، خلقت وضعا بالغ الخطورة بالنسبة للامة العربية ، لانه يهيء لغزو ثقافي للعقل والفكر والثقافة العربية كمقدمة لاحتلال الارادة العربية . وكانت امتنا قد عرفت صورا لهذا الغزو في الماضي ، اثرت في حياتها تأثيرا عميقا . ولو انها جميعا لا تهدف الا الى تفتيت الشخصية العربية ، والقضاء على كل امل مشترك بين افراد الامة العربية في اقامة وحدة قومية ، بدلا من الكيانات الطائفية والعشائرية .

ـ ان الانسان العربي هو وحده القادر على احباط مؤامرات الاستعمار والامبريالية والرجعية . ولهذا فقد تلازمت دائما مع الاقليمية والتبعية ظاهرة القمع والاستبداد واهدار الحقوق الاساسية للانسان العربي ، فمورست ضده ابشع اساليب القهر والطغيان ، لذلك كانت الديمقراطية وستظل عنصرا رئيسا في بناء المنهج القومي المضاد للاقليمية والتبعية والتخلف ووسيلة لتحرر الانسان وانعتاقه .

تلك هي النتائج التي انتهى اليها مؤتمر تونس . ولا شك أن المؤتمرين لم يقولوا هذا صراحة ، لكنهم بالتأكيد يوافقون عليه . ومن المؤسف انه جرت محاولات لتعريف الديمقراطية بحرية التعبير ، والحريات الاخرى اللازمة لها . ويبدو ان الهيئة المشرفة على تحضير المؤتمر لم تر هذه الاضافات ضرورية .. ولو انها في رأينا هي الاهم والاعظم . أو ليست الديمقراطية قد اتسعت حدودها فاصبحت تضم الشيء ونقيضه معا ؟ ثم الم يكن يريد المؤتمر ان يقول اشياء كثيرة اخرى غير هذه العموميات الطيبة التي تبدو كالبديهيات بالنسبة لاي شعب يستيقظ على الحياة ؟ لا شك ان المؤتمر كان يريد أن يقول الكثير الكثير ، الذي ليس من اهمه

أن حياة الامة غير طبيعية ؛ وان انتاجيتها ليست في مستوى امكاناتها ، وان قصورها الحالي ليس ابنا شرعيا لكفاءاتها الطبيعية . ولئن كانت المجاملة ضرورية دوما ، فانها ليست بالضرورة عدوة الصراحة ، ولا سيما في الظروف الحرجة جدا التي تعيشها الامة ، على ما لاحظ كل المؤتمرين . اذ لا معنى للمجاملة عندما يكون الاختيار قائما : فاما الموت ، واما الحيــاة .

وفي طريق العودة الى دمشق ، تساءلت في نفسي مدة طويلة ، ولا ازال! ترى أهي قضية الغزو الثقافي الصهيوني ؟ أم هي قضية الشعر الحديث، التي تعتبر لدينا القضية رقم ١ في حياتنا ؟ أم هي اخيرا واولا ايضا قضية التخلف ، بمختلف وجوهه ، هي هذه القضية ؟ ولاحظت باسف ان الشعر الحديث وقضاياه يشغل العقول ، وتكتب فيه الكتب ، اكثر بالف مرة من قضية التخلف التي ينشأ عنها كل البلاء . ترى اليس بالانحراف العقلي ان نبحث قليلا في القضايا الهامة ، وكثيرا في القضايا الثانوية ؟ أو ليس هنالك مجال لمؤتمر يبحث في قضية التخلف ، او في قضية هبوط الوجود العربي المتزايد ، ازاء نمو الوجود الصهيوني ؟

* * *

مدخل إلى عالم
فـؤاد الشـايب

عيسى فتـوح

هو كاتب ريفي النشأة ، ليبرالي النزعة ، صقلته دمشق ، فكان من ابرز شبانها المثقفين ، ومفكريها الاحرار .

ولد في « معلولا » ـ احدى قرى جبال القلمون ـ في ٢١ تشرين الثاني عام ١٩١١ ، ولم يكد يحس بنبض الحياة ، ويأخذ حظه من مبادىء التعليم ، حتى انتقل الى دمشق ، ليتابع تحصيله في مدرسة « الجامعة العلمية » التي اسسها الاستاذ سليمان سعد ، وكانت اشبه بجامعة صغيرة ، تستقبل طلابها من مختلف الاقطار العربية ، وتعلم اللغات العربية والانكليزية والفرنسية ، في جو مفعم بالاخاء وعزة النفس ، واشاعة روح الديموقراطية والحرية .

في هذا الجو المدرسي بدات مواهبه تشع ، فنال عام ١٩٢٨ جائزة التفوق الاولى في اللغتين العربية والفرنسية ، ولم يشأ ان يظل محدود الافق ، فانتسب الى كلية الحقوق عام ١٩٢٩ وتخرج منها عام ١٩٣٢ .

كان الادب العربي احد مقومات ثقافته ، فحفظ الكثير من الشعر القديم وشعر المعاصرين ، وعكف على مطالعة ما كتبه ائمة البيان ، واعلام البلاغة .

واذ اخذ زملاؤه طريقهم الى الغرب لمتابعة دراساتهم الجامعية ، فقد سافر هو أيضا الى باريس ، يعب من معاهدها الثقافية ، ويتزود من اللغة الفرنسية وآدابها ، فمكث مدة سنتين (١٩٣٢ – ١٩٣٤) رجع بعدهما وقد اعتنق الكثير من المبادىء الحرة ، والنظريات الاشتراكية .

وحين رجع الى دمشق كان الصراع على أشده بين التيارات الوطنية ، ورجال الانتداب الفرنسي ، وكان لا بد له من أن يسير مع الشباب في نزعاتهم الوطنية ، وصراعهم القومي .

واذا كان محصوله الثقافي اخذ يتبلور في التعبير عن آرائه ، فقد بدأ يكتب في الصحف والمجلات – كتب المقال الادبي ، والمقال السياسي ... كما كتب القصة القصيرة ، حتى اعتبر من اوائل الشباب الذين عالجوها بمضمونها القومي والاجتماعي .

وسرعان ما اجتذبته الصحافة الى رحابها ، فبدأ يترجم عن الصحف الفرنسية ، ويعلق على الاحداث السياسية ، ولا سيما ذات الاتصال الوثيق بالقضية الوطنية ...

وقد ظل يحرر في جريدتي « فتى العرب » و « الإستقلال » من سنة ١٩٣٥ حتى سنة ١٩٣٩ ، كما كتب في عدة جرائد ومجلات سورية ولبنانية ، كمجلة « المعرض » لميشيل زكور ، و « المكشوف » لفؤاد

حبيش ، و « الصباح » ثم « الدنيا » لعبد الغني العطري ، و « الاديب » لالبير أديب ، و « الآداب » للدكتور سهيل أدريس ، و « النداء » لكاظم الصلح ـ وهي من الجرائد الكبرى التي كانت تعبر عن الاهداف العربية بجراة وصدق واخلاص .

وقد ارتاح للعمل في جريدة « فتى العرب » لصاحبها المرحوم معروف الأرناؤوط الاديب الروائي الذي كان يضفي على مقالاته السياسية ظلال الادب ، بأسلوب رومانسي .

واذا كان فؤاد الشايب لم يتأثر بأسلوب مؤلف « سيد قريش » ، الا أن حرصه على قوة السبك ، وجمال ديباجة المحررين حفزه على ان يعنى بأسلوبه ، فكانت مقالاته المترجمة والموضوعة لا تنأى عن صفاء الاسلوب ، ومتانة السبك ، وجمال الديباجة ، وهذه الفترة التي قضاها محررا في الجرائد اليومية ، زودته بالكثير من الخصائص ، وخلقت في نفسه المناعة ليواجه الاحداث بروح رياضية ، الى قلب يخفق بالمحبة والترفع عن مجاراة مناوئيه بالكيد والدس .

وحين اسس ميشيل عفلق ، وكامل عياد ، وسليم خياطة مجلة « الطليعة » لتكون لسان حال المثقفين الاشتراكيين ، وقف الشايب الى جانبهم ، وكتب في مجلتهم عددا من المقالات ، ثم وقع خلاف بين المؤسسين انفسهم ، فقد اراد بعضهم أن تكون مجلة حرة للثقافة العامة ، وارادها بعضهم ان تكون صوت الشيوعيين في عاصمة الامويين ، فانفصل عفلق والشايب عنهم ، وظلت المجلة لسان حال الشيوعيين .

هذا ، وما كاد يطل عام ١٩٣٩ على احداث الحرب العالمية الثانية ، وتتأزم الامور في سورية ، حيث لم يعد أي مجال للعمل الصحفي ، حتى سافر الى العراق للتدريس ، فمكث حوالي سنتين يدرس الادب العربي في ثانويات بغداد ، وقد تولى وهو هناك رئاسة تحرير جريدة « البلاد » لصاحبها المرحوم روفائيل بطي الذي ترك بغداد اثر اندلاع ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ .

. وحين عاد الى سورية عام ١٩٤٢ التحق بوظائف الدولة ، فعين رئيسا لقلم المطبوعات ، وظل يشغل هذا المنصب من عام ١٩٤٣ حتى عام ١٩٥٨، وخلال هذه الفترة الطويلة توثقت صلاته برجال الصحافة واعلام الفكر، والعديد من الوزراء والرؤساء ... وكثيرا ما واجهته الازمات في احلك الظروف العصيبة التي مرت بالبلاد ، فتحملها بصبر وجلد ، وبسخرية باسمة هازئة ، الى رجولة صمدت للاعاصير دون طاطاة الراس .

وقد تقلّب في مناصب كثيرة ، فمن رئيس دائرة في الدعاية والانباء (١٩٥١ – ١٩٥٣) الى مدير عام للدعاية والانباء (١٩٥٤ – ١٩٥٩) ، الى مدير عام للاذاعة (١٩٥٣ – ١٩٥٥) ، بالاضافة الى عمله الرئيسي الى مدير للمكتبات في وزارة الثقافة والارشاد القومي التي انتقل اليها كليا في ١٩٥٩/٥/١٠ ، وهي مراكز حساسة جدا ، ومع ذلك فقد كان في جميع المراكز التي شغلها الاديب العف اللسان ، النزيه الضمير ، الواثق بقداسة العمل ، يعطيه الكثير من جهده ومرونته وادبه واخلاصه .

وفي عهد الوحدة بين مصر وسورية ، ندب للقاهرة في ١٩٥٩/٦/١ ليتولى منصب مدير عام في ملاك رئاسة الجمهورية ، وظل في هذا المنصب المرموق حتى عهد الانفصال – ٢٨ أيلول ١٩٦١ .

وبعد الوحدة عاد الى دمشق ، فشغل وظيفة مدير الارشاد القومي في وزارة الثقافة عام ١٩٦٢ ، وكلف في الوقت نفسه برئاسة تحرير مجلة « المعرفة » التي اصدرتها الوزارة في الاول من اذار عام ١٩٦٢ ، ثم سمي أمينا عاما لوزارة الاعلام ، عاد بعدها الى رئاسة تحرير المجلة ، كما سمي عضوا في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية، ومقررا لشعبة الاداب في ١٩٦٣/٨/١٣ .

وقد كان انتاجه الادبي ، خلال فترات حياته في العمل الحكومي ، محدودا وغير متكافىء مع ما ينبض في قلبه من احاسيس ، وما يرتسم في ذهنه من آراء وافكار ، وسبب ذلك طغيان عمله الرسمي المرهق على

نزعاته الادبية ، ولو انصرف الى عالم الفكر ، لكان انتاجه اغزر واكثر قيمة ، ومع ذلك فقد استطاع ان يجاري التيارات الادبيـة في شتى المجالات الفكرية ، فساهم في تأسيس الجمعيات الادبية كـ « نـدوة المأمون » عام ١٩٣٣ ، و « جمعية ادباء الاقليم السوري » ١٩٥٩ التي كان رئيسا لها ، واشترك في الكثير من المؤتمرات ، ولا سيما المؤتمرات الادبية ، كمؤتمر الادباء العرب الثاني الذي عقد في دمشق (بلودان) عام ١٩٥٦ ، والمؤتمر الثالث الذي عقد في القاهرة عام ١٩٥٧ ، والمؤتمـر الخامس الذي عقد في بغداد عام ١٩٦٥ ، وقد ارتفع صوته في هـذه المؤتمرات وغيرها بكلمات ومحاضرات ذات اهداف قومية سامية ، ترمز الى قوى « الذات العربية » المتحررة المنطلقة التي تريد ان تبني حاضرها على دعائم وطيدة ، لخلق مستقبل زاهر ، يكون أزهـر من ماضيها المشرق .

في عاصمة الارجنتين :

تاقت نفس المرحوم فؤاد الشايب في السنوات الاخيرة الى الاغتراب ، وتغيير نمط الحياة الرتيبة في دمشق ، واحب أن يجرب الاغتراب الحقيقي الذي كان يتشوق اليه لانه ــ كما يقول في احدى رسائله للأستاذ عبد اللطيف اليونس صاحب جريدة « الأنباء » في البرازيل ــ « مغترب مقيم ، مغروسة في كبده أوتاده ، مهدمة على راسه خيمة مقامه . بعض البشر يغترب ويستطيع الاغتراب فيرحل ، ويقلع أوتاده ، وبعضهم يتشوق الى الاغتراب . أنت يا استاذ عبد اللطيف من البعض الاول ، وانا من البعض الآخر ، ولعلك تحسدني ، ولعلي احسدك ، وكلانا كالذبابة مع اختلاف الواقع ، من صحن العسل المغطى بالشاش ، لعلني أختنق واغـرق في العسل ــ ان كان ثمـة عسل ــ ولعلك تحوم فوق الصحن ، وتحسد الغارقين في الحلو والمر حتى الهلاك ! » .

ولذلك لم تكد وزارة الخارجية السورية تعلن عن رغبتها في اختيار مرشحين لشغل وظائف رؤساء مكاتب الجامعة العربية في الخارج ، حتى

سارع في ١٩٦٢/٢/١ الى ترشيح نفسه ، وتقديم عرض بكفاءاته وخدماته انهاه بقوله : « ازعم انني توفرت على خدمة بلادي وعروبتي في المجال الرسمي ، وفي العمل الفكري ، بكل امانة وصدق واتقان ، وارجو ان يتاح لي الاستمرار في هذه الخدمة ، عن طريق جامعة الدول العربية » .

وفي ١٩٦٢/٢/١٤ تمت موافقة وزير الثقافة على طلبه وقال : « يؤسفنا ان يتقدم الاستاذ فؤاد الشايب ، مدير الارشاد القومي ، بطلب تعيينه رئيسا لأحد مكاتب الجامعة العربية في الخارج ، في وقت تعتبره الوزارة فيه عنصرا اساسيا من عناصرها ، عرف عنه الخلق القويم والاخلاص في العمل .

ولكننا ازاء رغبته الملحة ، لما يمكن ان يقدمه لبلادنا من خدمات جلى في ميادين خبرها جيدا ، وتمرس فيها طويلا ، لم يسعنا الا النزول عند رغبته ، والموافقة على طلبه .

وانا لواثقون ان بلادنا ستفيد منه كثيرا في نطاق عمله الجديد ، كما اننا نعتبر ان وجود شخص مثل الاستاذ فؤاد الشايب بين موظفي الجامعة العربية ، ضمانة قومية وخلقية في آن واحد » .

وفي ١٩٦٦/١٢/٤ تمت الموافقة على اعارة المرحوم فؤاد الشايب الى جامعة الدول العربية لمدة ثلاث سنوات ، ليعمل رئيسا لمكتب الجامعة العربية في بونس آيرس ، وفي شباط ١٩٦٧ التحق بعمله الجديد ، بعد أن زار الامانة العامة في القاهرة ، فاستقبلته الجالية العربية بحفاوة بالغة ، لان شهرته كانت قد سبقته الى هناك ، وقد امضى في هذا العمل ثلاث سنوات ، تعرض خلالها للكثير من حملات المنظمات الصهيونية التي قامت بعدة مظاهرات أمام مكتب الجامعة ، وتهجمت عليه شخصيا ، وكانت احداها في ١٩٦٩/٩/٢ فاصيب على اثرها بنوبة قلبية حادة ، نجا منها بأعجوبة .

واستمرت الحملات الصهيونية ضده ، الى ان القيت قنبلة محرقة على المكتب في ٢٨ شباط ١٩٧٠ ، ادت الى تدمير جزء منه ، وقد اثر ذلك بشكل مباشر على صحته ، كما افاد الدكتور ادوارد حبيب في تقريره ، وكان يشرف على علاجه دائما ، الى ان ادركته الوفاة بالسكتة القلبية يوم ١١ تموز عام ١٩٧٠ ، فنقل جثمانه الى مسقط راسه في معلولا ، تلك القرية التي كان يزورها في آخر كل اسبوع « فيلتقي ترابي بترابها ، وهواي بهوائها ، واخوض كفي بطينة القرنفلة التي غرستها ، واشم عبيرها مع انفاس الفجر ... استريح على شهقة وزفرة من الاعماق تلفظ كلمتي : الحمد لله ! » .

لقد كانت خسارة العرب بوفاته جسيمة ، لانه كان مثال الصدق والنبل والاخلاص في العمل ، نذر نفسه لخدمة قضايا امته مقيما ومغتربا، وتفانى في سبيلها ، ولا ادل على ذلك من الكلمة التي رثاه بها الاستاذ عبد الخالق حسونة ، الامين العام لجامعة الدول العربية آنذاك ، وجاء فيها :

« ان الاعمال القيمة التي حققها المرحوم فؤاد الشايب ، خلال الفترة القصيرة التي انقضت منذ انضمامه الى اسرة جامعة الدول العربية ، كمدير لمكتب الجامعة العربية في الارجنتين ، هي كافية لأن تظهر ابعاد المصاب الاليم الذي حاق بها . حيث انها في الوقت الذي كانت تتطلع فيه الى المزيد من الانصار والمؤيدين للحق العربي ، فاذا بالجامعة تفجع فجاة بوفاته ، وبالتالي تحرم من علم وادب وخبرة علم من اعلام الامة العربية .

وانني اذ اشارك اليوم شعب القطر العربي السوري الكريم مصابه بوفاة المرحوم الاستاذ فؤاد الشايب ، لا يسعني الا ان اقرر بان هذا المصاب قد شمل الامة العربية باقطارها كافة ، لأن نتاج الاعمال التي قام بها وخلدها المرحوم ، لم تكن وقفا على بلد عربي واحد ، او قضية عربية واحدة ، بل كانت شاملة جميع القضايا القومية » .

آثاره

ليس بين ايدينا من آثار فؤاد الشايب المطبوعة سوى :

١ ــ « تاريخ جرح » ، وهو مجموعة قصصية متميزة صدرت عن دار المكشوف في بيروت عام ١٩٤٤ .

٢ ــ محاضرات قومية وثقافية منها « كيف نجابه اسرائيل » التي القاها في النادي العربي بدمشق في ١٥ أيار ١٩٥١ ، بمناسبة ذكرى دخول الجيوش العربية ارض فلسطين .

٣ ــ مجموعة محاضرات واحاديث قومية بعنوان « جمهوريتنا » طبعتها الدار القومية للطباعة والنشر في القاهرة عام ١٩٦٠ .

٤ ــ اطار كتاب عن تاريخ الحريات نشر بعض فصوله في مجلة « الحديث » التي كان يصدرها سامي الكيالي في حلب .

٥ ــ التحولات الجديدة في النطاق الرأسمالي والاشتراكية ، وهي دراسات نشرت تباعا في مجلة « المعرفة » تحت عنوان « مع تيارات الفكر العالمي » في ستة واربعين عددا .

٦ ــ « يوم ميسلون » ــ ٢٤ تموز ١٩٢٠ ــ منشورات وزارة الثقافة عام ١٩٦٥ .

٧ ــ وهناك عدد كبير من المقالات والدراسات التي نشرت في مجلات ثقافية مختلفة ، اقوم الآن بجمعها وتحقيقها بتكليف من وزارة الثقافة ، لاصدارها ضمن مجموعة آثاره الكاملة ، وهذه المقالات والدراسات تؤرخ مراحل الفكر العربي ، ونضال الامة العربية في النصف الاول من القرن العشرين .

ان جميع ما كتبه فؤاد الشايب ونشره هو محصول فترة الشباب وبداية الكهولة ، وهذا النتاج الفكري يعطينا صورة واضحة عن ادبه

المتزن الذي كتبه في زحمة اعماله الرسمية المرهقة ، ولو انصرف الى العمل الادبي في جو من الهدوء والتأمل والبحث ، ولم تتقاذفه التيارات التي تفرضها قيود الوظيفة ، لأعطى الفكر العربي الكثير من النفحات والدراسات التي تتسم بالروح المنطلقة ، والفكر الخلاق المبدع .

الشايب وادب القصة :

لم يقتصر نتاج فؤاد الشايب على تحرير المقالات السياسية والوطنية والقومية ، وكتابة الابحاث الفكرية الرصينة في تاريخ الحريات واصول الاشتراكية ، بل طرق ابواب القصة في زمن مبكر ، ولذلك يعد احد روادها الذين ارسوا قواعدها منذ الثلاثينات ، فقد فازت قصته « ابن الارملة » بجائزة مجلة « الدهور » اللبنانية عام ١٩٣٤ ، وقال امين الريحاني يومئذ عن كاتبها قبل ان يعرفه : « انه كاتب يجيد الوصف ، ويحسن التصوير ، تقرؤه دون ملل ، كأنك تسمع وترى ، وهو في قصته طويل النفس ، مرتاح ومطمئن ، لأنه عاين وخبر ... وهو مخلص لفنه وللحقيقة » .

وقال محمود تيمور عنها : « انها قصة جيدة وجديرة بالاعتبار من حيث دقة التصوير ، وسلاسة التعبير ، وكاتبها قصصي موهوب ، سيكون له مستقبل مجيد في فن القصة » .

لقد اعطت هاتان الشهادتان القيمتان دفعا جديدا لفؤاد الشايب كي يمضي قدما في كتابة القصة ، تارة يستمدها من الواقع الحي ، وتارة من المحيط الذي يعيش فيه ، ولذلك كانت القصة تعيش في نفسه ، وفي اعماق وعيه ، فاذا خرجت ظلت تحمل بصمة الحياة التي عاشتها جنينا في طوية النفس ... كانت كالثمرة الناضجة التعبة على الغصن الذي يحملها ، لا تحتاج الا الى غمزة القلم لتهوي ، وهكذا فانه لا يكلف نفسه عناء وضع الخطط والاشكال .

خير القصص في رأيه ، ما كان لوحـة وصورة ، وان افتقرت الى الموضوع ، من فكرة وعقدة وغاية . . . وخير الروايات ما صعد من الواقع المحلي الى الصعيد الانساني .

القصة عنده ومضة من الرؤى الشاعرية ، تكتب بلغة النثر واسلوبه، فالخيال أبوها الأول ، والحياة أمها ، وبقدر ما يخصب الخيال هـذه الحياة ، تستوفي القصة معانيها الجمالية ، ولا يشترط أن تكون القصة حادثا ، لانه يخشى عليها من تطفل التقارير والريبورتاجات الصحفية ، فاذا كانت القصة القصيرة تتميز بسرعة الحركة ورشاقتها ، فانه يخشى من السرد المستطرد أن يعطل الحركة ، ويشوه الرشاقة .

هذه هي خلاصة آراء فؤاد الشايب في القصة ، ومعظم قصصه التي جمعها في « تاريخ جرح » ، وهي احدى عشرة ، لم تتعد هذه الرؤية التي كان يراها ، وقد صنفه شاكر مصطفى بين كتاب القصة الواقعيين ، لان صوره وأحداثه وثيقة الصلة بالواقع الحي ، وبردود الفعل الانسانية المحتملة ، ولكن يظل بين واقعيته وبين التعبير عن الجو المحلي مسافة بعيدة .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان فؤاد الشايب من أبرع من عالجوا كتابة القصة القصيرة في الشرق العربي ، وفي قصصه لمحات تذكرنا ببعض الكتاب الغربيين الذين تأثر بهم ، فهو يجيد وصف المشاهد ، ورسم اللوحات ، وأجود وصفه ما يدور حول الازمات النفسية ، والتحليل العاطفي ، لكنه يفكر حين يكتب ، ويثير المشاكل الفكرية ، لانه يريد تثقيف قارئه .

* * *

معـراج نـذيـر العظـمة

عبد الرحمن حمادي

يقول الدكتور الشاعر نذير العظمة في حديث خاص بهذه الرسالة : « لطالما شدني التراث ، ولم استغرب ابداً ان اكون ماخوذا بكل جوانب تراثنا العظيم ؟ فانا ابن هذا التراث ، وكنت دائما احلم بان اجلس في خيمة بين بطن صحراء عربية ، بدوياً أعب واعب من اساطيرنا وشعرنا وامثالنا و .. ، حتى كنت في الولايات المتحدة احاضر على طلابي في قصة الاسراء والمعراج الدينية ، فاذا بهم ماسورين مثلي لهذا الجزء من تراثنا ، يطلبون منه المزيد .

خمس سنوات بتمامها وانا اعود بين الفنية والاخرى ، فالبي نداء طلبتي الافرنج ، فاحدثهم عن المعراج ، وخلال هذه السنوات الخمس كنت عاكفا على دراسات وابحاث تتناول المعراج .. فكان هذا الكتاب .

والكتاب الذي يعنيه الدكتور العظمة هو « المعراج والرمز الصوفي »(١) الصادر هنا في بيروت كعمل متميز وجهد كبير يضيف للمكتبة العربية دراسة مسهبة قيمة عن تراثنا العربي .

مصادر المعراج :

في الفصل الاول المعنون بـ « مصادر المعراج بين التنوع والوحدة . يوضح العظمة ان نمو قصص المعراج رافقه امور ، اولها انه كان نموا متدرجا ومترابطا عضويا بتطورات العلوم الاسلامية ومنجزاتها ، فاستفاد من علوم الحديث والتفسير والسيرة والتصوف ونزعات القصص الدينية، وثانيها « ان قصص المعراج انتفست بروح الانفتاح الاسلامي الذي تحلى به فكر المسلمين وحضارتهم بدءا من حركة الفتوح التي انتقلت من الارض الى الثقافة ... وقد ساعدت نزعة الهضم والتمثل التي رافقت روح الانفتاح قصص المعراج في استيعاب عناصر ومصادر غير اسلامية من وثنية وعبرانية دخلت اليها عن طريق التصوف والفولكلور الشعبي ، كما دخلت عن طريق التراث الحي الذي تناقلته الاجيال كابرا عن كابر » .

« وثالثها ان هذا التنوع الذي دخل على قصة المعراج لم يفقدها الوحدة من حيث التفكير الذي يصدر بالدرجة الاولى عن حاجات الجماعة المسلمة ، ويهدف الى تلبيتها ، فكان التخييل والتصوير يساعدان في ايضاح معاني المعراج الخالدة ، وافكاره السامية » .

وقد اعتمد الدكتور العظمة على عدة مخطوطات قديمة للمعراج ، منها المخطوطة الاندلسية التي ترجمت في اشبيليا الى اللغة الاسبانية عام (١٢٦٤ م) ، ولكنها ضاعت وبقي لنا منها ترجماتها الى اللغة اللاتينية والفرنسية القديمة ، ومخطوطة اخرى قام بتحقيقها فوجد انها منسوبة لابن عباس ، ومخطوطات اخرى هي بمجملها صور متنوعة لرواية انس بن مالك وابن عباس التي ظلت تنمو مصاحبة ومعبرة عن الحاجات الروحية والاخلاقية للجماعات المسلمة على مختلف اجناسها وانتماءاتها الحضارية .

في الرمز والرؤيا :

وهو عنوان الفصل الثاني من الكتاب ، حيث يوضح الدكتور المظمة ان المعراج يتجلى وثيقة فكرية ادبية تصور لنا آراء المسلمين وتصوراتهم فيما وراء الطبيعة ، كمانزودنا بأنماط من وجهات النظر والتفكير في صلة الانسان بالله والانسان ، والانسان بالكون ، وتلقي اضواء كاشفة على المعتقدات والانظمة الروحية والاجتماعية وخاصة في التصوف .

« وتكاد عقيدة وحدة الشهود تشكل حجر الزاوية في بناء نظامهم الروحي والفكري ، فهم لذلك يصرون على تفسير سورة النجم بهـذه الصورة ، اي انهم يفسرونها تفسيرا رمزيا يتمركز حول رؤية نور الباري ومشاهداته والوصول اليه . . »

ومن هذا المبدأ ينتقل الى رؤيا « البسطامي » الصوفي الرؤيوي الذي فتح الطريق امام غيره من المتصوفة لاستغلال الطاقة الرمزية المعبرة لهذه القصة العظيمة .

وكذا لمعراج محيي الدين بن عربي ورمزيته ، والرؤيا عند « فريد الدين العطار » ومن ثم يقارن بين تصوراتهم واستعمالاتهم الرمزية ، وليقرر ان قصص المعراج تكاد تكون نوعا ادبيا قائما بذاته» .

ابواب اخرى :

هي : التراث والتقويم الصوفي ـ النور والحجاب بين التصوف والفولكلور ـ الكوميديا الالهية ومخطوطة المعراج الاندلسية ـ هذا معراج النبي (ص) ـ » وهي ابواب نستقري اهميتها من ذكرنا لعناوينها،يزيدها اهمية الدراسة التي اثبتها المؤلف باللغة الانكليزية وتتضمن ملاحظات حول قصة المعراج ومؤثراتها في الادب الصوفي وترجمة لرواية ابن عباس الفولكلورية الى الانجليزية .

بيروت ـ عبد الرحمن حمادي

مشـــروع حـــوليـة الثقـــافـة الفلسطينية

اولا : الهـدف

يهدف المشروع الى توثيق أبرز أوجه النشاط الثقافي الفلسطيني ، في كل الساحات العربية والاجنبية ، نظرا لتوزع الكتاب والدارسيين والمبدعين الفلسطينيين على مختلف الساحات العربية والغربية ، مما يجعل من الصعب على الكتاب والدارسيين المقيمين في عاصمة ما تتبع ومعرفة ما انتجه وأبدعه زملاؤهم في العواصم الاخرى .... يهدف المشروع الى توثيق هذه الحركة الثقافية الفلسطينية ، وتقديمها في كتاب سنوي (نهاية كل عام) مع المقدمات التحليلية والبيانات الاحصائية والدراسات النقدية التي توضح معالم كل جانب من جوانب الثقافة الفلسطينية ، بحيث تكون هذه الحولية مرجعا ثقافيا سنويا لدراسة ملامح الثقافة الفلسطينية ، واساسا علميا يبسط امام الدارسين المسار السنوي لهذه الثقافة ، وطريقة نتاجاتها المتنوعة .

ثانيا : الآفاق والمستويات

يعتمد هذا المشروع توثيق النشاط الثقافي الفلسطيني في كل الاقطار العربية والاجنبية ، في المستويات والآفاق التالية :

١ ــ نشاط المؤسسات والهيئات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية
٢ ــ نشاط المنظمات والاتحادات ذات العلاقة بالثقافة .
٣ ــ نشاط الافراد واللجان والمكتبات .

ثالثا : المجالات

تهدف الحولية الى رصد وتوثيق المجالات الثقافية في الدوائر التالية:

١ ــ القوانين والقرارات الفلسطينية الخاصة بالانشطة لثقافية .
٢ ــ المؤتمرات والندوات والمهرجانات والمعارض الثقافية .
٣ ــ المطبوعات والمنشورات الثقافية من كتب ودوريات وصحف ومجلات .
٤ ــ الفنون الجماهيرية كالمسرح والسينما ، والوسائل الاعلامية كالاذاعة والبرامج التلفزيونية ، وكذلك الفنون التشكيلية .
٥ ــ التربية والاعداد الثقافي في المدارس والمعاهد والكليات التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، او التي تشرف عليها هيئات فلسطينية .

رابعا : المصادر

نظرا لتشعب موضوع الحولية ، وتوزع الرموز والنشاطات الثقافية الفلسطينية ،على العديد من العواصم ، فان المصادر التي ستعتمد اساسا للمعلومات ، ستغطي كافة القطاعات ذات العلاقة ، وهي بشكل مبدئي ما يلي :

١ ــ **المصادر الرسمية** : وتشمل كل ما يصدر عن هيئات منظمة التحرير الفلسطينية ذات العلاقة بالثقافة ، كدائرة الثقافة والاعلام ، ودائرة التربية والتعليم العالي ... وغيرها . ويمكن الحصول عليها بالاتصال الدوري المباشر بهذه الدوائر ، لرصد نشاطاتها ونتاجاتها الثقافيــة .

٢ ــ **المصادر النقابية** : وتشمل كل مايصدر عن الهيئات النقابيــة والاتحادات المهنية الفلسطينية ، وله علاقة بالثقافة ، وخاصة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين وكافة فروعه في الاقطار العربية ، واتحاد الكتاب في الاردن .

٣ ــ **المصادر البحثية** : وتشمل المراكز والمؤسسات الخاصة بالبحث والدراسات مثل : مركز الابحاث الفلسطينية ، مركز التخطيط ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية .. والعديد من المراكز المماثلة في الوطن العربي مثل : مركز الدراسات الفلسطينية ، بجامعة بغداد ، ومؤسسة الارض للدراسات بدمشق .

٤ ــ **المصادر الاكاديمية** : وتشمــل المعاهــد العليــا والجامعات الفلسطينية مثل : جامعة النجاح ، وجامعة بيرزيت ، وجامعة بيت لحم ، بالضفة الغربية ، والجامعة الاسلامية بقطاع غزة ، والجامعات التــي يتوفر فيها نشاطات فلسطينية ثقافية واضحة مثل : الجامعة الاردنية بعمان ، وجامعة اليرموك باربد ، وجامعة بيروت العربية ببيروت ، وجامعة دمشق وجامعة حلب وجامعة الكويت ، وما يصدر من بيانات ووثائق عن هيئات عربية كالمنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم .

٥ ــ **المصادر الاعلامية** : وتشمل :

أ ــ الصحف والمجلات والدوريات الفلسطينية في بيروت ودمشق والارض المحتلــة .

ب ـ الصحف اليومية للاقطار العربية التي يوجد فيها تجمعات فلسطينية واضحة مثل : سوريا ، ولبنان والاردن والكويت والسعودية وقطر والامارات العربية .

حـ ـ أهم المجلات الاسبوعية والشعرية والدورية التي تعنى بشؤون الثقافة في تلك الاقطار .

خامسا : الخطة الزمنية :

أ ـ الاعداد لهذه الحولية من الآن وحتى بداية عام ١٩٨٢ .

ب ـ يبدأ العمل في مطلع ١٩٨٢ ، بجمع المادة وتصنيفها ودراستها وتحليلها اولا فأول خلال عام ١٩٨٢ ، بحيث تكون جاهزة للطبع في نهاية العـــام .

حـ ـ اصدار الحولية في مطلع عام ١٩٨٣ لتحمل اسم (حوليـــة الثقافة الفلسطينية في عام ١٩٨٢) .... وهكذا كل عام .